الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشعبيّة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة مولود معمري-تيزي و زو-

كليّة الآداب و اللغات

قسم اللّغة العربيّة و آدابها

التخصّص:اللغة و الأدب العربي

الفرع :النقد الثقافي

بحث لنيل شهادة الماجيستير:

إعدادالطالب:محمّد ديدان

الموضوع:

الخطاب النقدي الثقافي

لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين

لجنة المناقشة:

د/محمّد الصّادق بروان،أستاذ محاضر صنف أ،جامعة تيزي وزو..... رئيسا

د/خالد عيقون أستاذ محاضر صنف (أ)جامعة تيزي وزو.... .....مشرفا ومقرّرا

د/نصيرة عشّي،أستاذة محاضرة صنف (أ)،جامعة تيزي وزو.....عضوا ممتحنا

د/ زهيّة طراحة ،أستاذة محاضرة صنف (أ)،جامعة تيزي وزو..... عضوا ممتحنا

تاريخ المناقشة:. 9/ 12 / 2015

شكر وامتنان:

بسم الله و الصلاة و السلام على رسول الله

بداية أحمد الله جلّ وعلا على توفيقه و منّه ،ثمّ أستغلّ هذا المقام الكريم لأتقدّم بالشكر الجزيل والامتنان الجميل إلى أساتذتي الكرام ،و في طليعتهم أستاذي المشرف الدكتور خالد عيقون على كلّ ما قدّمه من نصائح و توجيهات قيّمة ،وعلى صبره وحرصه على إتمام هذا العمل في أفضل صورة ممكنة.

كما لا يفوتني أن أشكر كلّ من قدّم لي يد المساعدة ،و ساهم و لو بالكلمة الطيّبة في إنجاز هذا العمل المتواضع

لكم مني فائق التقدير و الاحترام.

الإهداء:

إلى الوالدين الكريمين أطال الله بقاءهما .

إلى كلّ من عرفنا فأحبّنا في الله و أحببناه .

إلى جميع أساتذتي في كل أطوار التعليم

إلى من أنار لنا الدرب في أحلك الظروف ،وأضاء لنا الطريق في أكثر ليالي الجزائر ظلمةً علماء الجمعيّة.

إليكم جميعا أهدي هذا العمل المتواضع.

" أهدي هذه السطور إلى إخواني أعضاء جمعيّة العلماء لأنّهم أصحاب الفضل و المزية،في تكوين جانب كبير من العقل الجزائري ،وفي تحضير روّاد الثّقافة في البلاد"

مالك بن نبي

لقد عرفت الجزائر على مدار أزيد من مائة وثلاثين عاما أصعب أنواع الاحتلال على الإطلاق شبّهه محمدّ البشير الإبراهيمي بالسّرطان من بين أنواع العلل المهلكة ،إذ استهدف ضرب المجتمع الجزائري في ثوابته و أصوله،مما استدعى تدخّلا عاجلا بطابع ثقافيّ فكري حمل لواءه جماعة من العلماء الذين بذلوا الغالي و النفيس في سبيل انتشاله من غياهب الجهل و الظّلام ، وكانت منزلتهم منه كمنزلة القمر من سائر الكواكب.

فالجزائر لا تَعدُم رجالا رسخوا في العلم وأخذوا منه بحظّ وافر في مختلف العصور، لعلّ أكثرهم شهرةً و أبلغهم صيتا أولئك المثقّفون المصلحون الذين اجتمعوا تحت لواء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، التي سطع نجمها في مطلع الثّلاثينات من القرن الماضي ، ممن حاولوا بناء صرح فكريّ ثقافيّ ينبني عليه الفكر الجزائريّ الحديث، يكون مبدؤه تحرير العقول من ظلاميّة الجهل وقيد الاستعباد ومنتهاه تحرير الجزائر أرضا و شعبا.

وعليه فالحديث عن جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين حديث ذو دلالات وعبر يقتضي التّذكير بتاريخ الجزائر النضالي ، ومنه التضحيّات الجسام لرجالاتها العظام ، بعيدا عن لغة السّلاح ،إنّما بلغة الفكر و الثّقافة، في مرحلة حاسمة شكّلت فترةً انتقاليةً فارقةً في تاريخ الجزائر، انتقل خلالها الشّعب الجزائري من فوضى اجتماعية كادت تعصف بشخصيّته و هويّته الحضاريّة و رصيده الثّقافي إلى نظام فكريّ ووعي ديني و اجتماعي، كان بمثابة الأرضية الصّلبة التي انطلق منها الجزائريّون ، وتوارثوها جيلا بعد جيل.

ظهرت الجمعيّة إلى الوجود كحركة ذات رسالة ثقافيّة وعلميّة واجتماعيّة تهدف إلى حماية الجزائري من الذّوبان في الثقافة الغربيّة للمحتلّ المستبدّ، والعودة به إلى الجادّة،حيث الينابيع الأولى لثقافته العربيّة الإسلاميّة الأمازيغيّة، دون منع التّفتّح على ثقافة الآخر، وما بلغه من تطوّر في ميادين العلم المختلفة، ما لم يكن ثمّة تعارض مع الشّرع و العرف.

إنّ اختياري لموضوع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، مع التّركيز على الجوانب الفكريّة و الثّقافية في مشروعها الإصلاحي ، مردُّه محاولة دراستها من زاويّة ثقافية محضة، مع التّذكير بتراث الأمّة، و الوفاء لأصحاب الفضل فيها، ثمّ إنّها لتستحقّ أكثر من بحث، و لتحتاج إلى مزيد من الدّراسات و التّحليلات العلميّة لمختلف الجوانب التي اشتغل عليها علماؤها ،إذا ما علمنا أن هذا التّراث بالإمكان دراسته من زوايا عدّة ، ثقافيّة ، فكريّة ، أدبيّة ، دينيّة ،اجتماعية، سيّاسيّة أو حتّى أنثروبولوجيّة باعتبارها حركة ميدانيّة.

هذه الجوانب المتعدّدة ، و المجالات المختلفة تجعل بالضّرورة الدّراسات التي اهتمّت بهذه الحركة غير كافيّة – على كثرتها- إذا ما قارنّاها بالتّراث الغزير الذي توارثناه عنها ، فالخطاب الثّقافي مثلا لم يُتناول مستقلّا عن المجالات الأخرى ،بل تمّ تناوله في إطار تاريخيّ سيّاسي أحيانا ، و أحيانا أخرى في إطار دينيّ أو أدبي ، ممّا جعل الجهود المبذولة في هذا المضمار تتوارى خلف هذين الأصلين.

آثرت تناوُل الخطاب النّقدي الثّقافي للجمعيّة بنوع من الاستقلالية عن المجالات الأخرى، و هذا لم يمنعني حتما من الاستعانة بها من باب محاولة استنباط التمظهرات الثّقافيّة فيها، فالتّاريخ مثلا ينطوي على حقائق ثقافيّة ، ومحطّات فكريّة لا مفرّ من الوقوف عندها لمعرفة الملابسات التي أسهمت في إنتاج هذا النوع من الخطاب ،كما إنّ الأدب ظاهرة ثقافيّة تستحقّ الدّراسة وعلماء الجمعيّة كانوا جدّ قريبين من هذا الحقل، فكتاباتهم غالبا ما اتسمت بلمسة أدبيّة ، نتحدّث هنا عن أهمّ أعلامها بدءا بالأب الرّوحي عبد الحميد ابن باديس ،مرورا بمحمّد البشير الإبراهيمي أحد روّاد اللّغة و الأدب، وصولا إلى الطّيب العقبي و العربي التّبسي ، و المبارك الميلي ، و الموسوعي أحمد توفيق المدني ،و الشّاعر الفذّ محمّد العيد آل خليفة و غيرهم، ممّا يدلّ على حسن انتقاء أعضائها اعتمادا على الكفاءة العلميّة حيث التخصّص العلمي و التنوّع الثّقافي وهو الشرط الأساسي لنجاح أية جمعيّة، فحاولت الكشف عن تجلّي هذه الأشكال الثّقافية وكيف تتحرّك و تشتغل في خطاباتهم الأدبيّة و غيرها.

ارتكز جوهر بحثي على الإجابة عن جملة من التّساؤلات منها:

ما هي الأبعاد الثّقافيّة التي ركّزت عليها الجمعيّة في دعوتها الإصلاحيّة في سبيل بناء الحضارة الجزائرية الحديثة و بلورة بنيتها الثّقافيّة و الفكريّة ؟

أين تكمن أوجه الائتلاف و الاختلاف بينها و بين الحركات الثّقافيّة المعاصرة لها؟

ثمّ إلى أيّ مدى أسهم الإصلاح الثّقافي في صقل العقل الجزائري الحديث، وما موقع هذا البعد في المنهج الإصلاحي الذي تبنته الجمعية ؟وهل يشكّل الدّين حقيقةً عاملا منافيا للمدنيّة الحديثة؟.

للإجابة عن هذه التّساؤلات وغيرها،آثرت أن أنطلق من الجهود النظريّة و التّطبيقيّة لعلماء الجمعيّة في سبيل الإصلاح الثّقافي ، استنادا إلى مواقف و أقوال وكتابات أهمّ أعمدتها ، وإلى بيانها التّأسيسي وأهمّ مقوّماته ،بغية الكشف عن معالم مشروعها الفكريّ الثّقافيّ و منهجها في ذلك ، ووسائلها المستخدمة لتحقيقه ، مع المقارنة بين أفكارها وأفكار التيّارات المعاصرة لها.

اقتضت طبيعة الدّراسة أن نقسّم البحث إلى مقدّمة و تمهيد، ثمّ ثلاثة فصول و خاتمة.

تناولنا في التمهيد نشأة الجمعيّة و تأسيسها ، فوقفنا خلاله على الإرهاصات الأولى و عوامل الظّهور مع ذكر أهمّ المبادىء و الأهداف ،بالإضافة إلى المُلابسات و الظروف التي نشأت فيها الجمعيّة.

أمّا فصول البحث فقد عنونتُ أولاها ب:**الإصلاح الثّقافيّ كاستراتيجيّة لبناء الأمم والحضارات** تطرّقتُ خلاله إلى أهمّ المصطلحات التي احتجت إليها في بحثي و التي مثّلت محور الدّراسة كمفهوم الثّقافة من باب إشكاليّة المصطلح بهدف بيان مدلولاته في الدّراسات العربيّة و الغربية على السّواء ،كما تناولت مدلوله من منظور بعض المفكرين في الشرق و الغرب ،لأنتقل بعدها إلى الخطاب النقدي الثقافي وخصائصه ،من خلال تحديد مصطلحي الخطاب و النقد كما تطرّقت إلى علاقة الثقافة بالإصلاح الاجتماعي ، وفيه الثقافة و المجتمع ، و الإصلاح و معانيه ،بالإضافة إلى الخطاب و الثقافة ، و الفرق بين الثقافة العربيّة الإسلاميّة و الثقافة الغربيّة لأختم الفصل بالمقاومة الثّقافيّة لعلماء الجمعيّة .

أمّا الفصل الثّاني فاخترت له عنوان:**جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين و الإصلاح الثّقافي في الجزائر**، تناولت خلاله الحياة الثقافية في هذا البلد قبل، أثناء، و بعد ظهور الجمعيّة ،وانتقلت بعدها إلى مجالات الإصلاح التي سعى العلماء إلى البدء منها ،حيث تطرّقت إلى اللّغة كحامل للثّقافة ، و إلى الدّين كمكوّن أنثروبولوجي، فالتّاريخ و أثره في الحفاظ على القوميّة

،لأصل إلى الخطابات النقدية الثقافية كخطاب الهويّة ، و التّراث و الحداثة ،ونقد خطاب الهيمنة و القابلية للاستعمار، بالإضافة إلى الأدب كظاهرة ثقافيّة.

أمّا آخر الفصول فقد وجّهت اهتمامي خلاله إلى المنهج الذي اتّخذته الجمعيّة كاستراتيجيّة للإصلاح، و فيه الأساليب و الوسائل المستعملة ،و المناهج المتبعة في ذلك على المستوى الديني الإصلاحي،و المستوى التعليمي و التربوي،وكذا المستوى الوطني الثوري، بالإضافة إلى شروط الحضارة عند علمائها بالمقارنة مع المفكّرين المعاصرين لهم في صورة مالك بن نبي ، لمعرفة مدى نجاح هذا المشروع من الناحيتين النظرية و العمليّة، قديما وحديثا،و كان عنوان الفصل :**المنهج الإصلاحي الثقافي للجمعيّة.**

لنصل في الختام إلى حصر أهمّ النتائج المتوصّل إليها ، بالإجابة عن مختلف التّساؤلات المطروحة بغية إعطاء نظرة واضحة المعالم عن الوجه الخفي للجمعيّة المتمثّل في الجانب الثّقافي.

مع الإشارة إلى أنّنا اتبعنا المنهج التّحليلي النّقدي في الدّراسة، و هو المنهج الذي يستدعي الدّراسات الاجتماعيّة و النّفسية ، و الثّقافيّة ، مع اعتماده على أساليب التحليل و المقارنة،وبالتّالي كان المنهج الذي اقتضته الدّراسة.

استعنت في هذه الدّراسة بمجموعة من الكتابات لمجموعة من الباحثين الذين اهتمّوا بتراث الجمعيّة ، كلٌّ من زاويّة بحثه،نذكر على سبيل المثال أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرّخين الجزائريين خصوصا من كتابيه تاريخ الجزائر الثقافي ، و الحركة الوطنية الجزائرية،و تركي رابح عمامرة الذي حصر جلّ أعماله حول الجمعيّة و أعمالها و أعلامها،و بالأخص في كتابه التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931-1956)، و عمّار طالبي الذي جمع آثار الإمام ابن باديس في أربعة مجلّدات ، وله جهود مبذولة حول الجمعية تُذكر فتُشكر، دون أن ننسى عبد الملك مرتاض ، و عبد الرّحمن شّيبان تلميذ ابن باديس وغيرهم، بالإضافة إلى مجلّتي الشهاب و البصائر لسان حال الجمعيّة، كما تطرّقت إلى آراء بعض المفكّرين حولها و نظرتهم إليها في صورة مالك بن نبي خصوصا في كتابه مشكلة الثّقافة ، كما لا يفوتني ذكر استعانتي ببعض الرسائل الجامعيّة آخرها رسالة الطّالبة أحلام بالولي ،أدب المقال عند البشير الإبراهيمي – عيون البصائر أنموذجا- 2014م

و رغم غنى المكتبات بالرّسائل و الكتب التّي تناولت جمعيّة العلماء بالدّراسة ، إلّا إنّ هذا البحث اعترضته كغيره من البحوث بعض الصّعوبات، منها ما يتعلّق بتداخل القضايا الثقافيّة مع غيرها من المجالات ، و منها ما يتعلّق بضيق الوقت .

ختاما أتقدّم بخالص الشّكر و الامتنان و التقدير لأستاذي الدكتور خالد عيقون ،الذي أتاح لي الفرصة لولوج مجال البحث العلمي من بوّابة أهمّ حركة ثقافيّة في الجزائر، و الذي ذلّل ليَ الصعاب و قاسمني إنجاز هذا البحث بكلّ ما قدّمه من دعم معنوّي ، و توجيهات قيّمة ، و صبر لا متناهي ، كما أشكر كل من ساعدني من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع ولا يفوتني أن أتقدّم بخالص الامتنان لأعضاء لجنة المناقشة على تفضّلهم بقراءة هذا العمل و عملهم على إسداء الملاحظات و التوجيهات القيّمة خدمةً و إثراءا له.

محمّد ديدان

في:28جوان2015م

التمهيد:جمعية العلماء المسلمين الجزائريين النشأة و الغايات.

1 النشأة و التأسيس

عرفت الجزائر أصعب استعمار على مرّ الأزمان سعى جاهدا إلى محو تاريخها ، و تشويه هويّتها، إضافةً إلى استلاب أرضها و استباحة عرضها،إنّه استعمار متعدّدُ الأطراف أدرك أن السّبيل الأوحدَ للسّيطرة على الجزائريين هو إثارة النّعرات العرقيّة و اللّغويّة فيهم ، وزرع مشكلات ثقافيّة عن طريق عملاء له اشترى ذممهم و ضمائرهم ، مما اقتضى ضرورةَ إنشاء جمعيّة وطنيّة مضادّة لهذا المدّ الاستعماري ، يُشترط فيها تعدّد المشارب والتّوجّهات ، فكانت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين التي كان تأسيسها بمثابة نور أومض في نفق الجزائر المُظلم ، مع ما رماها به بعض الجهلة من كونها جمعيّةً دينيّةً لا يُمكنها أن ترتقي إلى مصاف الجمعيّات الثقافيّة.

أقرّ الإمام محمّد البشير الإبراهيمي في عديد المرّات أنّ عمل الجمعية لا يقتصر على المجال الدّعوي الدّيني فحسب ، بل يتعدّاه إلى مجال الإصلاح الاجتماعي الذي يُعدّ ميدانا مُتراميَ الأطراف يقتضي التدخّل في مجموعة من المجالات من بينها المجال الثّقافي، إذ لا صلاح للمجتمع إلاّ إذا صاحبه تطوّر في الظّروف الثّقافيّة ، و الاقتصاديّة و السّياسيّة و النّفسيّة ، وهي مجالات تأخذها الجمعيّة على عاتقها ، بهدف بناء وطن بمقاييسَ حضاريّة عالميّة في كنف الثّقافة الإسلامية العربيّة الأمازيغيّة،"أيّها الإخوان من الغلط أن يُقال أنّ جمعيّة العلماء جمعيّة دينيّة ، يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح بالمعنى الذي عرفه النّاس ، و من فروع هذا الغلط ما رماها به مرضى العقول و صرعى الجهل من أنّها خرجت عن مدارها حين زجّت بنفسها في بعض شؤون الحياة غير الدّين ،و الحقيقة أنّ هذه الجمعيّة تعمل من أوّل يوم من تكوينها للإصلاح الدّيني و الإصلاح الاجتماعي وكلُّ ذلك يسع الإسلام و كلّ ذلك يسعه مدلولها ، وموضوعها ، و قانونها ، فالإسلام دين و اجتماع وإذا كانت دائرة الأوّل محدودةً ، فإنّ دائرة الثّاني واسعةُ الأطراف ، وإنّ الإصلاح الدّيني لا يتمّ إلّا بالإصلاح الاجتماعي..."[1]

[1]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1، دار الغرب الإسلامي،ط1، الجزائر 1997، ص281

يُؤكّد هذا الكلام بعدَ النظر الذي ميّز علماء الجمعيّة، ودرجة الوعي التي بلغوها، بعد أن تجاوزوا المراحل الإجباريّة في عُرف الحركات و الجمعيّات الإصلاحيّة ، إذ من المعلوم أنّ أيّةَ جمعيّة دينيّة كانت أم سيّاسيّة أم ثقافيّة يسبق ظهورها تأثُّر واضحٌ بشكل أو بآخر بحركات أخرى سابقة عنها أثبتت نجاعتها في ظروف مماثلة لظروفها ، و في بلاد تُقاسمها العادات و التّقاليد و البنى الثّقافيّة نفسها.

لم يكن لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أن تشذَّ عن هذه القاعدة ، فكانت الخطوات الأولى لظهورها حسب ترجيح جمع من الباحثين قبل الحرب العالميّة الأولى ، وكان ذلك بالتّحديد سنة1903م في أعقاب الزّيارة التي قام بها أحد أعلام النهضة متمثّلا في شخص الشيخ محمّد عبده* ، زيارةٌ أُعيد بفضلها ربطٌ الجزائر حضاريّا وثقافيّا بالأمّة العربيّة والإسلاميّة جمعاء، من خلال وضع الجزائريين في الجوّ العام الذي ميّز المنطقة العربيّة يومئذ ذلك الجوّ الذي منعه عنهم الاحتلال ففوّت عليهم بذلك موجات ثقافيّة و علميّة و حضاريّة قطعها أشقّاؤهم في شتّى المجالات ، قاصدا من وراء ذلك أن يطول في الجهل أمدها ،ليسهُل عليه إحكام السّيطرة عليها، فكان لهذه الزّيارة الفضل الكبير في دفع عجلة الإصلاح ،حيث ظهرت على إثرها فئة مثقّفةٌ تدعوا إلى الإصلاح وفقا للأسس التي جاء بها محمّد عبده ، ولم يُنكر علماء الجمعية هذه العلاقة التي كانت تربطهم بالحركات الإسلاميّة المعاصرة لهم، حيث اعترف ابن باديس نفسه يوما بتأثّره بالجامعة الإسلاميّة ، وذكر منها الزّعيمين محمّد عبده و رشيد رضا الذين كان لهما تأثير كبير على الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة من خلال مجلة العروة الوثقى، وجريدة المنار،هذه الأخيرة التي كان لها قرّاء دائمون في الجزائر يترقّبون وصولها بشغف كبير لأنها كانت تُمثّل لهم المددَ الفكريّ و الرّوحي الوحيد الذي يربطهم بإخوانهم[1]، وهذا ما يؤكّده البشير الإبراهيمي بقوله :"إنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين

*محمّد عبده(1266هـ - 1323هـ) (1849م - 1905م)،عالم دين و فقيه و مجدّد إسلامي مصري،أحدرموز التجديد و النهضة و الإصلاح في الوطن العربي قاطبة،ساهم رفقة جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكريّة تجديديّة في أواخر القرن التاسع عشر،و بدايات القرن العشرين،تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري ،و بعث الرّوح الإسلاميّة لمواكبة تطوّرات العصر:ينظر، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرّة،ويقال إن فكرة التجديد استلهمها من الجزائر،متمثلا في الحركة السنوسيّة في مستغانم و كتاب الآجروميّة و شروحها المقرّرة في الأزهر.

[1]ينظر محمّد زرمان ، فلسفة التجديد الإسلامي (أنموذج الشيخ البشير الإبراهيمي)،دار الصّحوة ،(دط)،القاهرة،1999،ص22

مدينة بالكثير لرضا و لمجلّة المنار"[1]، شهادةٌ لها ما يُعزّزها من قبل الكتّاب الفرنسيين الذين يكادون يجمعون على أنّ الفكرة لدى العلماء الجزائريين ، لها علاقة بالحركات الإصلاحيّة و الجامعة الإسلاميّة في الشرق الأدنى.

كانت هذه الإرهاصات الأولى لتأسيس الجمعيّة ، أمّا الخطوات الأولى في هذا في هذا المضمار فكانت هناك في البقاع المقدّسة ، في موسم الحج من سنة 1913م،حين كان يجتمع اثنان من خيرة أبناء الجزائر،عبد الحميد ابن باديس ومحمّد البشير الإبراهيمي بهدف دراسة أوضاع الجزائريين في شتّى الميادين و أهمّها الميدان الثّقافي ، فكان من بين الحلول المُقترحة مبدئيّا ضرورة القيّام بنهضة شاملة و عامّة تستهدف التغيير في البنية الفكريّة و الثّقافيّة و الاجتماعيّة ، ولا يكون ذلك متاحا إلّا إذا نُشر العلم الصّحيح السليم من الشّوائب ،ورُفع الجهل ،وشُيّدت المدارس لتكون الأُسسَ التي تقود الشعب الجزائري لاحقا نحو التّحرّر"وكنّا نجتمع في اغلب اللّيالي اجتماعا خاصّا لا نتحدّث فيه إلّا عن القطر الذي يجمعنا وهو الجزائر والبلد الذي يضمّنا و هو قسنطينة ، و الآمال التي تملؤ نفوسنا في ترقيّته وإعداده للتّحرير،فكنّا نُجمع أنّه لا وسيلة لذلك إلّا العلم تُنشر أعلامه والجهل يَنقشع ظلامه ثمّ تُصوّر الخواطر لي و له مدارس تُشاد للنشء،وألسنةً تتفتّق على العربية و أقلاما تتشقّق على الكتابة..."[2].

لم ينتظر الإمام ابن باديس كثيرا ليباشر وضع الخطوط العريضة لمشروعه الضخم فعاد من عامه إلى الجزائر ، ولحقه البشير بعد ذلك بسبع سنوات كانت كافيّة لتقدّم المشروع ، وبداية ظهور أهمّ المعالم، فكانت لعودته التي تزامنت أيضا مع عودة العلماء و الطّلاب الذين هاجروا طلبا للعلم و التثقيف، و طلبة ابن باديس الذين أكملوا معلوماتهم في جامع الزيتونة الأثر البالغ في نفس القائد إذ كانت بمثابة المدد الذي جاءه لوقته، فصار الإبراهيمي المساعد الأوّل و الشريك الشّرعي في اتّخاذ القرارات بالمشاركة بالرّأي و التّفكير و التّقدير و الدّعاية وانطلق العمل الفعلي في تحضير الأذهان إلى النّهضة الكبرى، فكانت الدُّروس و المحاضرات التّي ألقاها الإمام الإبراهيمي بمثابة الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل التي سعى العلماء لقطعها لبلوغ خطّ النّهاية حيث الحريّةُ والاستقلالُ وعليه كان لهؤلاء المصلحين اليد الطّولى

[1] أبو القاسم سعد الله،الحركة الوطنيّة الجزائريّة(1900،1930)،ج2،دار الغرب الإسلامي، ط4،الجزائر،1992،ص386

[2] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص140.

في وضع الحجر الأساس لهذه الجمعية حيث"...استقام الصّدد، وتلاحق المدد، وكانت من أصواتنا مسموعة –يقول الإبراهيمي - ما يكون من الصّيحة رجّت النّائم ،ومن أعمالنا مجموعة ما يكون من الروّافد انصبّت في النّهر فجاشت غواربه،وكانت تلك بداية النّهضة بجميع فروعها،و الثّورة الفكريّة بتمام معانيها"[1]

المدقّق في هذا الكلام يكتشف أن مشروع الجمعيّة كان ثقافيّا فكريا يهدف إلى تحقيق النهضة بجميع فروعها،وأنّ السبيل الأوحد لإنجاز ذلك يكمن في إيقاظ همم الشعب الجزائري و دفعه نحو العلم والتثقيف،ولم يكتف العلماء بالتّخطيط الجيّد ولمّ الشمل، بل اختاروا الوقت المناسب لتنفيذ مخطّطاتهم من أجل بلوغ الكمال،فحدث ذلك في لحظة غفلة من المحتلّ الذي كان منشغلا في الغالب بالحرب العالمية الأولى التي احتاج فيها إلى مساعدة من الشّعب الجزائري وبالتّالي لم يكن في صالحه تعكير صفو العلاقات معه،بل على النّقيض من ذلك سعى إلى استئلافه واستمالته،وما انتهت الحرب العالميّة الأولى حتّى رسخت جذور الجمعيّة ، وذاع صيتها، وارتكزت في الصّدور تعاليمُها والتفّ حولها الصّغير قبل الكبير،و المرأة قبل الرّجل حمايةً لها و دعما لمشروعها، فلم يجد الاحتلال إلّا الاستمرارَ في السّكوت، لأنّ محاولة وأدها كانت تشكّل خطوةً انتحاريّةً من الممكن أن تصيبَه في مقتل ، وتطعن في شرعيّته بين الأمم وهو الذي طالما تبجّح بحريّة الرأي ، والمُضيّ قُدما نحو المدنيّة و التّطوّر في مستعمراته[2].

في هذه البدايات سلك العلماء طريق الاجتهادات الفرديّة، فوضع كلّ واحد منهم تصوّرا لبرنامج إصلاحيّ ثقافي ثريّ ، كانت المحاضرات و الصّحافة،و النّوادي الثّقافيّة و المدارس والمساجد بمثابة وسائل دعاية له، ولكنّ قطف ثمار هذه الجهود كان يستلزم تتويجها بعمل جماعيّ يُوحّدها ،و يرتقي بها إلى مصاف الأعمال التي تكتسي طابع القانونيّة"إنّما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله ، وإذا كانت لهم القوّة ،وإذا كانت لهم جماعة منظّمة تُفكّر، و تُدبّر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة، ولدفع المضرّة ،متساندة في العمل عن

[1] المرجع السابق،ج5،ص140
[2] نفسه، ص141

فكر و عزيمة"[1]وفي هذا يروي الشيخ الإبراهيمي أنّ الإمام ابن باديس كان قد زاره بمدينة سطيف سنة 1924م وأخبره عن عزمه تأسيس جمعيّة باسم الإخاء العلمي، يكون مركزها مدينة قسنطينة، تهدف إلى جمع شمل العلماء، والطّلبة وتُوحّد جهودهم،وتُقارب بين مناهجهم في التّعليم و التّفكير،وتكونُ صلة تعارف بينهم ، ومزيلة لأسباب التّناكر و الجفاء[2].تأخّر هذا المشروع بستّ سنوات كاملة، كان فيها تأسيس الجمعيّة الشغلَ الشّاغل لعلمائها،حيث راحوا يُمهّدون الأرضيّة المناسبة و الشّروط الضّرورية لذلك"فميلاد أية حركة علميّة، هي عمليّة طويلة ،و في بعض الأحيان مؤلمة،قبل أن يستطيع النّاس رؤيتها ،و تقديرها"[3].

إنّ كلمة إصلاح تقتضي عدم الرّضا بالواقع المعيش، فينتُج عنه العمل على إلغائه ، وإحلال واقع آخر محلّه، يكون الهدف منه تحقيق النّهضة و اليقظة، فالمبعث الرّئيس لإنشاء الحركات الإصلاحية هو حماية المقدّسات،وتحصين الهويّات المهدّدة، ومحاولة تثبيت المبادىء والقيم الأصيلة في المجتمع مع محاولة تطويره فكريّا و ثقافيّا، حتّى يكونَ على نفس الخطّ مع التّقدم الحاصل في العالم ، فتكون بذلك إحدى عوامل النهضة والانطلاقة الفعليّة نحو التّغيير.

ومن الأوضاع التي لم تنل رضا الجزائريين ، ذلك الواقع الذي فرضته حكومة الاحتلال حين عزمت على الاحتفال بمرور قرن على احتلال الجزائر عام 1930م، فكانت تلك الخطوة بمثابة القطرة التي أفاضت كأس الجمعيّة،إذ مثّلت تلك الاستفزازات عاملا قويّا في تحويل فكرة الجمعية إلى واقع عملي، فرضته الظروف و عنجهيّة الاحتلال، الذي كان يبغي من وراء ذلك الدّعايةَ و التّشهير بما حقّقه من مدنيّة مزعومة حتّى يشهد له العالم بذلك ، في حين أنه لم ينشر في الجزائر شيئا من المدنيّة ،و إنّما نشر الأخلاق الدنيّة بتعبير الإبراهيمي الذي يسرد ردّة فعل العلماء إزاء ذلك بالقول :"أمّا نحن و أعني تلك الفئة القليلة ،ومن التفّ بنا من تلاميذنا، فقد بكّرنا أيضا بدعوة مضادّة لهذا العيد ، وبثثنا عليه في الأمّة كلّ مكروه، وكان كلامنا مع الأمّة كلّه يدور على معنى هذه الجملة:إن هذا العيد هو عرس فرنسا في مأتمكم،وهو تذكير لقتلهم لآبائكم، وبكل ما صاحب الاحتلال من انتزاع أرضكم و انتهاك عرضكم، و هو إشهاد للأمم

[1]عبد الحميد ابن باديس، مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث،(دط)،الجزائر،1982م،ص288
[2]ينظر عبد الرحمن شّيبان، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،دار المعرفة،(دط)، الجزائر،2008م،ص53
[3]أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنيّةالجزائريّة(1900،1930)،ص114.

على قهركم، وإذلالكم ،و تسجيل عليكم بذلك..."[1]،إن الظّاهر من هذا الكلام أن الاستعمار عمد إلى استخدام ما يعرف بالمعامل الاستعماري عند مالك بن نبي ، وهو الذي يؤثّر في نفسيّة الجزائريين من خلال تذكيرهم في كلّ مرّة بالهزيمة التي تكبّدوها على يديه قبل قرن من الزمن و كذا عدم قدرتهم على التخلّص منهم طوال هذه المدّة فأنّى لهم أن يتحرّروا من ربقته في سنوات معدودات ،وعن طريق هجمات متفرّقة لا تخلوا من الخجل ، وهو بهذا يهدف إلى كبح جماح الشّعب الجزائري ، ويدفعه إلى الكفّ عن التفكير في التحرّر"حيث أنّه يفرض على حياة الفرد عاملا سلبيّا نسمّيه بالمصطلح الريّاضي المعامل الاستعماريcoeflicient ولذلك المعامل تاريخه في سيّاسة الاستعمار"[2]،وعليه يشتغل في المستعمَر إلى أن يورّث في قلبه ثقافة الانهزاميّة و التّبعيّة و الدّونيّة.

كان العلماء يلعبون على الوتر الحسّاس من نفسيّة الشعب الجزائري، بُغية تحريك النّخوة و الفضيلة فيه، وإحياء العزّة و الكرامة من نفسه ، فكانت الاستجابة سريعة ، وأوّل أماراتها مقاطعة الجزائريين لهذا العيد ، و خروج علماء الجمعيّة من العاصمة فلم يدخلوها إلّا بعد انصرام شهور المهرجانات ، و كان من الخزي لحكومة الاحتلال أنّه لم يستجب لدعوتها إلّا من تكفّلت هي بنفقاتهم كالصّحفيين و العلماء الذين خصّتهم بالدّعوة[3]، و لقد أيّد الله عمل العلماء في إيقاظ الشعب الجزائري بكلمة لخطيب فرنسي أبان خلالها عن حقد دفين ،وعن ما هو مسكوتٌ عنه في حملة الاحتلال حين قال :"ليس الدّاعي الأكبر لمثل هذه المهرجانات هو الاحتفال بمرور مائة عام على احتلالنا للجزائر فهذا أمر بسيط ، وله عواقب معروفة، فقد لبث الرّومان هنا ثلاثمائة سنة ثمّ أُخرجوا ، ولبث العرب بالأندلس ثمانمائة عام ثمّ أُخرجوا،ولكن الباعث الأعظم على هذا،هو أنّنا لتمشوا معنا في جنازة الإسلام في الجزائر..."[4]، كلمةُ هيّج بها نخوة الجزائريين من حيث لا يدري ، وجعلهم يشعرون بمذلّة و هوان لم يسبق لهما مثيل ،وهذا الذي عبّر عنه جون بول سارتر بالقول"كانت الجزائر تشعر

[1]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص145.
[2]مالك بن نبي،شروط النهضة،تر:عبد الصبور شافي وعمر كامل مسقاوي،دار الفكر،(د ط)،دمشق ،1986م ،ص146.
[3]ينظر، أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص146.
[4]نفسه،ص146.

بمذلّة خضوع مقدّساتها للغازي الأجنبي ،الذي دمّر الكثير من قواها الرّوحية، و البشريّة والمادّية..."[1]

لم يتورّع الاحتلال في إذلال الجزائريين ، فراح يُنظّم استعراضا عسكريّا ،بثيّاب مماثلة لتلك التي دخل بها سيدي فرج غازيا منذ قرن من الزّمن، كما لم يكترث بديّانة الجزائريين و مسّ الذّات المحمّدية الطّاهرة ، فوصفها بشنيع الألفاظ و قبيح الصّفات، كما أقاموا وعدة عند ضريح الولي الصّالح سيدي فرج تكريما لاحتلالهم المنطقة ،وأجبروا السّكان على قراءة القرآن احتفاءا بذلك ، حتّى قال أحدهم"إنّا كنّا نأكل و كأنّنا نبتلع النّار،ونشرب السّم ،وكنّا نقرأ القرآن ونشعر أنّنا كنّا نسبّ الدّين،وكان شعورنا شعور من احتقر احتقارا لم ينل منه أيّ شعب من شعوب الأرض"[2]

وفيه وصف للحال النفسيّة المزريّة للشعب الجزائري يومذاك ،وتلميح إلى حالة عدم الرّضا التي شعر بها السّكان تجاه هذا الاستعمار الذي أراد بفعله هذا المبالغة في إذلال الجزائريين من جهة ، وطبعهم بطابع القابلية للاستعمار من جهة أخرى وهذا بإجبارهم على الاحتفال بمرور قرن على احتلال بلادهم.

2 المبادىء و الأهداف:

كان لزاما أن تُعجّل جمعية العلماء بالظّهور نظرا للأحداث المتلاحقة التي ميزت الجزائر يومها، فكان لها ذلك، حيث تأسّست بعد هذا الاحتفال بسنة واحدة فقط كردّة فعل على الخطاب الذي اعتبرت فيه حكومة الاحتلال- زورا و بهتانا - أ نّ الجزائر أصبحت جزءا لا يتجزّأ من الأمّة الفرنسيّة ، فرفعت الجمعيّة شعارها المتكوّن من الثّالوث المقدّس: الإسلام والعربيّة والجزائر ،فالإسلام ديننا ردّا على من قال أنّ الجزائر قد عادت إلى مسيحيّتها التي انتشرت فيها قبل الفتح الإسلامي، و العربيّة لغتنا ردّا على من جعل الفرنسيّةَ لغةً للجزائريّين و الجزائر وطننا ردّا على الزّعم القائل أنّ الجزائر قد أصبحت قطعة من فرنسا و عمالة من عمالاتها[3].

تأسّست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التي أصبح بتأسيسها ذلك الحلم حقيقةً في الخامس من شهر مايو 1931م، الموافق ل17 ذي الحجّة ،1349هجري، بنادي التّرقّي

[1]جون بول سارتر ، نظام الاستعمار في الجزائر،تر،سهيل الإدريسي،مجلّة آداب أجنبية،ع4،بيروت ، لبنان،1980،ص34.
[2]أحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للكتاب،ط2، الجزائر،1988م،ص105 .
[3]ينظر عبد الرحمن شيّبان، حقائق و أباطيل، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (د ط)،الجزائر، 2009،ص7.

بالجزائر العاصمة، تحت رئاسة عبد الحميد ابن باديس،واستمرتّ إلى عام 1956م، وهو العام الذي قامت فيه بتجميد نشاطها بعد استفحال الثورة ،حيث انضمت إليها ووضعت جهودها تحت تصرّفها ،و كان لهذا الحدث تأثيره على الحكومة الفرنسيّة "فلقد سمع الاستعمار لأوّل مرّة في حياته بهذه الدّيار نغمة لم تألفها أذناه تدعوا إلى الحقّ في قوّة ،وتطالب بالإنصاف في منطق"[1].

انطلاقا ممّا سبق ذكره يُمكن القول أن الجمعية كانت نتيجةً حتميّةً لصراع ثقافي أراد الاحتلال أن يوجّهه بما يخدم مصالحه، فكان لا بدّ من الوقوف في وجه هذا المشروع الهدّام بمواقفَ ذات حمولات إيديولوجيّة، نابعة من صميم الشّخصيّة الوطنيّة ،لأنّ الاستعمار عمد إلى الاستفادة من السّلاح الأكثر فتكا في سبيل تحقيق البقاء متمثّلا في سلاح الثّقافة و الفكر، إذ لا يخفى على أحد أنّ الحملة الفرنسيّة على الجزائر شارك فيها العساكرُ جنبا إلى جنب مع رجال العلم،و رجال الفكر بهدف محاربة الإسلام، و العربيّة وتحريف التّاريخ مع طمس الهويّة الوطنيّة ، و مسخ الأخلاق و نشر الرّذائل،"لقد جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر لا ليجعل منها مجرّد مستعمَرة يحتلّ فيها الأرض و ينهب الثروات ، و يُغرّب العقول بالقدر الذي يؤبّد به احتلال الأرض ونهب الثروات (...)وإنّما جاء طامعا فيما هو أكبر من ذلك و أخطر،جاء ليجعل الجزائر امتدادا لفرنسا عبر البحر المتوسط ،قطعة من فرنسا الدين و اللّغة والهويّة والحضارة لذلك كانت حربه الشرسة و الضروس ضد أصول الشعب الجزائري،ضد الإسلام الذي انتزع الجزائر من النصرانيّة الرومانية، وضد العربيّة التي جاء بها الإسلام إلى الجزائر،وضد القانون الإسلامي الذي أخذته الجزائر عن فقه إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه..."[2].

بلغ سقف طموح الاستعمار الفرنسي إلى حدّ إعادة الجزائر إلى مسيحيّتها الأولى بدلا من الإسلام ،وإلى الفرنسيّة بدلا عن العربيّة ، و قد نحت في ذلك منحى الهزيمة النفسيّة للجزائريين من خلال بثّ ثقافة الخوف من المجهول ،و ضرورة طاعة ولي الأمر، و الفهم الخاطئ لمعاني القضاء و القدر.

[1]أحمد طالب الإبراهيمي آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج4، ص22.
[2]محمّد عمارة(مصر)،الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمّة،،البصائر،ع243،6-13جوان2005.

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ليست بالجمعيّة التي تكتفي بدورها الدّعوي كما يحسب البعض بل هي جمعية علم، وأدب، و فكر، و ثقافة"هي جمعيّة إسلاميّةٌ في مدارها وأوضاعها، علميّةٌ في مبادئها و غاياتها، و قد تأسّست من أجل تحقيق هدف تتطلّبه ظروف الجزائر و أوضاعها السّياسيّة و الثّقافيّة و الاجتماعيّة ، و هو تعليم الدّين واللّغة العربية، وبعث الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في البلاد ، و المحافظةُ على القوميّة للجزائر"[1].

عمد العلماء إلى تقليد الشعب الجزائري بسلاح الثقافة و الفكر، و هو السّلاح المعنوي الذي يرونه أسبقَ و أوكدَ من سلاح الحديد و النّار ، وقد حقّقوا نجاحا مُهمّا في إيقاظ الهمم، و تنوير الرأي العام ،حتّى قال أحد القادة الفرنسيّين"هل يُمكن القول أنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين مليّة؟ نعم و أعجب أن يشكَّ أحدٌ في ذلك ، إن سيّاستهم الحاضرة تنحصر بين المرابطة بحصن الثّقافة و الدّين ، وهكذا يتدّخلون في كلّ شيء ، و ينتظرون أن يتدخّل رجالٌ آخرون لاستعمال السّلاح الذي يصقلونه بأيديهم و يعدّونه"[2]،و هو دليل على أن تصريح العلماء بابتعاد الجمعيّة عن الميادين السّياسيّة ما هو في الحقيقة إلّا ذرٌّ للرّماد في عيون الاحتلال حتّى لا تلقى المعارضة الشديدة التي تصل إلى حدّ التوقيف النّهائي، في محاولة منها لتنويم دولة الاحتلال و التحضير للثورة في صمت و هو ذكاء يُحسب لهم.

إنّ إعمال العقل هو السبيل الأوحدُ للوصول إلى برّ الأمان، وأمّا القراءة و التعليم بلا تدبّر فهي كمن يحمل خارطة طريق لا يفقه مفاتيحها ، فمثله كمثل الذي يسير على غير هدى لذا نجد علماء الجمعية يُصرّون على الفكر و التّدبّر،قال الإمام الرئيس "التفكيرَ التفكيرَ يا طلبة العلم، فإنّ القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم ،وإنّما تربط صاحبها في صخرة الجمود و التّقليد و خير منها الجاهلُ البسيط"[3].

خلافا للحركات السّياسيّة التي اعتمدت الكفاح السّياسي لبلوغ غاياتها وتجنيد فئات الشّعب حول برامجها ، فإن الجمعيّة اعتمدت أسلوب الإصلاح الدّيني ، والاجتماعي الذي هيّأ الأنفس

1تركي رابح عمامرة، التعليم القومي و الشّخصيّة الجزائريّة،(1931،1956)،دراسة تربويّة للشّخصيّة الجزائريّة،الشركة الوطنيّة للنشر و التّوزيع،ط2،الجزائر،1981م،ص197.

2عبد الرحمن شّيبان ، حقائق و أباطيل،منشورات المجلس الإسلامي الأعلى،(دط)،الجزائر،2009م ،ص149.

3عبد الرحمن شّيبان، مقدّمة مجلّة الشّهاب ،دار الغرب الإسلامي ،ط1،بيروت،2000م،ص19.

للانصهار في الحركة السّياسيّة عن طريق التربيّة و التّكوين ، وإحياء المقوّمات الذّاتيّة للشّخصيّة الجزائريّة ،وربط الجزائر بمحيطها العربي الإسلامي الذي أراد الاستعمار انتزاعها منه، وبهذه العناصر تكون الوحدة راسخةً مصونةً، و يكون الجهاد واجبا قائما ، فيكون النصر ميسورا مضمونا[1].

يمكن القول أنّ ثورة الجمعيّة هي ثورة ثقافيّة بالمعنى الفضفاض للكلمة، فبكل ما تحمله من أفكار أضحت هذه الحركة أساس الفكر القومي، و الرّكيزةَ التي توجّه الرأي العام الجزائري بفضل الأهداف التي تروم بلوغَها ،معنويّةً كانت من عقل و روح و ذهن وفكر،أو مقوّمات اجتماعيّة من دين ولغة و فضائلَ وأخلاق وهذا الذي نلمحه في قول الإبراهيمي:"إنّ الحركة الدّينيّة التي قادها عُلماؤنا الأجلّاء تعدّى صداها حدود الوطن، وكانت ثورةً ثقافيّة حقيقيّة بمفهوم اليوم، قلبت أوضاع الشّعب الجزائري ، وجعلته يعيش في حالة تناقض دائمة مع الاستعمار(...) لقد أدخلت تلك الثّورة الثّقافيّة على المجتمع الجزائري تحوّلات في مفاهيمه، إذ أيقظت فيه روحَ الأُخوّة و التّضامن ، وبعثت فيه الأملَ الذي هو مفتاح الوصول إلى الغاية المنشودة ، و أعدّت لذلك الوسائل الملائمة التي رسمت الطّريق إلى شاطىء الخلاص ،و برّ الأمان"[2].

هذا التّنوع في مجالات العمل كان مفروضا على الجمعية ، حتىّ تستطيع مسايرة نسق الاحتلال في غرس أفكاره وسط الشعب البسيط، لأن الاحتلال في الجزائر كان احتلالا متعدّد الأوجه "لقد بُليتم بالاستعمار مثلما بُلينا ، وشعرتم بضراوته مثلما شعرنا،لكنّكم لا تعرفون أنّ ما أصابنا نوعٌ شاذّ من الاستعمار،يُشبه السّرطان من بين أنواع العلل المهلكة،إنّه كان يريد محو شخصيّتنا، وعقيدتنا، و لغتنا، و تاريخنا، وحاضرنا، و مستقبلنا،و من المستحيل الإبقاءُ عليه أو البقاء معه، إنّ معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعا في ميادين الكفاح و التّضحيّة، من أن نموت على هذا النحو الذي يُراد لنا"[3].

إنّ الحرب في طيّاتها حرب هويّة، و عقيدة، و لغة، و تاريخ،وشخصيّة وطنيّة، هي حرب تغريب، ومحو لمقوّمات الجزائري المسلم، فكان من أمر العلماء أن اتّجهوا إلى الجانب الأهمّ

[1] ينظر، أحمد طالب الإبراهيمي ، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1،ص281.
[2] نفسه، ج1،ص8.
[3] نفسه،ج4،ص7،8.

من المواطن الجزائري وهو الجانب المعنوي الرّوحي، وفي ذلك يتحدّث الإبراهيمي عن ابن باديس"إنّي أتخيّله حيّا ، وأتصوّر أن يسمع رجلا يرطن بالفرنسيّة ، ما أحسبه يتركه دون تقريع و تعنيف بالغين، وله الحقّ في غضبه، فالاستعمار العسكري ذَنَب، و الاستعمار الثّقافي هو الرّأسُ ، و الحيّة لا تموت بقطع ذَنَبها ،بل الأمر كما قال الشّاعر:

لا تقطعن ذنَب الأفعى و تتركها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذّنبا"[1].

يقع على عاتق الشعب الجزائري تحرير ثقافته من التّبعية ، قبل التفكير في تحرير الأرض حتّى إذا ما أدرك ذلك كان تحرير الأرض أقربَ ما يكون منه ،فلقد كان من بين الأهداف الرّئيسة للجمعيّة التّحريرُ الكلّيُ للشعب الجزائري،والتّحرير في نظرها قسمان تحرير العقول و الأرواح و تحرير الأبدان و الأوطان، والأوّل أصلٌ للثّاني، ومدار الأمر بينهما وجودا وعدما، فإذا تعذّر تحرير العقول و الأرواح من الأوهام في الدّين و الدّنيا،امتنع تحرير الأوطان أو تعسّر، حتّى إذا تمّ منه شيءٌ اليومَ ضاع غدا ،لأنّه بناءٌ على غير أساس فكان من نتيجة ذلك أن كوّنت الجمعية شبابا فاهما للحياة مستشرفا للمستقبل ،صافي الفكر يرى بعين التّفاؤل"فتحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومحال أن يتحرّر بدن يملك عقلا عبدا"[2].

كان من أهداف الجمعيّة ضرورةُ محافظة اللّغة العربية على أصالتها،و الدّين الإسلامي على نقاوته و فطرته، و الوطن بكلّ مقوّماته و أسسه، و الشرف وما يدعو إليه من فخر واعتزاز "وجمعية العلماء هي التي حقّقت للجزائري نسبه العربي الصريح بريئا من شّوائب الاقراف والهجنة، و أحيت في نفسه شعور الاعتزاز بنفسه،وفي لسانه شعور الكرامة بلغته و في ضميره شعور الارتباط بالمقوّمات الثلاث الجنسُ و اللّغةُ و الوطنُ، يمدها الشّرق بسناه ويغذّيها الإسلام بروحانيّته"[3]، و المقصود بشوائب الاقراف و الهجنة هنا تلك الأنساق المضمرة التي سعى الاحتلال لغرسها في لاوعي الجزائريين من خلال دعوتهم إلى الاستغناء عن لغتهم خدمة للغته و التخلّي عن دينهم انبهارا بعقيدته، ونسيان ماضيهم افتتانا بحاضره ممّا ينجرّ عنه ازدواج في اللغة و الشخصيّة و العقليّة أيضا.

[1] المرجع السّابق،ج2،ص8

[2] نفسه،ج4،ص343

[3] نفسه،ج3،ص57.

إنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في لبّها هي حركة وطنيّة جزائريّة ،تعمل على المحافظة على الصّبغة الإسلاميّة، العربية، الأمازيغيّة، في إطار الأصالة و المعاصرة.

"وفي الدّار جمعية العلماء تغذّي العقول بوحي السّماء
و تهدي النّفوس الصّراط السّو ي وتغرس فيها معاني الإباء
تواكب نجم الشّمال اندفاعا وتغمر أكوانه بالسناء
ويعضد باديس فيها البشير فتزخر بالخلص الأصفياء
وتغزو الضلالات في التائهين مع الوهم في موكب الأغبياء
و ترسى جذور الأصالة في الشعب تمحو بها وصمة الدّخلاء
وتبني المدارس عرض البلاد فيُعلي ابن باديس صرح البناء
و يرتاع مستعمر مستبدٌّ و تخشى الخفافيش نبع الضياء
و يرهب ظل الأسود ابن آوى و يؤذي المنافق صدق النداء
كذا عبّد العلماء الثنايا بوحي السّماء ووحي الدّماء"[1]

لقد كان الشّغل الشّاغل للجمعيّة ،إنقاذ الشعب الجزائري من مظاهر التّغريب و التّجهيل والتّجنيس وأن تدلّ أبناءه على موردهم الصّافي المعين، فينهلوا من القرآن و السّنة، وتراث الإسلام أزكى العلوم ،وأطيب المعارف،و أجمل الآداب،ليشكّل بذلك الشخصيّة الجزائريّة المسلمة في عقيدتها و أفكارها ووجدانها،و عاداتها،و آدابها، ولغتها فتكون طليعة رائدة لمجاهدة العدو،واستعادة الحرّية و الكرامة[2].

"أحاميّة الإسلام حقّك قائم وخصمك مدموغ و سيفك باتر
تبنّيت آلام الجزائر كلّها وليس لآلام الجزائر آخر" [3]

إنّ التذكير بالعظماء و المصلحين لهو من البرّ بأنفسنا بتعبير البشير الإبراهيمي لذا يجب علينا أن نحيي ذكرياتهم لنحيا بها و نستلهم منهم الدروس و العبر.

"سلامٌ على الأعلام ما طاب ذكرهم و آثارهم في العلم و العلم يخلد
لقد زرعوا زرعا فأخرج شطأه كأخصب محصول لمن هبّ يحصد
وأبقوه للأجيال ذُخرا مباركا وزادا من الذكرى لمن يتزوّد"[1]

[1]مفدي زكريا، إلياذة الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د ط)،الجزائر ،1987م،ص62.
[2]ينظر عبد الملك بو منجل،النثر الفنّي عند البشير الإبراهيمي،بيت الحكمة للنشر و التّوزيع،ط1،الجزائر،2009م،ص 13.
[3]الشيخ خير الدين،مذكّرات الشيخ محمّد خير الدّين،ج1، مطبعة دحلب،ط1،الجزائر،1985م،ص363.

[1]أحمد حماني ،الصراع بين السنة و البدعة،مجلّة الثقافة، العدد 38،1977م،ص105.

الفصل الأول:الإصلاح الثقافي استراتيجيّة لبناء الحضارة و تحقيق النهضة

1.مدلول الثقافة:إشكاليّة المصطلح

1-1حدّ الثقافة

2-1الثقافة بين الدراسات العربية و الغربية

3-1 بين الثقافة العربية الإسلاميّة و الثقافة الغربيّة

2 .الخطاب النقدي الثقافي

1-2 مفهوم الخطاب

2-2 الخطاب و اللّغة

3-2الخطاب و الثّقافة

3.الثقافة والإصلاح الاجتماعي

1-3مدلول الإصلاح

2-3الإصلاح الثقافي و النهضة

3-3 جمعية العلماء المسلمين و المقاومة الثقافيّة

الفصل الأوّل:الإصلاح الثّقافي استراتيجيّة لبناء الحضارة و تحقيق النهضة

1:مدلول الثقافة :إشكاليّة المصطلح

تعدّدت تعريفات الثّقافة وتنوّعت بين أهل العلم و البحث قديما و حديثا،لغةً و اصطلاحا حتّى لا نكاد نحصل على مدلول محدّد لها ،ومردُّ ذلك اختلافُ نظرة كلّ واحد منهم إلى الثّقافة تبعا لمجال دراسته ، وتخصّصه الفكري ، فالمصطلح كثيرُ الاستعمال في الحقل العلمي لما له من أهميّة بالغة في مختلف مجالات المعرفة ، كما أنّه المنظار الذي يُنظر به إلى المجتمع ،وبه يتمّ تشخيص إخفاقات المجتمع و عيوبه.

1-1الثقافة في الدّراسات العربيّة:

تباين تعريف الثّقافة بين الدّراسات العربيّة والغربيّة، وإن كانت الكلمةُ قد ظهرت بمعناها الاصطلاحي متأخّرةً نوعا ما في الوطن العربي، إلّا أنّنا نجد لها جذورا تقترب من هذا المعنى في الجانب اللّغوي، فاستنادا إلى القواميس العربيّة القديمة، يُمكن القول أنّها ترجع إلى الأصل (ث،ق،ف) الذي يدلّ غالبا على ثلاثة أشياء:

- الحذق و الفطنة:

و هي صفات تتعلق بالمتعلّم، فقد ورد في القاموس المحيط: ثُفُف ككُرم ،وفرح،ثقفا وثَقَفا و ثَقافة، صار حاذقا خفيفا فطنا ،فهو ثقف[1]

وفي الصّحاح في اللّغة:ثقف الرّجل ثقفا و ثقافة،أي صار حاذقا خفيفا ،فهو ثقف، ومنه المثاقفة[2]

- حيازة الشيء:

و هو تعريف متعلّق بموضوع الثّقافة،فقد ورد في القرآن الكريم مصطلح ثقف بمعنى التّمكّن من الشيء،قال تعالى**"واقتلوهم حيث ثقفتموهم"[3]**،أي وجدتموهم.

و في آل عمران**"ضُربت عليهم الذّلة أينما ثُقفوا"[4]**،أي حيثما وُجدوا.

---

[1]ينظر ،الفيروز أبادي،القاموس المحيط،تحقيق خليل شيحا،دار المعرفة للطّباعة و النّشر،مصر،2005م، 2\361،مادة ثقف

[2]ينظر إسماعيل بن حمّاد الجوهر،الصّحاح في اللغة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،ط4،دار العلم للملايين،1990م، 1\72

[3]سورة البقرة،آية رقم191.

[4]سورة آل عمران،آية رقم113.

وقال تعالى **"إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءا ،ويبسطوا إليكم أيديهم و ألسنتهم بالسّوء"**[1]ومعناه إن ظفروا بكم في الحرب تسلّطوا عليكم بالأذى المادّي و هو الضّرب و الأذى المعنوي المتمثّل في السبّ و الشتم.

- تسوية و تقويم المعوجّ و تهذيبه:

ورد هذا المعنى في معلّقة الشّاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، حينما كان يخاطب الملك عمرو بن هند فقال:

"فإنّ قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

إذا عضّ الثّقاف بها اشمأزّت وولّته عشوزنة زبونا

عشوزنة إذا انقلبت أرنّت تشج قفا المثقّف و الجبينا"[2]

يصف في الأبيات قناة قومه بالرّمح الذي يستعصي على العامل الذي يروم تقويمه و تعديله فيشجّه على جبينه و قفاه.

أمّا اصطلاحا،فالثّقافة بالمعنى الحديث للكلمة لم تظهر عند العرب المعاصرين إلّا في مستهلّ القرن العشرين، متأثّرين بالأفكار الواردة من العلم الغربي في دراساته المختلفة خصوصا الاجتماعيّة و النّفسيّة ، وقد ارتبطت بالمجتمع إلى حدّ يُمكن الجزم أنّه لا يمكن البتّة وجود مجتمع بدون ثقافة مؤسّسة وموجّهة له، خاصّة إذا ما نظرنا إلى المجتمع بصفته نسقا من العلاقات المتداخلة التي تربط بين الأفراد في إطار جماعة إنسانيّة ما تكون دوما في حاجة إلى أنظمة قيم يتمسّك بها الأفراد في المجتمع لتوفّر لهم المعنى ، و بالتّالي هم بحاجة إلى الثقافة لتعطيهم المعايير الأخلاقيّة التي يسيرون عليها[3]، إذ تُعتبر روح الأمّة و عنوان هويّتها وهي أبرز ركائز بنائها ونهوضها ، فلكل أمّة ثقافة تستمدّ منها عناصر وجودها وخصائصها و تسطبغ بصبغتها فتنتسب إليها ضرورةً.

نتج عن الاحتكاك الثقافي و نشاط حركة الترجمة التي قام بها الكتّاب و الباحثون العرب عثورهم على كلمة(culture)في الكتب الغربية ،وذلك في مطلع القرن العشرين، أرادوا أن يضعوا لها ترجمة ، فكان أن وُفّقوا إلى استعمال مفردة ثقافة لتدل على المعنى المقابل للكلمة

[1]سورة الممتحنة،آية رقم2

[2]حسين بن أحمد بن حسين الزّوزني،شرح المعلّقات السّبع،ط1،دار إحياء التّراث،2002م،ص310.

3ينظر ،محمّد صالح المجدوب، الدّين و الهويّة الثقافية،السودانية،موقع منبر الرأي، تاريخالإنزال6،10،2014م.

الغربية حتى أصبح له في الذهن العربي معناه الاصطلاحي المحدّد،و المعنى الاصطلاحي لا ينفكّ كليّة عن المعنى اللّغوي ، بل الأصل أن يكون بينهما علاقة ، فالثقافة في معناها الاصطلاحي فيها معنى التقويم ،و هي في جانبها المعياري تعني مطابقة السلوك على منهاج معيّن.

- والثّقافة معرفة و علم في معناها الاصطلاحي و هي كذلك في معناها اللّغوي .

- و الثقافة شحذ و صقل في معناها اللّغوي ، و مهمّة الثقافة شحذ همم الأفراد و تعبئتهم المعنويّة باتجاه الانتماء و الخصوصيّة و الاعتزاز بالهويّة اصطلاحا[1]،" لقد باتت كلمة الثقافة من الكلمات التي يستعصي تعريفها عن الحصر الدقيق ، فهي لم تبق في عربيتها مفردةً جامدةً أسيرةَ تعريف من الاشتقاق اللّغوي لدينا من نوع (ثقف الرمح)،فتجاوزته إلى ما هو أرحب فكريّا و عقديا و حضاريا ،فتعدّوا وعاء السيّاسة و الاقتصاد و التّاريخ و الدين و العادات و التقاليد و الاجتماع "[2]

إنّ إعطاء تعريف محدّد للثّقافة في الاصطلاح لهو من الصّعوبة بمكان نظرا للطّابع الفضفاض للمصطلح، وكثرة الاجتهادات في تحديده، ولمّا كان الأمر على هذا النّحو ، صار إيراد جميع هذه التّعريفات، أمر لا يسمح به المقام، فارتأيت أن أورد أهمّها ، و أكثرها شيوعا وانتشارا لأصل في الأخير إلى العناصر المشتركة فيما بينها.

قيل أنّ الثّقافة هي:"المعرفة المتّصلة بالعلوم الإنسانيّة، التي ترقى بالإنسان ، و توسّع دائرة معارفه، وتميّزه بالنظرة الشّاملة، بحيث ينعكس هذا كلّه على شخصيّته و سلوكه، ممّا يجعل منه إنسانا واسع الأفق ، مهذّبا ، يُحسن التّأتّي للأمور، ويجيد التّصرّف في شؤون حياته"[3].

استنادا إليه ،يمكن القول أنّ هذا التعريف يجعل من الثّقافة وسيلةً لاكتساب المعرفة وتثقيف الذّهن ،و توسيع دائرة المعارف والمفاهيم، وعليه يصبح المثقّف بثقافة معيّنة ذا شخصيّة

---

[1]شرف القضاة و آخرون ،محاضرات في الثقافة الإسلاميّة،في العلوم الاجتماعيّة،الأكاديميّون للنشر التوزيع،ط3،عمان 2002 م ص10.

[2]عمر بن قينة،المشكلة الثقافية في الجزائر التفاعلات و النتائج،دار أسامة للنشر والتوزيع،ط1،عمان،الأردن،2000م، ص11

[3]محفوظ عزّام ،نظرات في الثّقافة الإسلاميّة ،(د ط)، دار اللواء، الرياض،(د ت)،ص13.

مستقلّة متّزنة تستطيع إدارة الأزمات ، وتجاوز المشاكل بنجاح ،وتحليل الإشكاليّات و حلّها بطريقة تنم عن سعة ذهن وبعد نظر،و هو بذلك يعطيها طابعا علميّا معرفيّا محضا.

كما يوجد هناك من يربط الثّقافة بطرائق العيش و أنماط الحياة ،ومن ذلك قولهم:

"هي مجموعة الأفكار و المثل ، والتّقاليد و العادات، و المهارات و طرائق التفكير، و أساليب الحياة، و النظام الأسري، وتراث الماضي بقصصه و رواياته، وأساطيره و أبطاله، ووسائل الانتقال ، وطبيعة المؤسسات الاجتماعيّة في المجتمع الواحد"[1]،و هو تعريف يبدو شاملا ،وإن خلا من جزئية المعتقدات، التي تدخل بالضّرورة في عموم تعريف الثّقافة، فالهويّة الثقافيّة لأمّة ما هي ذلك القدر المشترك و الثّابت و الجوهري الذي يجمع بين أفراد المجتمع الواحد و الذي يميّزهم عن غيرهم ، والثقافة هي التي ترسم طريقة عيش المجتمع ، و الطّابع الذي يتطبّع عليه والميزات التي يتميّز بها ، فتُصبح طريقة مميّزة لحياة الجماعة و نمط متكامل لحياة أفرادها مع العلم أنّ الثقافة و المجتمع كلاهما يحتاج للآخر ولا يمكن أن يشكّل أحدهما كيانا مستقلّا فالثقافة لا يُمكنها البتّةَ أن توجد في فراغ فهي" في جوهرها ظاهرة اجتماعيّة نفسيّة، تحتلّ مكانها في عقول الأفراد ، و لا تجيد التّعبير عن نفسها إلّا في وجود هؤلاء الأفراد، لذلك فإنّ الشخصيّة لكل فرد في المجتمع إنّما تتطوّر و تؤدّي وظيفتها،على أساس وجود ارتباط دائم بينها و بين الثّقافة التي تنتمي إليها، وعلى ذلك فالشّخصيّة تؤثّر في الثّقافة كما أنّ الثقافة بدورها تؤثّر في الشخصيّة،و ليس ثمّة شكّ في أنّ الثقافة مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أي شخصيّة"[2]

يمكن القول أن الثقافة ظاهرة إنسانيّة بامتياز بفضلها يتفرّد الإنسان بالتفكير و الإدراك ويتمكّن من ولوج عالم الرّموز و التعامل معها،إذ هي مجموعة من نماذج التصرّف التي تعلّمها الإنسان،و التي أنشئت و نمت عن طريق استخدام الرموز ،و تستمدّ وجودها منها منذ أن أصبح الإنسان قادرا على الترميز و بعد أن أصبح قادرا على إعطاء معان و دلالات معيّنة للظواهر الماديّة التي تحيط به ،فاللّون الأحمر يأخذ معنى الخطر ،وقد يكون علامة للوقوف عند تقاطع الطرق وقد يكون رمزا لحزب سيّاسي ...الخ،ومن أمثلة استخدام الرموز مقدرة

[1] محمّد رشاد سالم، المدخل إلى الثّقافة الاسلاميّة، دار القلم، (د ط)،الكويت،(د ت)، ص5.

[2] ينظر، ت س إليوت، ملاحظات حول تعريف الثّقافة،تر:شكري محمّد عيّاد،(د ط)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب،مصر،2001،ص29.

الفرد على التمييز بين أشكال الأبنية المختلفة مثل المسجد ،و الكنيسة، و المصنع و المستشفى ونلاحظ أن جميع أفراد المجتمع يشتكون في فهم دلالات هذه الرموز ،فالإنسان وحده هو الذي يمتلك رموز اللّغة ،ويحدّد دلالاتها،و يحقّق بها التواصل الإنساني [1].

سجّلت الثّقافة حضورها في إنتاجات الكثير من المفكرين من أبرزهم المفكّر مالك بن نبي، الذي لم يتوان في إعطاء رأيه حول هذا المصطلح وما الذي يعنيه فقال: "الثقافة تعرف بصورة عمليّة على أنّها مجموعةٌ من الصّفات الخلقيّة و القيم الاجتماعيّة، التي يتلقّاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أوّلي في الوسط الذي وُلد فيه،و الثّقافة على هذا هي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه و شخصيّته،و هذا التعريف الشّامل للثّقافة هو الذي يحدّد مفهومها ، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معيّنة، و الذي يتحرّك في نطاقه الإنسان المتحضّر"[2]، تعريف يشمل على ضرورة الانسجام بين أفكار الإنسان و أفكار الجماعة ،في إطار تطبيقي،تُحدثه عملية التركيب بينهما، ويقول في موضع آخر،"إنّ الثقافة هي الجو المشتمل،على أشياء ظاهرة مثل الأوزان و الألحان، و الحركات ، وعلى أشياء باطنة مثل الأذواق و العادات و التّقاليد ، بمعنى أنّها الجوّ العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معيّن ، وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطّابع الذي نجده في مجتمع آخر"[3]

هنا تظهر مدى مداومة، وتتبع مالك بن نبي ، وحرصه على إخراج تعريف محدّد للثقافة يكون ذا طابع تطبيقي لا نظري سطحي ،هذا ويُعتبر المصري سلامة موسى أوّل من أطلق لفظ الثّقافة كمرادف للمصطلح الغربي(culture)يقول و لم أكن أنا الذي سكّها بنفسه، فإنّي انتحلتها من ابن خلدون إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ(culture)في الأدب الأوربي ،الثّقافة هي المعارف و العلوم، والآداب و الفنون،التي يتعلّمها النّاس و يتثقّفون بها ،وقد تحتويه الكتب ومع ذلك فهي خاصّة بالذّهن،ربط سلامة موسى الثّقافة بالأمور الذّهنيّة،في مقابل الحضارة التي تتعلّق حسبه بالأمور المادّية لذا نجده يقرنها غالبا بالعلوم و المعارف.

[1] ينظر ،عبد الحميد لطفي ، الانثروبولوجيا الاجتماعيّة ،دار المعارف،ط1،،القاهرة 1978م،ص115.
[2] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة(شروط النهضة)،تر:عبد الصبور شافي،عمر كامل مسقاوي،(د ط)،دار الفكر للطباعة و النشر و التّوزيع،دمشق، سوريا،1986م،ص83.
[3] مالك بن نبي ،تامّلات ، دار الفكر العربي المعاصر،ط1 بيروت،2002م،ص247.

أمّا مصطلح الثّقافة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقد اقترن بالحضارة و النهضة و التحرّر إذ لا يفرّق علماء الجمعيّة عادة بين هذه المصطلحات، فكل من الثقافة و الحضارة يجب أن تصل إلى الهدف المنشود و هو تحقيق النهضة بتمام معانيها.

2-1الثّقافة في الدّراسات الغربيّة:

هي الترجمة السّائدة للفظة العربيّة ثقافة، إلّا أنّها تعود في الأصل إلى اللّفظ اللّاتيني(Culture)الذي يعني حرث الأرض و زراعتها ،وهذا المعنى-Culture- اقترن بالمصطلح طوال العصرين اليوناني و الرّوماني،واستمر في التّطوّر إلى أن جاء الدّور على المفكّر اليوناني شيشرون الذي استخدمها بمعنى زراعة العقل وتنميّته موضّحا أن دور الفلسفة هو تنشئة النّاس حين أطلقها عليها بقوله mentis cultur،كما أُطلقت على تكريم الآلهة،وهذا لا شكّ أنّه معنى حسّي،و استُعملت في فرنسا أنذاك و أُريد بها بعض الطّقوس الدّينيّة، وقد تطوّر مدلولها ابتداءا من القرن السادس عشر لتفيد معنى آخر هو تنمية الفكر بالتدريب و المران،ثمّ لتدلّ بعد ذلك على مجموعة المهارات المُكتسبة التي تساعد على تنميّة العقل فمن زراعة الأرض واستغلال خيراتها إلى تدريب الفكر و الاستفادة من خبراته المختلفة في مناحي الحياة المتنوّعة،أمّا في ألمانيا فقد اكتست الكلمة طابعا جماعيّا حين أصبحت تدلّ على التّقدّم الفكري للفرد و الجماعة[1].

اصطلاحا الكلام الذي قيل عن صعوبة تقديم تعريف محدّد للثّقافة في الدراسات العربيّة ينطبق على الغرب و إن كانت تعريفاتهم لها متقاربة في عمومها ، إلّا إنّ أكثرها شموليّة، ذلك التّعريف الذي جاء به تايلور بقوله "هو ذلك الكلّ المركّب الكلّي الذي يشتمل على المعرفة و المعتقد و الفن و الأدب و الأخلاق،و القانون و العرف،و القدرات و العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"[2]

أعطى تايلور تعريفا شاملا للثّقافة،وجعلها أصلا لكل مناحي الحياة، فقد ربطها بالمعرفة و العلوم،وهي التي تُعبّر عن الخصوصيّة التاريخيّة لأمّة من الأمم و عن نضرتها إلى الكون

[1]ينظر، شرف القضاة و آخرون، محاضرات في الثّقافة الإسلاميّة،في العلوم الاجتماعيّة،الأكاديميّون للنشر و التوزيع،ط3،عمان 2002 ،ص10

[2]نفسه، ص11

و الحياة و الموت ،و هي التي ترسم للإنسان حدوده وتبرز قدراته،فصلة الثّقافة بالعلم وطيدةٌ حتّى أنّها مرتبطة به و هذا الأخير يقبل كل ما تقدّمه له، ليقوم كلّ منهما برسم طريق لحياة أفضل ، بما يحتويّان عليه من قيم وأخلاق ، وما ينطويان عليه من غايات و توجيهات تضبط مسيرة العالم و توجّهه نحو التّقدّم، و العلم يصل إلى المعرفة عن طريق الثّقافة ،إذن الثّقافة هي أصل المعرفة، وعن طريقها ينتشر العلم و تزدهر الأمّة[1]،كما ربطها بالمعتقد ، فالإنسان في عرف عُلماء الاجتماع كائن اجتماعي، متديّن بالطّبع، إذ لا يسع مجتمع ما أن يعيش بدون معتقد،كما لا يمكنه العيش بدون ثقافة، فللدّين موقع مكين في حياة الأفراد ،و له مكانه في النّظام الثّقافي،حتّى قيل أنّ الثقافة هي العلم الذي يبحث عن كلّيات الدّين في مختلف شؤون الحياة ولم يغفل تايلور جانب الفنّ و الأدب باعتبارهما ظواهر ثقافيّة بامتياز ،ومن الضروريّة التي يستطيع الفرد أن يبلغ بها ما يجول في خاطره،كما أن الأخلاق والقوانين يكتسبها الإنسان عن طريق الثّقافة، بينما يتعرّف على العادات والأعراف في وسطه الاجتماعي،فالثّقافة تشمل أنماط الإنتاج الفكري والمادّي للمجتمع،وتلخّص ذاكرته و تراثه،كما أنّها مجموع المعرفة البشريّة و سلوكها المكتسب ضمن الإطار الاجتماعي للفرد الأوّل.

من المفكرين الغربيين الذين عرفّوا الثقافة جون لوكد الذي قال أنّها تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان ،فربطها بكل ما له علاقة بالفكر و الأخلاق، وتهذيب العقل طريق لتهذيب النّفس، أمّا مالينوفسكي فيعطيها طابعا أنثروبولوجيا حين يقول"الثّقافة هي ذلك الكلّ المتكامل الذي يتكوّن من الخصائص البنيانيّة لمختلف المجموعات الاجتماعيّة،من الأفكار الإنسانيّة و المعتقدات و الأعراف و الحرف و الأدوات"[2]، فهي بالنسبة إليه مزيج من الأفكار تضاف إلى الحرف و الأدوات ، و بالتّالي فهي تشمل كل مناحي الحياة الضرورية للإنسان،فيصبح ملزما على تعلّمها والاعتناء بها إذ لا عيش له بدونها، أمّا هنري لارست فيرى أنّها"مجموعة الأفكار و العادات الموروثة التي يتكوّن فيها مبدء خلقي لأمّة ما، و يؤمّن أصحابها بصحّتها و ينشأ منها عقليّة خاصّة بتلك الأمّة وتمتاز عمّا سواها"[3]

ركز لارست على الجانب الوراثي للثقافة، فاعتبرها حصيلة الأفكار و العادات الجاهزة في المجتمع التي يكتسبها الفرد جبلّةً ، فتُصبح بمثابة مبادىء في الحياة، يؤمن أصحابها بصحّتها

[1] ينظر،حميد عبد الرحيم السائح،أضواء حول الثّقافة،الدّارالمصريةّ اللّبنانيّة للطباعة و النّشر والتوّزيع(د ط) مصر1993م ،ص76

[2] نفسه،ص 78. .

3 نادية شريف العمري،أضواء على الثقافة الإسلامية،مؤسسة الرسالة للنشر و التوزيع و الطباعة،ط9،،بيروت،2001، ص14.

لكونها من الموروثات المقدّسة،التي لا تشترك فيها كل المجتمعات الإنسانيّة ، وعليه يتفرّد بها أفراد بعينهم في مجتمعات معيّنة،و بالتّالي يشكّلون في الغالب مجموعات بشريّة تعكس بسلوكياتها واقع المجتمع الذي تنتسب إليه،حيث تعكس مطامحهم وأساليب تفكيرهم،فتميّزهم عن غيرهم من الشّعوب.

كما يُعتبر الشّاعر ت.س.إليوت من أهمّ مفكّري الغرب الذين أولوا اهتماما كبيرا للثّقافة وذلك منذ بدايات القرن الماضي،وقد وضع شروطا ثلاثة يتمّ بموجبها تحقيق الثّقافة:

البناء العضوي:يساد على الانتقال الوراثي داخل ثقافة و مجتمع معيّن

القابليّة للتحليل:يرى أنّه على الثّقافة أن تكون من وجهة النظر الجغرافيّة قابلة للتحليل إلى ثقافات محليّة،(البعد الإقليمي للثّقافة)

التّوازن بين الوحدة و التّنوّع في الدّين :يراه شرطا مهمّا لأنّه في جل الثقافات لا يمكن إغفال عامل الدين ،وفي هذا السيّاق أضاف آخرون أن الثقافة سيّاسة و تربيّة[1]،وأدلت منظمة اليونسكو بدلوها في هذا الباب ،فقد جاء تعريفها للثقافة كالآتي:

"هي جميع السمات الرّوحيّة و الماديّة و الفكرية و العاطفيّة التي تميّز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعيّة بعينها،و هي تشمل الفنون والآداب و طرائق كما تشمل الحقوق الأساسيّة للإنسان و تضم القيم والتقاليد و المعتقدات "[2]

استنادا إلى ما سبق يمكن أن نحصي اتّجاهين لتعريف الثقافة:

فريق يربطها بالقيم و المعتقدات،وآخر يربطها بأنماط الحياة المختلفة و كذا التوجهات ،إلاّ إن الصواب أنّه لا يمكن الفصل بين الاتجاهين لحاجة كل منهما إلى الآخر.

3-1بين الثقافة العربيّة و الثقافة الغربيّة:

إنّ الحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،وعن واقع الجزائر الثّقافي إبّان الفترة الاستعماريّة يقودنا حتما لعقد شبه مقارنة بين الثّقافة العربيّة الإسلاميّة التي تتبنّاها الجمعيّة و تدعوا إليها، مقابل الثّقافة الغربيّة ثقافة المحتل، في إطار الصّراع الفكري الذي دام طويلا بين الاتجاهين و الذي كان الشّعب الجزائري محلّ النّزاع فيه.

[1]ينظر ، عبد الرحمن عبد الدّايم،النسق الثّقافي في الكناية،رسالة ماجيسير، جامعة تزي وزو،ص28.
[2]شرف القضاة و آخرون ،محاضرات في الثقافة الإسلاميّة،ص11.

تُعتبر الثقافة العربيّة الإسلاميّة بمثابة الصورة التي تُوضّح ملامح الشّخصيّة الإسلاميّة والتي تحدّد اتجاهاتها،إنّها بمثابة المبادىء و الأُسس التي تقوم عليها حياتها، وبمثابة العقيدة التي تلتزم بالإيمان بها، والتي تعمل على حمايتها و صونها من التحريف و التّشويه وبالتّالي هي مجموعة الصّفات و الخصائص النّفسيّة والعقلية والفكريّة و الخُلقيّة والسّلوكيّة التي تتميّز بها الشّخصيّة الإسلاميّة المستفادة من مصادر التّشريع الإسلامي ، كما عُرّفت أنّها مجموعة الأفكار التي تصدر عن الكتاب و السنّة، و الأحكام الشرعيّة و القيم و الآداب،و الأخلاق المنبثقة منهما، التي يجب أن تهيمن على المسلم هيمنة كاملة[1].

تربط الثقافة العربية الفرد بماضيه التّليد ،وبطولاته المجيدة،كما ترسم طريق الحياة الصحيحة للمسلم ، فتحدث في نفسه تأثيرا بالغا على سلوكه و أخلاقه و معاملاته،إذ تستمدّ مقوّماتها من مصادر التّشريع المتمثّلة في القرآن و السّنة،و الإجماع و القيّاس بالإضافة إلى اللّغة العربية و ما صح من أخبار المسلمين و تاريخهم،وأعرافهم و عاداتهم وتهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة و المساواة بين الأفراد ،إذ لا فرق بينهم إلّا بالتّقوى وتروم كذلك الجمع بين العلم و العمل و الإيمان، كما تدعوا إلى الشّمول و التّوازن،وهي ثقافة متفتّحة على الثّقافات الأخرى وإن كانت غربيّةً لا تجاورها في الدّيانة،ما لم تتعارض مع الدّين و العرف الإسلامي[2].

و الثقافة العربية الإسلاميّة تتسم بخاصّيتين متناقضتين قلّما اجتمعتا في مقام واحد،هما الثّبات و التّغيّر، فالثّبات فيما يتعلّق بالمصادر القطعيّة،وما جاءت به من عقائد و تشريعات وقيم ومناهج،أمّا التّغيّر فيتعلّق باجتهادات المسلمين،وإبداعاتهم القابلة للصواب و الخطأ وبالتّالي الاختلاف ، فالجانب القطعي في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة يتّسم بما يتّسم بها الإسلام من خصائص بصفته دينا و منهاجا،وتتجلّى هذه الخصائص في الشّموليّة، والوسطية و الموضوعية و التّنوّع و الوحدة، كما لا تستثني الثّقافات التي تأثّرت أو أثرت فيها[3].

[1]ينظر محمّد عمارة،مخاطر العولمة على الهويّة الثقافية،(د ط)،نهضة مصر للطباعة و النشر،(دت) ،ص6،7
[2]ينظر نفسه،ص9.
[3]ينظر أنور الجندي،معلمة الإسلام، المجلد1،دار الصّحوة للنشر و التّوزيع،(د ط)،القاهرة،1991،ص524.

أمّا الثقافة الغربيّة فعلى النّقيض من ذلك، فهي تستمدّ كيانها من الفكر اليوناني وتفسيرات المسيحيّة، فالثّقافة الهندية مثلا تستمدّ فكرها من الهندوس وعبدة الأبقار ، والهدف الرئيس من الثقافة الغربيّة هو نشرها في كل أصقاع العالم،و خصوصا الإسلامي منه،باعتبار أن المجتمعات البشريّة لم تغادر قوقعة التّخلّف التي ميّزت العالم البدائي،إذ يعتبر محافظتها على قيمها و تراثها رجعيّةً و تخلّفا، لذلك طفت إلى السّطح التّسميات الإيديولوجيّة كالتّحديث والعالم الثّالث و الدّول النّاميّة و اللّحاق بالرّكب وغيرها، فالثقافة حسبهم تنشأ في مجتمع معيّن ثمّ تنتشر في المجتمعات الأخرى،فيما يُطلق عليه الانتشار الثّقافي ،أي انتقال الثّقافة من المجتمع الأكثر رقيّا إلى المجتمعات الأدنى أو الأقل تطوّرا، ومنه ظهر مصطلح التّثاقف أو المثاقفة التي يُقصد بها تأثّر الثّقافات بعضها ببعض،ممّا يحدث تغييرات في الأنماط الثّقافيّة الأصليّة السّائدة في إحدى الجماعات.

نفهم من هذا أنّها ثقافة استعماريّة في الأصل،غايتها استغلال القوي للضعيف، و تسلّط الدول القويّة فيها على خيرات الدول الفقيرة،من بوّابة زرع ثقافة التّحضّر والتّمدّن، و القيم و الأخلاق والمؤسّسات الأوربيّة في المجتمعات الأخرى تمهيدا لحصادها عقولا مبدعة تهاجر إلى المجتمع الأوربي ،أو موارد اقتصاديّة تغذّي عجلة اقتصاده[1]، كما أنّها ثقافةٌ قائمة على العرقيّة و التعالي فالملتزمون بها يعتبرونها الثقافة المتعاليّة في مقابل ثقافة الآخر الدّونيّة،وإلّا كيف نفسّر سعيهم لفرض هذه الثّقافة في جميع أنحاء العالم، باعتبارها الثّقافة الرّاقيّة،دون مراعاة خصوصيّات الثّقافات الأخرى،و العرقيّة كما يُعرّفها عبد الله الغذامي:"متصوّر ثقافي تشترك فيه جماعة من الناس ترى أنّ خصائصها الثّقافيّة تفرّقها عن جماعات أخرى تجاورها أو تحتكّ معها ،ويحدث التمييز بين الأطراف بناءا على الخصائص المعتمدة عند كل فريق ويزداد التّمايز كلما تقوت الفروق "[2].

فالثّقافة الغربيّة إذن قائمة على إقصاء الطرف الآخر المخالف ،و الاستعمار يقوم بهذا على سبيل هزّ ثقة أهل المستعمرات بإرثهم الثّقافي، وتثبيط هممهم، وهذا عمل يهدف إلى إزالة التّواصل بين الفرد و ثقافته،و بالتّالي يبتعد كلّيا عن استهداف التّحرّر ، بل الأكثر من

[1] ينظر المرجع السابق،ص525.

[2] عبد الله الغذامي،القبيلة و القبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة،المركز الثقافي العربي،ط2،الدار البيضاء،2009م،ص41.

ذلك فهو يذوب و يندمج في ثقافة المستبد المحتل فيصبح ذا قابليّة للاستعمار بتعبير مالك بن نبي.

إذا كانت الثقافة الغربية خاصّة بالأمم الرّاقية دون سواها، فإنّ الثّقافة الإسلاميّة ثقافة عالميّة تشكّل حضارة أزيد من مليار مسلم عبر العالم،فللصين حضارة،و لليابان حضارة،و لكنّها لا تتعدّي حدود البلاد،فهيّ محليّة و لا يمكنها البتّة أن ترتقي إلى العالميّة،عكس الثّقافة الإسلاميّة فالدّين الإسلامي جاء لكل العالم،واستقت منه الحضارات الغربيّة الكثير من مكوّناتها.

لنستنتج من هذا كلّه أنّ الثقافة العربيّة الإسلاميّة تختلف عن الثّقافات الأخرى في كون مكوّنات كل منها تختلف عن الأخرى "الثقافة العربيّة الإسلاميّة إسلاميّة المصدر ،تستمدّ كيانها من القرآن الكريم، و السنّة النبويّة ، واللّغة العربيّة ،واجتهادات العلماء و عصارة الثّقافات التي اختلطت بها وامتزجت عناصرها معها، فيما نجد الثقافة الغربيّة على وجه الإجمال تستمدّ مصادرها من الفكر اليوناني،و اللّغة اللاتينيّة ،وتفسيرات المسيحيّة التي وصلتها"[1].

إن الثقافة العربيّة الإسلاميّة هي ثقافة عربية في لغتها إسلاميّة في جذورها،إنسانيّة الأهداف تتكوّن من مقوّمات فكريّة و روحيّة ،أهمّها العقيدة و هي الإسلام،اللغة العربيّة و آدابها و التّاريخ و التّراث ووحدة العقليّة،و المزاج النفسي،و هي تظهر من خلال "الإيمان بعقيدة هذه الأمة، والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ، والشهادة على الناس"[2].

و إن كانت كلا الثقافتين تستمدّ عناصرها من نفس المصادر تقريبا و تحتوي نفس المكوّنات على الاختلافات الموجود بينها فمن حيث الدّيانة:الثقافة العربية إسلاميّة المصدر و الغربيّة مسيحية المصدر،و من حيث الفكر الأولى تستمدّه من الفكر العربي و الثّانيّة من الفكر اليوناني و تفسيرات المسيحيّة ،إلاّ إن الفرق حسب رأيي يكمن في كون الثقافة العربية الإسلامية تنشد العدالة الاجتماعيّة و المساواة بين الأفراد، و هي ثقافة لا تمنع التفتح على الآخر في إطار

[1] أنور الجندي، معلمة الإسلام،دار الصحوة للنشر و التوزيع،(د ط)،القاهرة،1991م،ص525.

2 خليل نوري،الهويّة الإسلاميّة في زمن العولمة الثقافية،ط 1،مركز البحوث والدراسات الإسلامية،العراق،2009م،ص45

الأصالة و المعاصرة ،عكس الغربيّة التي ترى في ثقافتها المتعاليّة والمركز أو الأنموذج الذي يُحتذى به وفق النظام الذي وضعته وما عدا ذلك يعتبر هوامش لا غنى لها عن ثقافته.

2الخطاب النّقدي الثّقافي:

تعتبر مرحلة ضبط المصطلحات المرحلة الأهمّ في كل بحث علمي،و قبل التطرّق إلى أنواع الخطابات الثّقافيّة عند علماء الجمعيّة ،اقتضى الأمر أن نتوقّف عند مصطلحي الخطاب والنقد بالتّعريف،بعد أن تناولنا مصطلح الثّقافة ،لنكتشف العلاقة بين هذه المصطلحات.

2-1الخطاب:

يُعتبر الخطاب من أهمّ المصطلحات ، وأكثرها شيوعا في حقل الدّراسات اللّغوية والنّقديّة وهو مصطلح ليس بالجديد في ميدان المعرفة ، بل له جذوره الممتدّة في التّاريخ،إذ يرتبط بكل ما أنتجه العرب و غيرهم،من إبداعات أدبيّة و ثقافيّة و فكريّة، نتجت عن عمليّة التّواصل و التّلقي و التّمثّل، فالخطاب في الثّقافة العربيّة عادة هو قرين النطق و الكلام.

جاء في لسان العرب عند ابن منظور"الخطاب و المخاطبة،مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا، وهما يتخاطبان"[1]، وفي نفس الاتّجاه سار أئمّة النّحو قديما، فهذا ابن آجروم يعرّفه في آجروميّته بالقول"هو اللّفظ المركّب المفيد بالوضع"[2]،وهو ذات المعنى الذي ورد في كتاب الكليّات حيث قال صاحبه:"وهو الكلام الذي يُقصد به الإفهام ،إفهام من هو أهل للفهم ،و الكلام الذي لا يُقصد به إفهام المستمع فإنّه لا يسمّى خطابا"[3]، فكل كلام أو قول مفيد يحمل معنى يمكن أن نعتبره خطابا والعكس صحيح.

أمّا في الدّراسات اللّسانيّة الحديثة فقد أخذ المصطلح منحى آخر، حيث اختلفت تعريفاته باختلاف المنطلقات اللّسانيّة المقاربة للمفهوم و منها ما اتّفق مع التّعريفات البسيطة للعرب القدامى،نذكر على سبيل المثال قولهم أنّ الخطاب مرادف للكلام، أي الإنجاز الفعلي للّغة

[1]ابن منظور، لسان العرب،مادة خطب، دار صادر،ط3،بيروت 1982،ص36.
[2]ابن آجروم ،نظم الآجروميّة،دار الإمام مالك،ط1،2002،ص7.
[3]أبو البقاء الكفوي،الكليات ،طبعة مؤسّسة الرسالة،بيروت،1992م،ص419.

بمعنى"اللغة في طور العمل ، أو اللّسان الذي تنجزه ذات معيّنة،يتكوّن من متتاليّة تشكّل مرسلة لها بداية و نهاية"[1].

إنّ الخطاب في جل حالاته هو اللّغة في حالة فعل و بالتالي هو ممارسة تقتضي فاعلا وتقوم بأدوار اجتماعيّة معرفيّة بعينها، إذ يقوم على مخاطب يتّخذ من اللّغة وسيلة لإبلاغ آرائه وإيصال أفكاره للمتلّقي بنيّة القيام بأدوار اجتماعية معينة، حيث يقوم الأوّل برسالة و يفهمها الآخر بناءا على نظام لغوي مشترك بينهما، يقول الدكتور طه عبد الرحمن:"إنّ المنطوق به - أي الخطاب- الذي يصلح أن يكون كلاما :هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التّواصليّة الواجبة في حقّ ما يُسمّى خطابا ،إذ حدّ الخطاب أنّه كل منطوق به موجَّه إلى الغير يفترض إفهامه مقصودا مخصوصا"[2]

تعريف الدكتور لم يختلف كثيرا عن عموم تعريف الخطاب الذي أورده معاصروه، حيث ارتكز على الخاصيّة التّواصليّة فيه ، أمّا في الدّراسات الغربيّة و تحديدا عند الفرنسي بنفييست نجده يتفّق تماما مع التعريف الذي أورده طه عبد الرحمن فيرى أنّه "كل تلفظ يفترض متحدّثا ومستمعا تكون للطّرف الأوّل نية التّأثير في الطّرف الثّاني بشكل من الأشكال"[3]، وعليه ففي كل خطاب لا بدّ من توافر طرفيه،يكون الهدف منه إحداث تأثير،و متى لم يصل الخطاب إلى هذا المبتغى،استلزم خللا في المرسل أو الأداة.

ويعتبر ميشال فوكو من أهمّ المفكّرين الذين أولو اهتماما بالغا بالخطاب ، فقد أعطاه تحديدا أكثر شموليّة و أوسع مجالا بالقول:"مصطلحا لسانيا يتميّز عن نص و كلام و كتابة و غيرها باشتماله على كل إنتاج ذهني سواء أكان نثرا أو شعرا،منطوقا أو مكتوبا ، فرديا أو جماعيّا ذاتيا أو مؤسّساتيا (...) و للخطاب منطق داخلي،و ارتباطات مؤسّسيّة، فهو ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فرديّة يعبّر عنها،أو يحمل معناها ،أو يحيل إليها،بل قد يكون خطاب مؤسّسة،أو فترة زمنيّة أو فرع معرفي ما"[4]، إنّ الخطاب عنده عبارة عن متتاليّة من الملفوظات أو المكتوبات الصّادرة عن الأفراد أو الجماعات ،أو المؤسّسات ، ويكون في فترة

[1]سعيد يقطين،تحليل الخطاب الرّوائي،المركز الثّقافي الغربي،ط3،الدار البيضاء،1997،ص21.
[2]طه عبد الرحمن،اللسان و الميزان،طبعة المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،1998،ص215.
[3]محمّد البارودي،إنشائيّة الخطاب في الرّواية العربيّة الحديثة،منشورات إتّحاد الكتّاب العرب،دمشق،2000،ص1.
[4]ميشال فوكو، نظام الخطاب ، تر:محمّد سبيلا،دار التّنوير للطّباعة و النّشر،ط1،لبنان،1984،ص9.

زمنيّة معيّنة تقتضي ذاك الخطاب بعينه،فهو ظاهرة اجتماعيّة تقتضي مؤثّرا ومتأثّرا، يستعمل خلاله دليل لغوي ، ناتج عن نشاط تلفّظي يستهدف غاية التّواصل و التّوجيه.

يختلف الخطاب عن النص في الدّراسات الحديثة في جزئيّة التّفاعل في الخطاب، كما أنّ النص يغلب عليه عامل الكتابة بعكس الخطاب ،الذي يعتمد على الملفوظ،و بالتّالي يدلّ على أنّ للكلام دلالات غير ملفوظة،يدركها السّامع دون علامة معيّنة، و النص بنية مترابطة تكوّن و حدة دلاليّة ، في حين يتّسع الخطاب لعرض ملابسات البنيّة،و تلقّيها و تأويلها[1]

مقوّمات الخطاب:لكي يتحقّق الأثر الإيجابي للخطاب، لابد له أن يتوفّر على مقوّمات نذكر منه

الحجة:"هدف الإقناع في جميع مكوّناته،هو إقناع المستمع أو القارىء،من خلال استخدام الحجة المنطقيّة المتماسكة،ومن خلال استخدام الأفكار المجمعّة المستحقة ذات العلاقات الدّلاليّة المتشابكة"[2]،فيصبح المخاطب الفاقد للحجّة بلا دور مهم،إذ لابد من الدليل القاطع و البرهان المقنع ، و الحجة الناصعة.

الشرعيّة:لا بد للخطاب أن يكون ذا شرعيّة، يتقبّلها المتلقّي،حتّى تستمرّ عملية التواصل و تنفذ إلى عقله، وبالتّالي تتحقّق الفائدة المرجوّة من التّواصل و هي التّأثير و التّأثّر

البدائل:لا بدّ أن يتوفّر الخطاب على بدائل تُمكّن المخاطب من تجاوز فكرة الخوف من المجهول، و تقدّم له فكرة جديدة،تتوفّر على ما تفتقده الفكرة الموجودة في ذهنه، و التي يعتقدها وبالتّالي يجد في هذه الزّيادة هامشا للإقناع[3].

2-2الخطاب و المجتمع:

يرتبط الخطاب باللّغة ارتباطا و ثيقا باعتبارها القناة التي تُستعمل للتّفاعل بين طرفيه ،إذ يتحقّق هذا بفضلها و يصبح بمثابة إنجاز، أو إنتاج فردي أو جماعي ،فاللّغة توجد في حدود

1 ينظر محمّد العبد،النص و الخطاب و الاتصال، ط 1،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي،القاهرة،2005،ص9

2 مازن الواعر الاتجاهات اللسانيّة المعاصرة،ودورها في الدّراسات الأسلوبيّة،مجلّة عالم الفكر،الكويت،ع22،3-4-1994 م ص176

3 نفسه،ص 177.

الخطاب،وهي التي تبلّغ الموضوعات التي يتحدّث عنها، بما تحتويه من مجموع الرّوابط التي يحتاجها الخطاب،حتّى يستطيع الكلام عمّا يريد،وحتّى يتمكّن من دراستها وتسميّتها وتحليلها و تفسيرها[1].

إنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة و نسق من العلاقات،تسمح للأفراد بالاتّصال فيما بينهم والتّواصل هو الخيط الرّفيع الذي يجمع بين اللّغة و الخطاب"تسعى اللّسانيات إلى جعل الجملة وحدة لسانيّة صغرى تساهم إلى جانب جمل أخرى في تشكيل الخطاب،و ليس هذا سوى شكل من أشكال تمظهر اللّغة، و العمل على جعلها أداة للتّواصل،و لذلك يظلّ هذا المفهوم في الحقل اللّساني،ضيّقا لا يمتدّ ليشمل باقي المستويات التي يمكنها الإسهام في إنتاج هذا القول وهذا ما يؤكّد لنا أن الخطاب من هذه الزّاويّة هو خطاب لغة و قول، يرتبط باللّغة من حيث هي أداة للتواصل بين طرفين يتم بواسطتها الدّورة الكلاميّة ،وهما المرسل و المرسل إليه"[2]، والخطاب ظاهرة اجتماعيّة أيضا باعتبار أنّ اللّغة في ذاتها استخدام اجتماعي و العلاقة بينهما هي التي تولّد الخطاب،فالظّواهر الاجتماعيّة ظواهر لغويّة في الأصل، و"يستخدم للإشارة إلى كامل سيرورة التّفاعل الاجتماعي التي لا يشكّل النّص سوى جزء منها"[3]

و عليه يشمل على شروط اجتماعيّة تدعى شروط الإنتاج الاجتماعيّة،و هي تحتوي في الغالب على ثلاثة مستويات،المستوى الاجتماعي المباشر الذي يجري فيه الخطاب و مستوى المؤسّسة الاجتماعيّة،التي تشكّل منبتا واسعا للخطاب،و مستوى المجتمع ككل[4].

إنّ الخطاب هو مجموع التّعابير الخاصّة التي تتحدّد بوظائفها الاجتماعيّة و مشروعها الإيديولوجي،وهو ملفوظ طويل أو متتال من الجمل[5]،و هو عند الغرب الكلام المكتوب أو الملفوظ الذي يتجاوز الجملة الواحدة ،و تعريفاته تشير إلى أنّه مجموعة دالّة من أشكال الأداء

[1] ينظر ميشال فوكو،جغرافيا المعرفة،تر:سالم يغوت،المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء،1987م،ط2،ص85.
[2] خالد سليكي،التراث و الخطاب ،مجلّة جذور،النادي الأدبي الثّقافي في جدّة،الرياض،ج8،مج4،مارس 2002م،ص424.
3 نورمان فيركلو ، الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعيّة،تر:رشاد عبد القادر،مجلّة الكرمل،مؤسّسة الكرمل الثّقافيّة ع64،فلسطين،2000م،ص158.
[4] ينظر نفسه،ص195.
[5] ينظر،سعد علّوش،معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة،(د ط)،الدار البيضاء،1985م،ص83.

اللفظي ، حيث تشكّل الجمل نظاما متتابعا تسهم به في نسق كلّي متغاير و متّحد الخواص و يتضمّن جملة من الأفكار التي تعبّر عن رؤية لها منطقها الخاص[1].

3-2الخطاب و الثقافة:

تُعتبر اللّغة القناة التي تستعمل للتواصل بين طرفي الخطاب ،و بما أنّ هذا الأخير في أرجح تعريفاته هو اللّغة في حالة استعمال ،يمكن القول أنّ ما ينطبق على اللّغة يجري عليه أيضا فنستطيع القول حينئذ الخطاب و الثقافة أو اللّغة و الثقافة.

إنّ محاولة الفصل بين اللّغة و الثقافة يُعدّ عاملا منافيا لطبيعة كلّ منهما ،لأن اللّغة مظهر من مظاهر ثقافة أي مجتمع، تظهر بشكل علامات أو كلمات مكوّنة من أصوات تحمل دلالات معيّنة ،و الثقافة تظهر بشكل صورة ماديّة لها قيمة دلاليّة.

يمكن اعتبار اللّغة واحدة من أهم الأنساق الثقافيّة لأنها الوعاء الذي يحوي جميع الأنماط الاجتماعيّة ، فهي تُمثّل الوسيط بين الأفراد و الثقافة،ودورها في المجتمع لا يقتصر على اعتبارها أداة للتواصل بل هي جزء هام من عناصر الثقافة،و أنّ فهمها فهما جيّدا يتوقّف على فهم أنماط الثقافة السّائدة في المجتمع،و اللّغة لها أساس ثقافي فلا يمكن تحديد مفرداتها ولا دلالاتها تحديدا دقيقا إلّا بمعرفة البنية الثقافيّة لهذه المفردات ،أو لهؤلاء الناطقين بها، و عليه فدراستها دراسةً عميقة تحتاج إلى التعرّف على الرّوابط اللغويّة بين أنماطها و أنماط الثقافة[2]

استنادا إليه يمكن القول أن اللّغة نسق ثقافي بما تحمله من أصوات و تراكيب و دلالات وقيم صوتيّة و نظام الكتابة ، و ما يتصل بها و تشتمل عليه من كيفية الإدراك للمعتقدات والعبادات و الشّعائر التي لا سبيل لمعرفتها إلاّ بها ، و الخطاب هو مجموع التعابير الخاصّة التي تتحدّد بوظائفها الاجتماعيّة و مشروعها الايديولوجي.

4-2 النقد:

عُرف النقد لغة عند العرب القدامى بكونه " النقد أو التنقاد،تمييز الدّراهم، و إخراج الزيف منها، و ناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر" [3]،وهو تعريف ابن منظور الذي ربطه بفنّ تمييز الدّراهم ،و تصنيف الجيّد منها مقابل الرّديء ،كما بيّن أنّ له علاقة بفنّ الحوار،أمّا

[1]ينظر،محمّد الماكري، الشكل و الخطاب، المركز الثقافي العربي،(د ط)،بيروت،1991م،ص المقدمة.
[2]ينظر أحمد أبو زيد،حضارة اللغة،مجلّة عالم الفكر،المجلّد3،عدد1،القاهرة،1971م،ص25.
[3]ابن منظور ، لسان العرب،ج14،ص254.

ابن فارس فيقول" النون و القاف و الدّال ،أصل صحيح يدلّ على إبراز شيء و بروزه(...)ومن ذلك النقد في الحافر وهو تقشّره،و النّقد في الضرس تكسّره،وذلك يكون بتكشفه ليطل عنه،ومن الباب نقد الدّرهم،و ذلك أن يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك ودرهم نقد وازن جيد،كأنّه قد كشف عن حاله فعلم"[1].

تطوّر مصطلح النّقد عند العرب خلال القرن الثّاني الهجري،وذلك حين ارتبط بالتعليل و التّفسير من طرف رواة الأشعار،واستمرّ المصطلح في التطوّر خلال القرن الثالث الهجري بظهور مؤلفات نقدية ساهمت في تعميق معنى النّقد ، و تشكّل أبعاده،و ربطته بالبعد الأدبي كما في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، أمّا في القرن الرّابع تعمّق هذا المفهوم أكثر ليصطلح على أنّه تمييز و تفسير،وإعلاء للنص على حسب قيمته الفنيّة[2]، وعليه فإنّ الملاحظ أن عمليّة النقد أصبحت عمليّةً أدبيّةً ، واقترنت كمصطلح بفنّ تحليل الآثار الأدبيّة، وقد قيل "النقد في حقيقته تعبير عن موقف كلّي ، متكامل في النظرة إلى الفنّ عامّة ، أو إلى الشّعر خاصّة ، يبدأ بالتّذوّق أي القدرة على التّمييز،ويعبر منها إلى التّفسير و التّعليل و التّحليل والتّقديم،خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى،وهي متدرّجة على هذا النّسق،كي يتّخذ الموقف منهجا واضحا مؤصّلا على قواعد جزئيّة أو عامّة، مؤيّدا بقوّة الملكة بعد قوّة التّمييز"[3] فالنّقد مرتبط بالآداب و الفنون، وتختلف حيثيّاته باختلاف الفنّ المنقود أشعرا كان أم نثرا، أو فقها غير أن المصطلح يكثر استعماله في الأدب و الشّعر و الفلسفة.

أمّا في الدّراسات الغربيّة استُخدم المصطلح للدّلالة على ثلاثة أشياء :أوّلها الموروث القانوني في إقامة العدل،أي في حقل الحقوق و القوانين،واستخدمت أيضا في حقل الطبّ وكانت تعني اللّحظة الحرجة للمريض،أمّا ثالث استعمالاتها فكان في مجال دراسة النّصوص الأدبيّة[4].

تغيّرت النظرة القديمة للنّقد بعد احتكاكه بالثّقافات المختلفة و الاتجاهات النّقديّة الحديثة ليتحرّر بذلك عن مفهومه الأوّل المقترن بالأدب"لا تحرّرا انفكاكيّا نهائيّا، وإنّما تحرّر تطوير

[1]ابن فارس ، مقاييس اللغة،ج2،دار الفكر،(د ط)،1979م،ص577.
[2]ينظر، رجاء عبد،المصطلح في التّراث النّقدي،منشأة التعارف،(د ط)،الاسكندريّة،2000،ص29.
[3]إحسان عبّاس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب،دار الثقافة،ط4،بيروت،1983،ص5.
[4]ينظر ميجان الرويلي ، وسعد البازعي ، دليل النّاقد الأدبي،المركز الثقافي العربي،ط3،الدار البيضاء،2002م ص103.

يحتفظ بالسمة الهيكليّة ، ويختلف في الأداء و الإدراك و السّلوك ، و الحس ، و التّعبير ليصبح بذلك نقده منتجا و موازيّا للمنقود، ومشكّلا خطابا آخر له، فالنقد أصبح تفسيرا للأدب لا تقييما له، عمل وصفي محلّل و مفسّر لا مقيّم و مصدر للأحكام"[1] ، وعليه وبفضل تطوّرات الفكر و ميلاد دراسات جديدة،اقترن النقد بميادين جديدة ،و لم يقتصر على الأدب فحسب ، بل اقترن بالثّقافة و الفلسفة و الفكر و النّقد الثّقافي حتى طالب عبد الله الغذامي باتخاذ هذا الأخير كبديل منهجي للنقد الأدبي ، فأصبح يُنظر للنقد بوصفه نقدا للثّقافة ، و الفكر و المجتمع ،غير منغلق على العملية الأدبية فحسب "النقد رؤية منهجيّة وفلسفة تحليلّية، تأويليّة وخطاب يتركّب من مادّة يُمظهرها النص بعلاقة تعاضد و تكامل ، تعبّر عن تحويلية الجدلية الرؤيويّة (...) يقدّم تشكيلا فكريّا (...) و يحمل الإدراك الحدسي ، ويسرد الممكنات المتمركزة في النّص ،ويقدّم خطابا يدل على الوجود"[2]، فالنقد إذن هو خطاب ثان يصدر عن قارىء متبصّر ، يحمل رؤيته التأويليّة و فلسفته الإدراكيّة ،و تكوينه الفكري من خلال تقديم تقرير مواز للنص يدل على مدى تذوّقه له.

النقد و الثقافة:

تعتبر الثقافة ميدانا مترامي الأطراف بتدخّلها في أدق تفاصيل حياة الأفراد والمجتمعات وبوصفها أسلوب حياة بجميع مقوّماتها و تفاصيلها التي تختلف من جماعة بشريّة إلى أخرى بما أنها تحوي جميع السمات الروحية و الماديّة و الفكريّة ، و هي بالتّالي تشمل جميع الفنون و الآداب والعادات و التقاليد و الأعراف ، وعليه يمكن أن نعتبر جميع الخطابات الناتجة عن النوع البشري سواءٌ تلك التي تتعلّق بالتواصل أو غيرها ظواهر ثقافيّة .

إنّ الثقافة بما تملكه من هذه الميزات، و هذا الزخم يُمكن اعتبارها ميدانا خصبا لممارسة العملية النقدية ،حيث ظهر مصطلح النقد الثقافي كمنهج في التحليل ولّدته المناهج السابقة عنه بعدما أخذ عنها ،و استفاد منها حتّى قيل"يرتبط النقد الثقافي بحقول الثقافة المتنوّعة مستفيدا من مناهج العلوم الإنسانيّة الفلسفة و التاريخ و السيّاسة و الفكر،و علم الاجتماع وعلم النفس

[1] عبد الكريم جمعاوي،(الخطاب الواصف. النقد و القراءة)،مجلّة علامات في النّقد،النادي الأدبي الثّقافي جدّة،مجلد14،جزء56،1426ه،ص146.

[2]، النقد و النص سلطويّة الفكر و جماليّات الوعي،مجلة علامات في النّقد ،النادي الأدبي الثقافي،مجلّد14،ج56،ص142.

والفلسفة و البيولوجيا ، والألسنيّة ، والنقد الأدبي ،والأنثروبولوجيا و غيرها"[1] فالذي يحمل النقد الثقافي على الاستفادة من كل هذه المناهج هو اتساع مجال دراسته إذ يقوم بدراسة كل ما يتعلّق بحياة الإنسان و ما يتصل بشخصيّته و وظيفته في المجتمع.

ولقد تنوعت الميادين الخصبة التي تستحق الدّراسة الثقافيّة في خطابات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من قبيل خطاب الهوية و القابلية للاستعمار و التراث و الحداثة والمقالات الصحفية و الظواهر الأدبيّة و غيرها.

3 الثقافة و الإصلاح الاجتماعي:

اقترنت الثّقافة بالمجتمع منذ القدم ، إذ ما كان لنا أن نتعرّف على فكرة الثّقافة وتطويرها بدون وجود المجتمع وبعيدا عن مفهوم المجتمع،كما لم يكن بالإمكان التّعرّف على فكرة المجتمع كمعنى و مفهوم كلّي و مركّب بدون فكرة الثّقافة ، فالثّقافة هي المعنى و المجتمع هو الإطار الذي يحتويها، ويعزّزها ويسمح لها بالانتشار حتى قيل أنّ الثقافة "هي ذلك الكل المركّب الذي يتألّف من كل ما نفكّر فيه ،أو نقوم بعمله، أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع"[2].

تشتمل الثقافة على القيم التي يتمسّك بها أعضاء جماعة معيّنة ،و للأنماط التي يتّبعونها في الحياة ، و المبادىء التي يعيشون عليها ، فالمجتمع نسق من العلاقات التي تربط أفرادا ينتمون إلى نفس الثّقافة ، هذه الأخيرة التي تعتبر أهمّ دعائم الحياة الاجتماعيّة فلا تستقيم بمعزل عنها و لا يمكنها أيضا أن تحقّق التنميّة البشريّة بدونها ،فهي التي تسهم في توجيه أفكار الأفراد و الشّعوب ، وتدفعها نحو الإبداع و التّميّز، و تعتبر أداةً فعّالة لصقل المواهب الفرديّة وتنميتها قائمة على إصلاح فساد وتحسين أمور حياتيّة كثيرة مجتمعةً مع بعضها،بنشر الوعي لدى الآخرين،و المساهمة في تحليل الأساليب العلميّة بالعقل.

إنّ"العلاقة وثيقة بين المفهومين الثقافة و المجتمع،نظريا و في الواقع الاجتماعي كذلك وحتّى لو أمكن التّفرقة النظريّة بينهما إلّا أنّ الظواهر التي يعبّران عنها لا ينفصل بعضها عن بعض في الواقع،فالثّقافة لا توجد إلّا بوجود المجتمع،ثمّ إنّ المجتمع لا يقوم و يبقى إلّا بالثّقافة، إنّ

[1] عز الدين المناصرة ،الهويات و التعدديّة اللغويّة ،قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن ،دار مجدلاوي للنشر و التوزيع ،عمان الأردن،ط1،2004،ص11

[2] مجموعة من الكتّاب،نظريّة الثقافة، عالم المعرفة،يناير1978م،العدد233،ص9.

الثقافة طريق متميّز لحياة الجماعة،و نمط متكامل لحياة أفرادها ، ومن ثمّ تعتمد على وجود المجتمع ،ثم هي تمد المجتمع بالأدوات اللّازمة،لاطّراد الأفراد فيه"[1]

الثقافة عبارة عن رغبة داخليّة في الإنسان تدفعه دفعا نحو التّحرّر،و التّطوّر والفهم فهي تبدأ من الدّاخل لتطغى على الخارج من خلال فهم و هضم يُترجم على العمل بما نعتقده وبما تبنّه الثّقافة فينا، يقول المفكّر مالك بن نبي"لقد علّمتنا تجربتنا في الجزائر أنّ الثقافة لا تستورد بنقلها من مكان لآخر، بل يجب خلقها في المكان نفسه ،لأنّ البيئة ليست إحدى لوحات الرّسم التي تفكّها من مسمار الجدار الذي عُلّقت عليه، لكي تنقلها إلى منزلها ،مضافا إلى ذلك أن البيئة تقدّم لنا عناصرها على صورة متراكمة وغير منظّمة ، ولهذا يتعيّن أن نقوم بترتيب عناصرها لكي تدرج إحداها في إطار موحّد"[2].

يتم أحياء الثقافة في وسطها و بلغتها ، وبين شعبها،و لا يتم استيرادها ، فالجماعة هي التي تملك الصّلاحيّة في تحديد شكل مجتمعها،و ثقافتها،ونظمها الاقتصاديّة و السّياسيّة و الأدبيّة وتطوّر المجتمع متوقّف على مدى تمسّك أفراده بثقافتهم الوطنيّة و الافتخار بها، أمّا إذا اختاروا التّميّع و الانصهار في ثقافة الآخر بنقلها إليهم،فهذا يعني اختيّارهم التقليد و التبعيّة الثّقافيّة و بالتّالي الانهيار .

3-1الإصلاح الثّقافي:

تعرف المجتمعات قديما و حديثا حركات إصلاح ثقافيّة دوريّة،تفرضها عادة الحالة السّياسيّة و الاقتصاديّة و الثّقافيّة التي تكون مدعاةً لتحقيق وثبة تُعيد له التّوازن في مناحي الحياة المختلفة من خلال العودة إلى الأصل أحيانا و التغيير أحيانا أخرى.

الإصلاح:

جاء في لسان العرب عند ابن منظور "صلح :الصلاح :ضد الفساد ويصلح صلاحا و صلوحا و الإصلاح نقيض الفساد (...)، وأصلح الشيء ، بعد فساده أقامه(...) و الصلح

[1] المرجع السابق،ص8.

[2] مالك بن نبي،مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى،ط1،دار الفكر،دمشق، 2000م،ص83.

تصالح القوم بينهم"[1]، كما ورد في منجد اللّغة و الأدب و العلوم:"أصلح الشيء ضد أفسده،وأصلح إليه أحسن إليه، و أصلح الله له في ذرّيته و ماله أي أحسن إليه"[2].

يبدو من خلال التعريفين أنّ المعنى الأقرب لمصطلح الإصلاح نقيض الإفساد ويحمل جملة من الخصال الإيجابية كالإحسان وإقامة الشيء بعد اعوجاجه،و التصالح وغيرها، واستنادا إليه يمكن القول أن معنى الإصلاح من النّاحيّة اللّغويّة،هو محاولة تغيير الأوضاع من السّيء إلى الحسن و من الخطأ إلى الصّواب،وذلك بمحاربة الفساد،و العمل على التجديد في مختلف مناحي الحياة.

لا يختلف معنى الإصلاح لغة عنه في الاصطلاح،فقد ورد بلفظه و معناه في غير ما موضع في أهمّ مصادر التشريع الإسلامي أقصد القرءان الكريم ، والحديث النبوي الشريف: قال تعالى"**و ما نرسل المرسلين إلّا مبشّرين و منذرين،فمن آمن و أصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**"[3]

يُعتبر الإصلاح في الأرض من صفات عباد الله الصّالحين،وهم الأنبياء عليهم السّلام،ثم الأمثل فالأمثل،والإصلاح مدعاة للطمأنينة ،وتجنّب الخوف والحزن،ثم إنّه ليعدّ من أعمال البرّ التي تستوجب الأجر و الثّواب،قال تعالى"لا خير في كثير من نجواهم،إلّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس،ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله،فسوف نؤتيه أجرا عظيما"[4]

و قال تعالى في موضع آخر:"**و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما،فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله،فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل و أقسطوا ،إنّ الله يحب المقسطين،إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتّقوا الله لعلّكم ترحمون**"[5]،و الإصلاح هنا يعني فكّ النّزاع،ومحاولة المساهمة في تعزيز لحمة المجتمع وورد ذات المصطلح في السنّة النبويّة الشريفة، في الكثير من المواضع نذكر منها

[1]أبو الفضل جمال الدين ابن منظور،لسان العرب،م4،ج27،ص2479.
[2]لويس معلوف ،المنجد في اللغة و الأدب و العلوم،ط19 ،المطبعة الكاثوليكية ، بيروت،2010،ص432.
[3]سورة الأنعام ، الآية 48.
[4]سورة النساء، الآية114.
[5]سورة الحجرات،الآية 9،10.

حديث أبي بكرة أنّ النبي صلى الله عليه و سلّم قال للحسن بن علي رضي الله عنهما " إنّ ابني هذا سيّد و لعلّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين"[1].

ممّا سبق يمكن القول أنّ الإصلاح هو العمل على تغيير الأوضاع الفاسدة في المجتمعات بكل الطرق المشروعة ،والوسائل المتاحة،لذا دخل مصطلح الإصلاح في الكثير من المجالات منها السّياسيّة و الأخلاقيّة و الاجتماعيّة و الثّقافيّة، و الدّينيّة،و قد عرف طريقه إلى الفكر العربي في نهايات القرن التّاسع عشر بقيّادة نخبة من المصلحين، في المجالات المختلفة ،منهم جمال الدّين الأفغاني، محمّد عبده، عبد الرحمان الكواكبي، و ابن باديس و الإبراهيمي و غيرهم و الإصلاح عادة ينطلق من منظور ثقافي باعتباره المتضمّن للقيم و المعاني والغايات والنمط المحدّد لحياة الإنسان ،وبالتّالي هي الخصائص التي يتميّز بها البشر عن سائر الكائنات وعليه يمكن أن نعرّف الإنسان بأنّه كائن ثقافي.

إنّ معنى الإصلاح في لسان العرب هو إعادة الشيء إلى طبيعته على مقتضى نظامه الذي هو له،بحيث تنتفي عنه مظاهر الفساد التي طرأت عليه فأدّت إلى اختلال نظامه، و من ثمّة يصحّ القول أن الإصلاح هو العناية بالشيء المختل نظامه،أو المعوجّ قوامه، بإزالة الخلل أو الاعوجاج الذي داخله إلى أن يعود إلى سيرته الأولى من الاستقامة أو إلى القويم من طبيعته[2]"يعني - الإصلاح - حرفيّا أن يعيد تشكيل(re-form) أي أن يشكّل من جديد، و لهذا فهو يمكن أن يفهم بمعنيين مختلفين :تعديل حالة مغلوطة للأشياء،أو تحويرها نحو الأحسن و العودة بشيء ما نحو وضعه الأصلي، وهكذا يمكن النظر إليه إمّا كشيء جذري أو كشيء محافظ أو أحيانا في هاتين الحالتين معا"[3].

يرى مالك بن نبي أنّ أولويّة الأولويّات في الإصلاح الاجتماعي هو بناء العالم الثّقافي للإنسان فتجاوز المشاكل في عمومها يكون عبر تحديد سلبي و إيجابي ،أمّا التحديد السلبي للثّقافة فيتمثّل في تجاوز كل الموروثات السلبية التي تعيق التقدّم ، أو المؤثّرات الاستعماريّة

[1]أخرجه البخاري في صحيحه،مجلد5،ص361 .
[2]فؤاد مليت ،جريدة البصائر،مقالة مقام الإصلاح في فلسفة جمعيّة العلماء،العدد728،3-9 نوفمبر 2014م.
[3]طوني بينيت ،لورانس غروسبيرغ،ميغان موريس،مفاتيح اصطلاحيّة جديدة ،معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع ،تر:سعيد الغانمي ،مركز دراسات الوحدة العربيّة،ط1،بيروت ،لبنان،2010م،ص84.

وفتح الطّريق للتّراث وإعناؤه بالحركة العلميّة النّشطة، حتّى تنطلق مسيرة الإصلاح في الطّريق الموصل إلى برّ الأمان ، وهو درس مأخوذ من تجارب الماضي فالحضارة الإسلاميّة نفسها قامت بعمليّة التحديد هذه، من ناحيتها السّلبيّة ، و الإيجابيّة، إلّا أنّ الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التّحديدين مرّة واحدة صدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية الباليّة ثمّ رسم طريق الفكرة الإسلاميّة الصّافية التي يخطّط للمستقبل بطريق جديد وهذا العمل لازم اليوم للنهضة الإسلاميّة[1].

و المجتمع الذي يتمكّن من بناء عالم ثقافي سليم ، وفعّال و متكامل ذاتيّا ،ومنسجم مع بعضه البعض ، و يُحسن استثمار إمكاناته المعرفيّة ، و البشريّة و المادّية على ضوء ذلك يكون نموّه في النّهاية مطّردا ، وإنتاجه الحضاري مضاعفا ، و عليه فالإصلاح ينطلق من قيم ثقافيّة تهدي مسيرته،ممّا يؤدّي ضرورة إلى خلق ثقافة وطنية ،توفّر كل المقوّمات الثّقافيّة و التّربويّة الفعّالة التي تجعل منها ثقافة إنسانيّة، متطوّرة ، مشتركة تضمن التّماسك الاجتماعي و الوحدة.

احتل مصطلح الإصلاح حيزا هامّا من خطابات علماء الجمعية ، بل يمكن القول أنّ كلّ الجهود التي بذلتها كانت في سبيله ،حيث عرّفها الشيخ أبو يعلى الزواوي في إحدى مقالاته بالقول"الإصلاح كلمة واضحة المعنى ،مفهومة لغة و شرعا وعرفا،وهي ضدّ الإفساد ،و أجمع العقلاء من جميع الملل و النحل على أن الإصلاح محمود ، وضدّه مذموم (...)، ثمّ إنّ مرادنا نحن بالإصلاح الإصلاح الدّيني الشرعي أوّلا ،ثمّ الإصلاح العام حتّى في شراك النعل"[2]
إن الإصلاح الديني هو الأصل عند علماء الجمعيّة ،فلا طعم و لا معنى للحياة الحرّة المستقلّة بلا خلق و لا دين في أي حين و في أي مكان و لسان حاله يقول:

ما أجمل الدين و الدنيا إذا اجتمعا و أقبح الكفر و الإفلاس بالرجل

فالإصلاح إذن متوقع سواء في الدين أو الدنيا و مطلوب في كل حين.

[1] المرجع السابق،ص69.
[2] عبدالرحمن شيبان،الشيخ أبو يعلى الزواوي:إمام المصلحين(1866،1952)،البصائر،العدد250،25جويلية-1\8\2005

2-3 جمعية العلماء والمقاومة الثقافيّة:

سطّرت حكومة الاحتلال في الجزائر برنامجا استعماريّا ثريّا ومتنوّعا شارك فيه العساكر جنبا إلى جنب مع رجال الدّين و اللّغة و الفكر، بغية إحكام السّيطرة على الجزائر أرضا و أمّةً لعلمها المسبق أنّ بناء الدّولة ، و إحكام السيطرة يمرّان حتما عبر العمل الثّقافي.

تقرّر في بعض تعريفات الاستعمار أن من بين معانيه إلى جانب الهيمنة العسكريّة السيطرةُ و الإثنيّة و المركزيّة الثّقافيّة، بمعنى أنّه مُلزم للإيمان بثقافة واحدة ،و ذلك من معاني الاثنيّة الثّقافيّة[1] ،وإذا كان اعتمادها من الجانب العسكري على سيّاسة وحشيّة قامت على القمع و التنكيل والسجن و الإبادة ،فإنّ سياستها من الجانب الثّقافي لم تكن أقلّ وحشيّة، فلقد اتبعت سيّاسة التجهيل و التغريب و الفرنسة و الإدماج لعلمها المسبق أنّ البقاء لأطول فترة ممكنة في هذه الدّيار متوقّف على مدى قدرتها على عزل الشعب الجزائري عن ثوابته و مقوّمات شخصيّته و في هذا يقول الدكتور بوالصفصاف أنّ نجاح هذه السيّاسة:"يكمن في العزل القسري للمقوّمات الحضاريّة للتّراث العربي الإسلامي في الجزائر، و تغيير الهويّة الثقافيّة السّائدة ومن ثمّ على الجزائر أن تكون فرنسيّة في كلّ شيء، و أن تنسى ذاكرتها ،وجسور اتّصالها بالماضي دفعة واحدة و إلى الأبد"[2].

سعى الاحتلال إلى القضاء على الشعب الجزائري بضروب من التثقيف يشوّش بها ذهنه و يبثّ في نفسه الشّبهات ،ويبالغ في تحقيره حتّى يقضي على آخر رمق من المقاومة و ردّ الفعل، فيجعل منه مجتمعا راضيا بالدّونيّة ،متقاعسا عن أداء مهامه، رابطا بقاءه ببقاء هذا المحتلّ، و هو نوع من الإحباط الثّقافي.

يظهر ممّا سبق أن الاستعمار الفرنسي للجزائر كان استعمارا استيطانيّا الهدف من ورائه إلحاق الجزائر بفرنسا و اعتبارها ولاية من ولاياتها ،"جاءت فرنسا إلى الجزائر بالّرّاهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم ،وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشكّكهم بتثليثه في

[1] ينظر جيرارد لكلرك،الأنثروبولوجيا و الاستعمار،ط2،المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات و النشر و التوزيع،لبنان 1990م،ص39.
[2] عبد الكريم بوالصفصاف،جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنيّة في الجزائر(1931،1945م)، ص87.

توحيدهم (...)وجاءت بالمعلّم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم ،ويلقي الاضطراب في أفكارهم ،و يصدّهم عن لغتهم وآدابهم (...) ويعلّمهم بعد ذلك تعليما ناقصا هو شرّ من الجهل، وجاءت بالطّبيب الاستعماري ليحافظ على صحّة أبنائها قبل كلّ شيء(...)أمّا هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة للمسلمين فكأنّما جاء ليداوي علّة بعلّة، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم (...)إنّ الاستعمار القائم على الجندي،والمعلّم،والطّبيب،و الرّاهب،هيكل حيواني يمشي على أربع ،وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر،رمى مواهبهم بالتعطيل فما أشأم الاستعمار"[1]،فالاستعمار الفرنسي للجزائر هو استبدادي من بين أنواع الاستعمار، إذ يتدخّل في كل شاردة وواردة تخص أبناء مستعمراته حتّى أنّه يبذل من أسباب السّيطرة عليها الغالي والنّفيس، فتجده يخصّص دروسا لهم هي في حقيقة الأمر أشبه ما تكون ب(غسيل المخ)غايتها استعماريّة بحتة، كما يسعى "الاستعمار الاستبدادي"[2] كما يُصطلح عليه مالك بن نبي إلى الحيلولة بين الشعب و إصلاح ذاته،باتّباع سيّاسة تخريب العقول وإفساد الأخلاق و نشر الرّذائل.

استنادا إليه يمكن أن نسلّط الضّوء على مشروعه بتحديد الأولويّات التي انطلق منها، فكانت خطوّاته كالآتي:

-القضاء على الدّين الإسلامي:

أدرك الاحتلال أن أكبر عقبة يُمكن أن تعترض طريق مشروعه تكمن في العقيدة الإسلامية الرّاسخة في قلوب الجزائريين، وأن لا حياة لهم بدون الإسلام حتّى قيل:"إن الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمون في الجزائر أكثر خطرا من جميع الحركات التي قامت حتّى الآن فيها ،لأن العلماء المسلمين، يرمون من وراء حركتهم هذه إلى هدفين كبيرين :الأوّل سيّاسي و الثّاني ديني،"[3] لذا سعى جاهدا إلى القضاء عليها وسلك في ذلك سبيلين، سبيل إزالته من الوجود الحسّي عند الجزائريين من خلال تخريب وهدم دور العلم و مراكز الثقافة العربيّة الإسلاميّة المتمثّلة في المساجد و الزوايا و المدارس ،و تحويلها إلى كنائس و مراكز للتبشير في حين تحوّل الجزء الآخر إلى ثكنات و حتّى إسطبلات فخرق بذلك نصوص معاهدة

[1]عبد الرحمن شيبان،حقائق و أباطيل،ص214،215،عن البصائر،العدد 103،16جانفي 1951م.
[2]مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي،تر:عبد الصبور شاهين،ط1،دار الفكر،لبنان/سوريا،2002م،ص108.
[3]عبد الرحمن شّيبان،حقائق و أباطيل،ص180.

الاحتلال باحترام المقدّسات الدّينيّة و الثّقافية للجزائريين[1]،أمّا السبيل الآخر فهو إزالته من القلوب من خلال حملات التنصير واسعة النطاق التي قام بها رجال الدّين الفرنسيين في المدارس التي شيّدوها، ويظهر ذلك جليّا في التّصريحات التي كان يطلقها القادة الفرنسيون بين الفينة و الأخرى ،من قبيل الكلمة التي ألقاها سكرتير الحاكم العام الفرنسي في الجزائر عام 1832م:"إنّ آخر أيّام الإسلام قد دنت ،وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح،ونحن إذا أمكننا أن نشكّ في أنّ هذه الأرض تملكها فرنسا ،فلا يمكننا أن نشك على أي حال في أنّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ،وأمّا العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا"[2].

إن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان استعمارا صليبيّا بامتياز ،سعى جاهدا إلى القضاء على الفكرة الدّينيّة من الأساس، فلم يكتف برجال الدّين الذين جلبهم معه ،بل راح يستعين أيضا بشيوخ الطّرقيّة الذين كوّنهم بيده و بثّهم في أوساط الشعب الجزائري حتّى يحرفوا الدين عن أصوله من خلال بث البدع و الخرافات حتّى قال أحدهم أنّ كسب شيخ طريقة أفضل لفرنسا من إنشاء جيش بكل معدّاته، كيف لا و شيوخ الطرائق بإمكانهم أن ينتزعوا الإسلام النقي الصافي من القلوب ببثّهم تلك السّموم التي تنفذ مباشرة إلى الصّدور،من ذلك زرع ثقافة الوثنيّات أين يعتقد الجزائري أن تقديس شيخ الطّريقة هو فرض استلزمته المكانة التي اكتسبها باعتباره ظل الله في الأرض - بزعمه - وبالتّالي التسليم بكلّ ما يقول ومن ذلك الرضا بالاستعمار بحجّة أنّه قضاء وقدر فيه خير لأهل الجزائر،و كأنّهم أرادوا القول(فرنسا و بعدها الطّوفان)مما يورث تعطيل الأخذ بأسباب التحرّر والمدنيّة ،ونحن نتجرّع تلك السّموم إلى يوم النّاس هذا حيث نرى البعض يتمسّح بقبور الأولياء معتقدا أنّهم يملكون نفعه أو ضرّه .ولعلّ أبلغ مثال لسعي الاحتلال إلى القضاء على الدّين الإسلامي في قلوب الجزائريين ما قاله أحد الفرنسيين:"إنّنا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن،ويتكلّمون اللّغة العربيّة فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ،و أن نقتلع العربيّة من ألسنتهم"[3]، بينما يسعى آخر إلى تجريد المسلمين من ديّانتهم ،و نشر المسيحيّة بينهم تحت عباءة إدخال المدنيّة و الحضارة التي

[1] ينظر،تركي رابح عمامرة ،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956م)،ص103،104.
[2] نفسه،ص109،110.
[3] أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1، ص7

لم تعرف طريقها إلى أهل مستعمراته بالقول "ليس في الإمكان أن نُدخل أساليب الحياة العصريّة و الحضارة الأوربيّة إلى بلدان الشّمال الإفريقي، المتشبّثة بدينها، بدون الدّيانة المسيحيّة ،هذه الدّيانة التي هي وحدها الكفيلة بنشر الأفكار الغربيّة من حريّة و رقي"[1]، هذه هي المزاعم التي طالما بثّها المحتلّ في النفوس ، بينما هي في الحقيقة حرب صليبيّة ،اتخذت خلالها فرنسا من خطاب نشر الحريّة و المدنيّة شعارا كاذبا كان هدفها من ورائه نشر الرذّيل من الأخلاق ،وهذا مرادهم من الحريّة و الرقي أي التحرّر أو الانسلاخ من المبادىء الإسلاميّة و الأخلاق القرآنيّة و هذا ما يؤكّده مؤلّفا كتاب الجزائر الخارجة عن القانون وهما فرنسيان و الحق ما شهدت به الأعداء"إنّ الحرب القائمة بالجزائر ليست حربا دينيّة أو جنسيّة أو حضاريّة، و لكنّها حرب شعب مظلوم يريد أن يتحرّر من ربقة شعب ظالم ،إلّا إنّ الإسلام عنصر فعّال في دفع الجزائريين إلى طلب هذا التحرّر (...)،لقد أيقن الجزائريّون منذ الأيّام الأولى للاحتلال أن هدف الفرنسيين كان القضاء على الإسلام ،و من أجل ذلك أدركوا جميعا أنّ عليهم أن يعتصموا بالإسلام حتّى يقدروا على التحرّر (...)،و الواقع أن الاحتلال كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من الحرب الصّليبيّة"[2]

-القضاء على اللّغة العربيّة:

إدراكا منه أن اللّغة العربيّة تعتبر أهمّ مقوّم من مقوّمات الشخصيّة الجزائريّة بعد الدّين باعتبارها الوسيلة التي يستنبط بها الأحكام الشرعيّة من القرآن الكريم والسنّة النبويّة التي ترسم له طريق حياته، سارع الاستعمار لعزل هذه الوسيلة بالغة الأهميّة في حياة الجزائريين ليعزل من خلالها المجتمع عن أصول هويّته، فكان إعلان الحرب على اللّغة العربيّة من خلال محاولة تغريبها حتّى قال الإبراهيمي:"لئن كان منكم من حيل بينه وبين الفصحى فلا أقلّ من أن ينال حظّه من اللّغة الدّارجة، فإنّ الرّطالة التي تفاحش أمرها في عموم القطر وتشوّهت بها الألسن أيّما تشويه تركتنا خائفين على اللّغة العاميّة ذلك الخيال الباقي من العربيّة"[3]، ولا ريب أنّ الفاعل الذي لم يُسمَّ فاعله في الفعل (حيل)،هو الاحتلال الفرنسي الذي بذل الغالي و النّفيس في سبيل القضاء على اللّغة العربيّة ، والهويّة الوطنيّة، فالتّعليم إبّان الاحتلال كان استعماريا

[1] عبد الرحمن شيبان،حقائق و أباطيل،ص98.
[2] نفسه،ص99،عن كتاب الجزائر الخارجة عن القانون،للفرنسيين جونسون و كوليت جونسون،ص45.
[3] تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة،ص95.

بحتا،لا يقيم للغة العربيّة وزنا، في أي طور من أطوار التعليم ، وكانت اللغة الفرنسيّة مهيمنةً تمهيدا لتحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع فرنسي الفكر و اللّسان وبالتّالي مناهضا للاحتلال قابلا للاستعمار راض به ، له قابليّة الاندماج في مجتمع الآخر و بالتّالي تستطيع السّيطرة بالطّول و العرض على الجزائر أرضا و أمّة، و لتحقيق ذلك اتّخذت الحكومة الفرنسيّة قوانين جائرة تجاه لغة الجزائريين كانت أهم بنودها جعل التّعليم في جميع المدارس الحديثة باللّغة الفرنسيّة وحدها ومنع تعليم اللّغة العربيّة لأبناء الجزائريين في المدارس الابتدائيّة، بل أصدرت في عام 1938م قانونا رسميّا اعتبرت اللّغة العربيّة بمقتضاه لغة أجنبيّة في الجزائر، و لم تكتف بذلك فراحت تقسّم اللّغة العربيّة إلى ثلاث لغات :عربيّة فصحى وعربيّة دارجة وعربيّة حديثة ،ثمّ منع تدريسها في المدارس الابتدائيّة ،وجعلها اختيّاريّة في الطور الثانوي[1].

- طمس الهويّة

بعد اللّغة و الدّين سعى الاحتلال جاهدا أن يتسلّل إلى المقوّمات الأخرى التي تندرج تحتهما فاستهدف تحريف التاريخ، ونشر الرّذائل، ومسخ الأخلاق الإسلاميّة التي ميّزت المجتمع الجزائري في أشّد ساعاته حرجا، من خلال إفشاء رذيلة شرب الخمور و القمار، و دعوة النساء إلى التخلّي عن الحجاب بحجّة أنّه رمزٌ للرّجعيّة و التخلّف،وهو المعنى الذي أورده فرانتز فانون في كتابه العام الخامس للثّورة الجزائريّة على لسان أحد الفرنسيين الذي ربط تثبيط مقاومة الجزائريين تجاهه بتجريد نساءه من الحجاب الذي يتوارين خلفه وإخراجهنّ من البيوت[2] فالهويّة عند الاحتلال قائمة على ثنائيّة (نحن/هم)"وهي هويّة سلبيّة لا تعرف الذّات إلّا عبر إقصاء الآخر"[3] و لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ بل انتهجت سيّاسة التجهيل حتّى تجعل من الجزائري أشبه بالحيوان همّه شهواته، فلا يرتقي تفكيره إلى البحث عن التثقيف و الحريّة حتّى قال أحدهم:"لم يكن هنالك كفر،و لكن إسلام مشوّه،لم يكن هناك جهل فحسب، ولكن ثقافة دخيلة مسمومة، لم يكن هناك شعب ألقى حبله على غاربه، ولكن كان هناك الشعب الذي تسلط

[1] المرجع السابق،ص104.
[2] ينظر،فرانز فانون ،العام الخامس للثورة الجزائريّة،تر:ذوقان قرطوط،ط1،دار الفرابي ،لبنان،2004م،ص26
[3] عبد الله الغذامي،القبيلة و القبائليّة أو هويات ما بعد الحداثة،ط2،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب ،2009م، ص10.

على زِمَامِه المستعمر،لم يكن هناك الشباب الجاهل فقط،ولكن الشباب المشوَّه الثقافة واللّسان المفصول عن تاريخه وحضارته"[1]

في خضمّ كلّ هذا كان لا بدّ من تدخّل بطابع ثقافيّ مضاد إن صحّ التعبير يكون بمثابة المقاومة الثّقافيّة التي تدحر مشروع الاستعمار، فكانت جمعيّة العلماء التي وصلت في الوقت بدل الضائع بتعبير أهل الريّاضة، و تمكنّت بفضل جهود رجالاتها من إنقاذ الشعب الجزائري وإعادته إلى هويّته وعقيدته، فأعادت العربيّة إلى سابق عهدها ،و عاد الإسلام نقيّا صافيّا من البدع والخرافات والتحريفات،و عادت أخلاق المسلمين لتعمّ بيوت الجزائريين و عادت الفضيلة والشّهامة التين انتُزعتا قسرا :"إنّ جمعيّة العلماء قد أحيت الجزائر و بعثت فيها عربيّتها التي كادت تغيب وإسلامها الذي كاد يُقضى عليه، ولو أنّ حركات التحرّر السيّاسي في الجزائر سارت بطريق آخر و على منهج بعض الهيئات التي أُنشئت في جوّ التأثّر بالثّقافة الفرنسيّة كانت الجزائر اليوم قطرا فرنسيّا ، ولو أنّه مستقلّ استقلالا ذاتيّا ،ولكنّه استقلال يمحو به ذاتها ويزيل عنها إسلامها وعروبتها"[2].

نجحت جمعيّة العلماء في مقاومتها الثقافيّة التي خاضت غمارها ضدّ الاحتلال و طفقت تقطف الثّمار الواحدة تلو الأخرى بعد طول عناء ،قال ابن باديس:"حوربت فيكم العربيّة حتّى ظُنّ أن قد مات منكم عرقها،و مُسخ فيكم نطقها ، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشّعور و المشاعر،وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدكّ الحصون و المعاقل ،ويهزّ كتّابكم أقلامها فتصيب الكلى و المفاصل"[3]، أعادت الجمعيّة لغة الجزائريين العربيّة إلى عصورها الزّاهيّة على منوالها القديم المفعم بالفصاحة و البلاغة، و الغزارة في المفردات و التّراكيب على حدّ سواء فظهر على إثرها شعراء مبدعون،وخطباء مفوّهون، و كتّاب متمكّنون، ونقّاد متميّزون، أمّا الدّين فقد تمّ تجريده مما لحق به من بدع و خرافات، و أصبح النّاس يفهمونه على المنوال الذي جاء به النبي صلّى الله عليه و سلّم ،و على النهج الذي سار عليه صحابته

[1] محمد فلوسي, دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مواجهة المشروع الاستعماري في الجزائر'جريدة البصائر.العدد 651. 6-12 ماي 2013

[2] عبد الرحمن شيبان،حقائق و أباطيل ،ص132.

[3] عمّار طالبي ،آثارالإمام ابن باديس،ج3،الشركة الجزائريّة للحاج عبد القادر بودواو،ط3،الجزائر،1997م،ص555.

الكرام و أتباعهم و هذا الذي نفهمه من كلام الإمام الرّئيس حين قال"و حورب فيكم الإسلام حتّى ظُنّ أن قد طُمست أمامكم معالمه، وانتُزعت منكم عقائده ومكارمه ،فجئتم بعد قرن ترفعون علم التّوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التّجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمّد صلى الله عليه و سلّم، لا كما حرّفه الجاهلون و شوّهه الدّجّالون ،ورضيه أعداؤه"[1] و ردّت الجمعيّة على الاحتلال مشروعه في تجهيل الجزائريين، و فجعتهم بجيل من الشّباب أخذ بحظ وافر من علوم الدّنيا و الدّين ما مكّنهم من إعادة بعث الثّقافة العربيّة و الأخلاق الإسلاميّة وسط الشعب الجزائري الذي حوربت فيه الفضيلة حتّى أصبح يحاكي المجتمعات الأوربيّة في أخلاقها التي لا يمكن أن تلتقي مع أخلاقه تحت أي ظرف كان "جئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناءا شامخا و تشيّدون له سرحا سامقا، فأسّستم على قواعد الإسلام و العروبة و العلم و الفضيلة جمعيّتكم هذه (...)و حوربت فيكم الفضيلة فسمتم الخسف، ودُيّثتم بالصَّغار حتّى ظُنّ أن قد زالت منكم المروءة والنجدة،وفارقتكم العزّة والكرامة فرئمتم الضيم ورضيتم بالحيف،وأعطيتم بالمقادة ،فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذّل وتهزهزون أسس الظلم،وتهمهمون همهمة الكريم المحنّق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان،وتطالبون مطالبة من يعرف له حقّا لا بدّ أن يُعطاه أو يأخذه"[2].

المدقّق في كلام الإمام الرئيس يدرك فحوى المعركة التي كانت قائمة رحاها بين الاستعمار الفرنسي و جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين و التي كانت ثقافيّة محضة ،لإدراك كلّ منهما أن الخطوة الأولى في سبيل كل الإصلاح ينبغي أن تكون تثقيفيّة من خلال توجيه التعليم و تحديد اللّغة،ونمط العيش ،و نوعيّة الأخلاق و الطّباع التي تُبث في الوسط الاجتماعي ،كما يظهر من خلال هذا الكلام الخطوط العريضة للمشروع الاستعماري الفرنسي و السيّاسة المضادّة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ركّزت على العودة إلى الأصول في كل القضايا المتعلّقة بمسألة الهويّة انطلاقا من اللّغة ،مرورا بالدّين ، ووصولا إلى إعادة بعث الثقافة العربيّة،كما يُفهم من ترديده للفظ(حتّى كاد) في بداية كلّ فقرة أن الجمعيّة و صلت في

[1] المرجع السابق،ج3،555 .
[2] نفسه ،ج 3،ص555،556.

الوقت المناسب و لو تأخّر ظهورها بقليل لاستشرى المرض الذي بثّه الاستعمار في كامل جسدها و لتعسّر علاجه أوتعذّر.

لنصل في خاتمة الفصل إلى أن الجمعيّة قد تبنت نوعا مختلفا من أنواع المقاومة تمثّل في الكفاح الثّقافي ،و كان أعضاؤها متيقّنون أنّهم جنودٌ في معركة النصرُ فيها يعني تحقيق حريّة الأرواح و الأبدان معا ،ذلك أن تحرير الثّقافة من الجمود و التبعيّة هو أصلٌ لكل تحرير فكانت هذه المقاومة بمثابة مرحلة تحضيريّة لنقل المجتمع الجزائري من مرحلة الاتباع إلى مرحلة الإبداع ،و محطّةً لتحضير روّاد الثقافة في البلاد ،وحملة لواء التجديد فيها،فالإصلاح الثّقافي هو أساس كلّ إصلاح.

الفصل الثّاني:جمعيّة العلماء والإصلاح الثقافي في الجزائر

1الحياة الثقافيّة في الجزائر قبل أثناء و بعد الجمعيّة:

1-1الحياة الثقافية قبل ظهور الجمعيّة

1-2الحياة الثقافيّة بعد ظهورها

2مجالات الإصلاح:

2-1اللغة كحامل للثقافة

2-2الدين كمكوّن ثقافي

2-3التاريخ و أثره في الحفاظ على القوميّة

3الخطابات النقديّة الثقافيّة:

3-1خطاب الهويّة

3-2التراث و الحداثة

3-3 نقد خطاب الهيمنة و القابليّة للاستعمار

3-4الأدب كظاهرة ثقافي

الفصل الثاني:جمعيّة العلماء و الإصلاح الثقافي في الجزائر

1الحياة الثقافيّة في الجزائر

قبل التّطرّق لعلاقة الجمعيّة بالثّقافة، و تركيزها على إصلاح ما يمكن إصلاحه فيها حتّى تنطلق في عملية إصلاح المجتمع ككل من بوّابتها، استلزم علينا أن نتطرّق إلى نمط الحياة الثّقافيّة في الجزائر قبل تأسيس الجمعية و أثناءها و بعدها،إذ من بين معاني الإصلاح العودة إلى الأصل الصّافي المعين ، والثّقافة إذا انحرفت عن مسارها ، فإنّها تتحوّل إلى ثقافة مشوّهة تفتقد للأصالة الحقيقيّة.

1-1الحياة الثّقافيّة في الجزائر قبل ظهور الجمعيّة :

إنّ للشّخصيّة الجزائريّة ماضيا بعيدا لا ننكره ولا مناص من الرّجوع إليه،إلّا أنّ دخول الإسلام إلى الجزائر في النصف الثّاني من القرن الأوّل الهجري، جعل الشّخصيّة الجزائريّة تأخذ بُعدا حضاريّا وثقافيّا جديدين كل الجدّة، يختلفان جملة و تفصيلا عمّا كان عليه الحال قبل إسلامها، ذلك هو البعد العربي الإسلامي الذي تربّى في أحضانه الجزائريّون، وامتزج فيه العرب الوافدون مع السكّان الأمازيغ الأصليين ، وهما اللذان شكّلا لاحقا العنصرين الأساسيين من سكّان الجزائر، يقول ابن باديس"ما من نكير أنّ الأمّة الجزائريّة كانت أمازيغية (بربريّة)من قديم عهدها،وأنّ أمّة من الأمم التي اتصلت بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها، ولا أن تخرج بها عن مازيغيّتها،أو تدمجها في عنصرها، بل كانت هي تبتلع الفاتحين، فينقلبون إليها ،و يُصبحون كسائر أبنائها، فلمّا جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا إسلاميّا لنشر الهداية لا لبسط السّيادة، وإقامة العدل الحقيقي بين جميع النّاس،لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، و تعلّموا لغة الإسلام العربيّة طائعين،ووجدوا أبواب التّقدّم في الحياة كلّها مفتّحة في وجوههم، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، وناقشوهم في مجالس العلم، و شاطروهم سيّاسة الملك ، وقيّادة الجيوش وقاسموهم كل مرافق الحياة ، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلاميّة ، ينشرونها و يعبّرون عنها بلغة واحدة ، و هي اللغة العربية الخالدة ، فاتّحدوا في العقيدة و النّحلة ، كما اتّحدوا في الأدب

واللّغة فأصبحوا شعبا واحدا متّحدا غاية الإتّحاد ، ممتزجا غاية الامتزاج ، وأيّ افتراق يبقى بعد أن اتّحد الفؤاد و اتّحد اللسان"[1]

إنّ الحياة الفكريّة و الثّقافيّة في الجزائر كانت مزدهرة غاية الازدهار في الفترة التي سبقت الاستدمار الفرنسي ، فكل أرجاء الوطن كانت تزخر بالعلم و العلماء ، ودور التعليم و قد قيل عام 1834 بأنّ كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة و الكتابة ، ففي كل قرية هنالك مدرستين ،و في هذا كتب الرّحّالة الألماني فيلهام شيمبر حين زار الجزائر عام 1831م "لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة و الكتابة ، غير أنّي لم أعثر عليه، في حين أنّي وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا ، فقلّما يُصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب"[2]

هذا يدل على أنّ العرب عموما ، و الجزائريين خصوصا كانوا أقرب للحضارة و النّهضة من أقرانهم هناك في أوربا ، وما يعزّز هذا الطرح ما قاله الأستاذ دمبري الذي درس طويلا الحياة الجزائريّة في القرن التّاسع عشر، فقد أشار إلى أنّه كان في مدينة قسنطينة وحدها قبل الاحتلال خمسة و ثلاثون مسجدا تُستعمل كمراكز للتّعليم، كما أنّ هناك سبعُ مدارس ابتدائيّة ، وثانويّة يحضرها ما بين ستمائة و تسعمائة طالب ، ويُدرّس فيها أساتذة محترمون بأجور عالية[3].

إنّ حياة الجزائريين الرّوحيّة انقلبت رأسا على عقب بعد الفتح الإسلامي فانقلبوا بها إلى رحاب الحضارة و الثقافة العربيّة الإسلاميّة ، التي توّجت بها تلك العقليّة الأمازيغيّة البربريّة التي ترفض الذّل و الهوان ،عقليّةٌ تلتقي مع الأفكار الإسلاميّة التي ترفض كل أنواع الضيم ولا ترى العزّة إلّا لله و لرسوله و للمؤمنين"إنّ أبناء يعرب و أبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ، ثمّ دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدّة و الرّخاء ، و تؤلّف بينهم في العسر و اليسر، و توحّدهم في السرّاء و الضرّاء ، حتّى كوّنت منهم خلال أحقاب بعيدة

1تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة (1931،1956م)،ص53،54.
2أحلام بالولي،أدب المقال عند البشير الإبراهيمي،عيون البصائر أنموذجا،رسالة ماجيستير،جامعة البويرة،2014،ص22.

3نفسه ،ص25.

عنصرا مسلما جزائريّا ، أمّه الجزائر و أبوه الإسلام"[1] ،إلّا أنّ هذا الوضع لم يدم طويلا بسبب السيّاسة الاستعماريّة التي اتّخذت من سيّاسة التّجهيل و التغريب والإدماج التي ذكرنا تفاصيلها في الفصل السّابق دعامة لتحقيق مشروعها ،حيث قال الزّعيم المصري محمّد فريد(1868م،1917م) حين زار الجزائر في أوائل القرن العشرين واصفا الحال الثّقافيّة التي آلت إليها البلاد"أصبحت وليس فيها من المُدرّسين في الجوامع إلّا ما يُعدّ على الأصابع وقلّ الطالب و المطلوب وهُجرت ربوع العلم ، وخُرّبت دور الكتب ، وصارت الدّيار مرتعا للجهلاء ، و كادت تندرس اللّغة العربيّة الفصحى، وباختصار فحالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدّا ولو استمرّ الحال على هذا المنوال لحلّت اللغة الفرنسيّة محلّ اللّغة العربيّة في جميع المجالات، بل ربّما تندرس اللّغة العربيّة مع مرور الزّمن فلا حكومة تسعى في حفظها و لا تدع الأهالي والجمعيّات لفتح المدارس، لمنعها أي اجتماع خوفا من أن تشتغل جمعيّاتهم بالأمور السيّاسيّة"[2]

فشتّانَ بين شهادة شيمبر و تصريح محمّد فريد ، فمن نسبة تكاد تكون منعدمةً للأميّة إلى تفشّ واضح لكل أنواع الجهل و الآفات الاجتماعيّة و الأميّة أصبحت اللّغة العربيّة غريبة بين أبنائها و النّاطقين بها.

كانت الجزائر قبل 1830م بلدا مستقلّا تملك كل خصائص الدّولة، كما كانت الثقافة العربيّة الإسلاميّة سائدةً و مزدهرةً نسبيا بين جميع أطياف الشّعب الذي كان معظمه يعرف القراءة و الكتابة و الحساب، إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر بكل أنواع التغريب و التّجهيل و الطّمس فخرّب دور العلم و مراكز الثقافة و أبدلها بمدارس و مراكز فرنسيّة اللغة غربيّة الثّقافة، فلقد دخل الاحتلال إلى الجزائر بقوّة الحديد و النّار، من أجل الهيمنة عليها روحيا و معنويّا و ماديّا، وإلى جانب استخدامه القوّة لاستنزاف خيراتها استعمل السّلاح الفكري الثّقافي الأكثر فتكا بغية مسخ الشّخصيّة الوطنيّة، وطمس هويّتها[3].

---

[1] تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة (1931،1956م)،ص،54.

[2] بشير فايد،قضايا العرب و المسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي،و الأمير شكيب أرسلان-دراسة تاريخيّة و فكريّة مقارنة- رسالة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التّاريخ الحديث و المعاصر،جامعة منتوري ،قسنطينة،2010،ص72.

[3] ينظر عبد الملك بومنجل،النثر الفنّي عند البشير الإبراهيمي،ص14.

ابتليت الجزائر على مدى 132عام بنوع خاص من أنواع الاحتلال ،شرّد أهلها واغتصب أرضها ، واستباح عرضها ،زيّادة على فرضه صراعا عنيفا ضد الشّخصيّة القوميّة للجزائريين مستهدفا قيمها الحضاريّة و الثّقافيّة "لقد استمرّ الاستعمار في بداية القرن العشرين في شلّ الحياة الفكريّة ، و نشر الأميّة في أوساط الجزائريين، وذلك عن طريق إغلاق المدارس ،ومحاربة التعليم باللغة العربية، وكذلك الإسلام،فشعار الاستعمار التفقير و التجهيل و القضاء على خصائص هويّته الوطنيّة و الحضاريّة "[1].

1-2الحياة الثقافيّة بعد ظهور الجمعيّة:

في ظل هذه الظروف اصطدم الاحتلال مع فئة من رجال الإصلاح الجزائريين متمثّلة في جمعيّة العلماء التي طالبت بإلغاء جميع القرارات القديمة المتعلّقة بالتعليم العربي و استبدالها بقانون موحّد يكون للأمّة رأي فيه و لجمعيّة العلماء اشتراك في وضعه، لأنّ التعليم العربي عندها هو وسيلة تثقيف ، و بالتّالي يجب ترقيّته ، فتكون القرارات السابقة محاولة لقتله[2]، ولم تقف الجمعيّة مكتوفة الأيدي مكتفيّة بالتّنديد، و الكلام فحسب ، بل انطلقت في العمل الجاد في الميدان من خلال بناء المدارس، ففي سنة 1938م قدّر عدد مدارس الجمعيّة في عمالة قسنطينة 85 مدرسة ضمّت 4047 تلميذا،أمّا في عمالة الجزائر فقد بلغ عددها عام 1935م 28 مدرسة ليرتفع سنة 1938 إلى 68 تضم 9063 تلميذا، و فيها مدارسُ بمثابة كتاتيب قرآنيّة بلغ عددها عام 1934م 2542 تضم 2618 معلّما منها 3 بالمئة تابعة لجمعيّة العلماء أي ما يعادل 76 كُتّابا ، وبالعودة إلى ما سبق نجد أنّ جهود العلماء في الحفاظ على اللغة العربية لم تذهب أدراج الريّاح فلقد لعب التّعليم العربي دورا هامّا في الحفاظ على الشخصيّة الجزائريّة ،كما كان لعودة الطّلبة الذين درسوا في جامع الزيتونة و القرويين بالغ الأثر في بعث الحياة الفكريّة و الدّينيّة و السّعي للنهوض بها بما أحيوه من همم الجزائريين و بما بنوه من مدارس و بما أصدروا من صحف فأصلحوا العقائد، و صحّحوا المفاهيم وحاولوا إشعال الشّعلة التي أخمدها الاحتلال، ولقد كان للشيخ عبد القادر المجاوي

1أنيسة بركات ، محاضرات ودراسات تاريخيّة وأدبيّة حول الجزائر،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،(دط) ،1995،الجزائر،ص79.

[2]ينظر حمزة بوكوشة،القضاء الإسلامي بالجزائر،جريدة البصائر العدد1،25\7\1947م،ص3،4.

و عبد الحليم بن سماية التأثير الأكبر في الميدان الفكري و النّهضوي الذي كان من نصيب علماء الجمعيّة لاحقا ،و هم عبد الحميد ابن باديس و البشير الإبراهيمي والمبارك الميلي و غيرهم، يقول الإبراهيمي واصفا شدّة وطأة الظلم الذي لحق بلغة الجزائريين "ومن أسوء ما في تلك القرارات شرّا و أشدّه إيلاما و جرحا لعواطف المسلمين عامّةً و للعرب خاصّةً ما جاء في بعض بنود تلك القرارات من اعتماد اللغة العربيّة لغةً أجنبيّةً في بلاد عربيّة هي الجزائر،وجاء دور تنفيذها على يد صغار الإداريين فبالغوا و أسرفوا في التّنكيل و المحاكمة و سيق معلّمو العربيّة إلى مجالس القضاء ، كما يساق المجرمون، و فُرضت عليهم العقوبات الماليّة و البدنيّة من سجون و تغريب، وما زالت بقاياهم في المنفى إلى الآن"[1]

كان هذا بمثابة استفزاز للجزائريين، فكان سببا في انكباب معظم أطياف الشّعب على إتقان العربيّة ، والاجتهاد في تبليغها حتّى بلغت مستوياتهم - على نقص الإمكانات- مبلغا يضاهي مستويات أرقى المعاهد الثّانويّة في الشرق، يقول الإبراهيمي في تقييمه لمعهد ابن باديس "ولقد قرأت في أيّام الامتحان ثلاث قطع من إنشاء تلاميذ السنة الثّالثة، فو الله ما كدت أصدّق أنّها من إنشائهم لولا الأدلّة القاطعة على ذلك ، ولولا أنّي توصّلت بلطف الاستدراج إلى اليقين"[2]، وهذا الذي بعث الأمل من جديد في عودة الثّقافة العربية الإسلاميّة للجزائريين إلى سابق عهدها،ومعها تعود العزّة و الكرامة و الهويّة و بالفعل هذا ما كان ،قال الجنرال دو لامورساي"حللنا بمدينة الجزائر فاتّخذنا من المدارس مخازنَ، وثكنات و اسطبلات، واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس،وكنّا نظنّ أنّنا سنعلّم الشعب العربي مبادىء الثّورة الفرنسيّة، ولكن مع الأسف فإنّ المسلمين رأوا في ذلك ضربةً للدّين والعقيدة..."[3]، وهو اعتراف قاطع على أنّ الشعب الجزائري محافظٌ أشدَّ المحافظة على هويّته و معها عقيدته.

تُعتبر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المنعرج الحاسم في تاريخ الجهاد الجزائري ضد الاستعمار،حيث كانت الانطلاقة الفعليّة نحو التّغيير المنهجي الجاد، ومعها انتعشت الحركة الثّقافيّة و الأدبيّة ، و برز على واجهة الأدب رجال ملكوا ناصيّة اللغة العربيّة وتزوّدوا بنفائس ثّقافتها ،و ظهرت الصّحافة الوطنيّة التي أتاحت للشّعب المغلوب على أمره

[1] أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج2،ص143.
[2] نفسه،ج 2،ص221.
[3] خديجة بقطاش،الحركة التبشيرية الفرنسيّة في الجزائر،(1830-1871)،ط1،مطبعة دحلب،الجزائر،1992،ص21.

فرصةَ الاطلاع على ما يحدث حوله داخل وخارج الوطن."و مع ميلاد جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أُعيد بعث الوجود الجزائري الحقيقي مجلّلا بالثوابت الخالدات،وإنّ هذه الثّوابت هي التي أخرجت الجماهير في الثّامن من مايو مطالبة بحقّها في الحريّة و الاستقلال فكان ما كان من ولوغ الاستعمار الاستئصالي في دماء الجزائريين الأبرياء ، و بذلك أشعل جذوة المقاومة و القضاء على دعاة الاندماج و المساواة"[1]،فالجمعيّة إذن كانت بمثابة أوّل خطوة نحو الثّورة المنظّمة ،فكانت البداية الفعليّة في تحضير الأذهان لها ،كما شاركت بنوع خاص من المقاومة هي المقاومة الثقافيّة ،و لا نستغرب إذا ما وجدنا أنّ الرعيل الأوّل من الذين أشعلوا فتيل الثورة المسلّحة كانوا طلبة عند علماء الجمعيّة على غرار العقيد عميروش الذي رغم كلّ ما يقال عن كونه راديكاليا إلّا إنّه تخرّج من مدارس الجمعيّة و هذا ما يدلّ على أنّ الهدف الأسمى لها كان لمّ شمل الجزائريين على اختلاف مشاربهم.

2 مجالات الإصلاح:

عرفنا أنّ الثّقافة تلعب دورا محوريّا في التّماسك الاجتماعي و القومي لأي مجتمع كائنا من كان، وهو نفس الدور الذي لعبته في الجزائر حين كانت تربطهم بماضيهم العربي الإسلامي من جهة، و تحثّهم من جهة أخرى على المُضي قدما لتطوير حياتهم و الارتقاء بهم في سلم الحضارة في إطار الأصالة و المعاصرة، فاستحقّت أن تكون مقوّما رئيسا من مقوّمات الشخصيّة القوميّة للجماعة، باعتبار أنّ أهمَّ وظيفة تضطلع بها هي المحافظة على حياة و شخصيّة المجتمع"ومن هنا كانت الثّقافة مقوّما أساسيّا من مقوّمات الشخصية القوميّة للجماعة والمحافظة عليها وبناءا على ذلك فالأمّة و الشّخصيّات القوميّة ،هي مفهوم ثقافيٌّ في الأساس"[2]، والثّقافة العربيّة الإسلاميّة هي الثقافة القوميّة للمجتمع الجزائري ، و لمعرفتها لا بد من التعرّف عن أهمّ خصائصها،فهي:

"أ- ثقافة عربيّة تشكّل اللغة العربيّة إطارها ، وهي لغة تاريخ قديم، متصل الحلقات كما أنّها ثقافة سايرت الحضارة، ونظمها وكانت أداةً طبيعيّة في الزّيادة من إنتاجها الثّقافي في ميادين الأدب و العلم و الفلسفة في عصور الازدهار الفكري العربي.

[1] عبد الرزاق قسوم، البصائر،جمعية العلماء و المد الثقافي، العدد 706،26ماي-1جوان 2014.
[2] تركي رابح عمامرة، التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956)،ص43.

ب-إن التراث الفكري لهذه الثّقافة تراث خصب غني اتسعت آفاقه لثمار الثّقافات القديمة الأخرى التي احتك بها العرب في أيّام نهضتهم الفكريّة.

ج- لهذه الثّقافة آدابها و فنونها، و آثارها التي انطبعت بطابع خاص،وتأثّرت بظروفها و مزاجها، وترجمت عن أطوار حياتها وتاريخها، فالفكر العربي كما هو معروف تأثّر أشدّ التأثّر بالقرآن الكريم الذي كان الأساس لجميع من كان يعمل في حلقات التّعليم

د-أنّ الثّقافة العربيّة تمتاز عن غيرها من الثّقافات الأخرى بأنّها ثقافة محرّرة ،لأنّها كانت وسيلة لتحرير الشّعوب، التي نقلتها من الخرافات و الوثنيّات و العصبيّات،و المظالم و طريقا إلى إيقاظ الوعي في هذه الشّعوب، وتغذيّتها بمثل أخلاقيّة جديدة،وفلسفة في الحياة و الاجتماع متميّزة"[1].

إنّ الثقافة الجزائريّة هي ثقافة عربيّة في لغتها،إسلاميّة في جذورها، ضاربة بأصولها في أعماق التّاريخ،ومقوّم رئيس من مقوّمات شخصيتها وهويّتها، ولمّا كانت حملة جمعيّة العلماء تستهدف نشر العلم وأنواره، وبناء الفكر كان لزاما على علمائها أن يُعرّجوا على الثّقافة لما لها من وثيق صلة بالعلم،إذ العلاقة بينهما علاقةً تبادليّةً فالثّقافة تولّد العلمَ والعكس صحيح ،ولا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر لمن أراد أن تبلغ ثقافته مبلغا يصل بها إلى أعلى مستويات الحضارة .

إنّ الارتقاء بالثّقافة ارتقاء بالفكر إلى مستوى الحضارة،و الشعب الجزائري"لم يستطع أن ينتزع استقلاله بالمعرفة التي يتمتع بها النّخبة فيه، بل بالإدراك الذي وُجد على المستوى الشّعبي في وجه الاستعمار(...)،وأخيرا لم يحصل فشل عسكريّ في سيناء كما يقول احد علماء الاجتماع الفرنسيين،بل ظهر فشل ثقافي(...)، لم تكن القضيّةُ قضيّةَ إخفاق العلم العسكري بل إخفاق الثّقافة وحسب،هكذا هو الأمر في كل الأوقات الصعبة في التّاريخ، الثقافة هي التي تكون طوق النّجاة للمجتمع حتّى لا يتعرّض لخطر الغرق"[2]، فالإخفاق العسكري الذي حدث في سيناء هو ترجمة و انعكاس حتمي للإخفاق الثقافي، وهو نفس الأمر الذي يحدث في كثير من بلاد العالم،فمن لم يستطع التحرّر ثقافيّا ليس له أن يتحرّر عسكريا، وعلى هذا

[1] المرجع السابق،ص58،59.
[2] نفسه،ص55.

الأساس سار علماء الجمعيّة في درب الإصلاح في الجزائر غير خارجين فيه عن المكوّنات الأساسيّة للإصلاح.

1-2 اللغة كحامل للثقافة:

إنّ اللغة هي المكوّن الأوّل و الرئيس في الهويّة الثقافية، فهي ليست مجرّد مفردات و ألفاظ للتّواصل بين أفراد المجتمع ، ولكنّها وعاءٌ يحوي مكوّنات عقليّة ،ووجدانيّة بالإضافة إلى معتقدات وخصوصيّات هذا المجتمع،و عليه فالحفاظ عليها يعني ضمان بقائه و استمراريّته فهي مؤسّسة اجتماعيّة تختلف باختلاف الشّعوب، و تحمل وظيفةً أساسيّةً هي وظيفةُ الاتّصال ولئن كان هدفها الأساس التعبير عن الرّغبات ، و الأفكار و العواطف ضمن المجموعة البشريّة الواحدة ،إلّا أنّها في جوهرها رمز التعايش المشترك، وبها يتم تمتين أواسر الأخوّة و الوحدة و بها يدوّن تاريخ الأمّة، فيُحفظ من الضّياع، وتحفظ ذاكرتها و تسجل ذكرياتها، مما يضمن التقاء الماضي بالحاضر.

إن اللّغة من منظور أنثروبولوجي تمثّل وعاء الجماعة، بها تدرك ذاتها الجماعيّة التي تتطوّر من خلال أشكال التعبير إلى هويّة ثقافيّة متميّزة، وهي تقريبا فكرة مورغان في تعريفه للقبيلة من وجهة نظره،وإن تربطها أواصر الدم، فإنّها نظام سيّاسي لأهله له حدود ترابيّة و منطوقات و قيّادات[1]، فقد جاء عند منظمة الأمم المتّحدة أنّ اللّغات هي المقوّمات الجوهريّة لهويّة الأفراد و الجماعات و عنصر أساسي في تعايشهم السلمي، كما أنّها عامل استراتيجي للتقدّم نحو التنميّة المستدامة، فهي ليست من صنيع الفرد إنّما تعتبر خاصيّةً جماعيّةً، ولغة الأمّة و سعة انتشارها و تماسك بنائها في الحقيقة دليل قوّة ثقافتها و تماسك عناصرها و ضمان استمراريّتها و هيمنتها .

تعتبر اللّغة شخصيّة و ثقافة ووجود،باعتبارها مرآة الشعب، ومستودع تراثه وآدابه وسجل مطامحه و أحلامه، و أفكاره و عواطفه، و هي فوق هذا و ذاك رمز كيانه الرّوحي وعنوان وحدته و تقدّمه،وخزانة عاداته و تقاليده[2].

[1] ينظر، محمّد الطيبي،العرب الأصول و الهويّة،دار العرب،(دط)،2002،ص81.
[2] ينظر، جميل صليبا،تعريب التعليم بين القائلين به و المعارضين له،مجلّة العربي،ع182،يناير1974،ص120.

لمّا كان للّغة من عظيم شأن في توجيه الرأي العام و التأثير على فكر الشّعوب كانت مقوّما رئيسا من مقوّمات الثقافة، قال أحد القادة الفرنسيين"علّموا لغتنا و انشروها حتّى تحكم الجزائر،فإذا حكمت لغتنا الجزائر، فقد حكمناها حقيقة"[1].

إنّ فرضَ اللّغة يتبعه بالضّرورة فرضُ الثقافة، ويكون من نتاج ذلك حصولُ الهيمنة الفكريّة على الأمّة المسيطَر عليها ،ولنا في التّاريخ أسوة، فكثيرٌ ما يسبق الغزوُ الفكري الثقافي الغزوَ العسكري ،فيكون بمثابة تمهيد له يُهيء الأذهان للقابلية و الخضوع طوعا أو كرها لهذا المحتل ،و هو النسق المضمر الذي سعى الاحتلال الفرنسي إلى غرسه في لاوعي الجزائريين.

إنّ الاستعمار العسكري ما هو إلّا فرع من الأصل الرّامي إلى القضاء على هويّة الشعوب وثقافاتها، و هذا هو الهدف الأسمى الذي سعى الاستعمار الفرنسي إلى تحقيقه في الجزائر، لكن لسوء حضّه وجد في انتظاره مجتمعا يعشق لغته حتّى الثّمالة ، ويرفض لها بديلا و لا يرضى عنها حولا "إنّ العروبة في الجزائر هي دين ولغة وثقافة،والإسلام لا يعترف أصلا بأي فرق جنسي، فالمسلم فيه أخو المسلم كيفما كان، ومادام المسلمون قد اعتنقوا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا دينا واحدا سوّى بينهم، ومادامو قد تعلّموا اللّغة العربيّة التي هي لغة دينهم ولسان قرآنهم فحذقوها، وما داموا ينهلون معا من معين الثّقافة العربيّة كما كان أجدادهم الأوّلون فقد توحّدوا(...)،فالإسلام وحّدهم، و العروبة ربطت بينهم ، و الوطن الجزائري قد شملهم جميعا"[2].

لعبت الجمعيّة دورا رياديّا في إعادة الشعب الجزائري إلى بيضة الإسلام الصّافي المعين الذي شابته الكثير من الشّوائب، على فترات من الدّهر كان فيها هذا الشعب جاهلا بتعاليم دينه وقواعد لغته و مقوّمات هويّته ، ولأن اللّغة هي المقوّم الأول و الأساس للمحافظة على هذه الهويّة ،عمد العلماء إلى تعليمها وألحّوا على ضرورة المحافظة عليها، إذ تمثّل أحد أعمدة الثّالوث المقدّس عندهم "وجاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عبوس من الدّهر وتنكّر من الأقوياء فنهجت من روح العروبة في تلك الأنساب، فإذا هي صريحة ، وسكبت من

[1]تركي رابح عمامرة ، التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956)،ص51.
[2]عبد الرحمن شيبان ، حقائق و أباطيل،ص283،284.

سر البيان العربي من تلك الألسنة فإذا هي نصيحة،وأجالت الأقلام في كشف تلك الكنوز فإذا هي ناصحة بيضاء، لم يزدها تقادم الزمن إلّا جدّةً (...)وجمعيّة العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أنّ الدماء البربريّة التي مازجت الدمَ العربيَّ أصبحت عربيّةً بحكم الإسلام وبحكم العمومة والخؤولة الممتدتين في سلسلة من الزّمن ذرعها ثلاثةَ عشر قرنا مزاج فطري (...) أحكمت القدرة تداخل أجزائه، والتحامٌ نسبيٌ وصل التّاريخ أطرافه مرّتين"[1].

يمكننا القول أنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين قد نجحت أيّما نجاح في إلفات النظر إلى شيء من كيان العرب قاطبة، هو عندهم من الأهميّة بمكان، أقصد اللّسان العربي المبين الذي كان فينا و بيننا ،لكننا نسينا فضله في لحظة غفلة منّا ،فكان الفضل كلّ الفضل لهؤلاء العلماء الأجلّاء في إعادة تشييد هذا الصرح بالغ الأهميّة في كياننا "ونجحت الجمعيّة أيّها الإخوان في إلفات النظر إلى شيء لم يكن بيننا منسيّا وإن كان عفوا، وهو هذا اللسان العربي الشريف، الذي هو قطعة من كياننا التّاريخي ، و شرط أساسي لوجودنا القومي وشهادة قاطعة بصحّة نسبنا الدّيني و الجنسي"[2]

إن لغة العرب هي جزء من وجودهم،و ميزة من مميّزاتهم، و مرآة لعصورهم الطّافحة بالمجد و العلم،و البطولة و السّيادة، وإذا حافظ الزّنجي على رطانته و لم يبغ عنها بديلا وحافظ الصيني على زمزمته و لم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحق،لأنّ لغته تجمع من خصائص البيان،مما لا يوجد جزء منه في لغة الزنج ، أو لغة الصّين، و الأمّة الجزائريّة من أوفى الشّعوب العربيّة لهذه اللّغة و أكثرهم برّا بها و تمجّدا و اعتزازا، جاهدت هذه الأمّة في سبيل لغتها جهادا متواصلا ، كانت من نتائج النصر فيه تلك النهضةُ العلميّةُ التي نهضت إبان جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين[3] "إنّ لغةَ الأمّة هي ترجمان أفكارها وخزانة آدابها والأمّة الجزائريّة ترى في لغتها العربيّة زيّادةً على ذلكم القدر المشترك أنّها حافظة دينها ومصحّحة عقائدها، ومدوّمة أحكامها ، وأنّها صلة بينها و بين ربّها ، تدعوه بها و تبوء بها فيما تعترف و تؤدّي بها حقوقه ، فهي لذلك تشدّ عليها يد الصنانة، وما تودّ أن لها بها

[1] أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج3،ص57.
[2] نفسه، ص 285،286.
[3] نفسه،ص282.

لغات الدنيا وإن زخرت بالآداب وفاضت بالمعارف ، وسهلت سبيل الحياة،وكشفت عن مكنونات العلم،فإن أخذت بشيء من تلك اللّغات فذلك وسيلة إلى الكمال في أسباب الحياة الدّنيا"[1].

تقتضي العروبة الافتخار بالانتماء ، و الدّعوة إلى الوحدة القوميّة، فالأمّة العربيّة يمتدّ وجودها من المحيط إلى الخليج، وقد صدق محمّد العيد آل الخليفة حين قال:

"نبني العروبة من جديد قلعة من حولها قصف المدافع يرعد
فلتحيا وحدتنا بها في منعة ومن المحيط إلى الخليج يمدد
ولتحي مصر مع الجزائر في ر ضى ، ومحبة وصداقة تتأكد
وليحي شعبانا كشعب واحد وكلاهما متقرب متودّد
و ليحيى في ظل العروبة ودّنا ملء القلوب و عهدنا المتأبّد"[2]

منحت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التعليم العربي بعدا محوريّا في مشروعها الإصلاحي الثّقافي ، فتعلّم العربيّة هو صلة بين أهل الأمّة و أسلافهم ، بفضلها يتمّ الاطلاع على التّاريخ المشرق للثّقافة الإسلاميّة ، وإنجازات المسلمين ، ضف إلى ذلك فهي لغة القرآن الكريم و السنّة الشّريفة الذين يمثّلان منبع الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ، فتعلّمها هو ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للمواطن الجزائري المسلم، يقول الدكتور عمر بن قينة:"تحتلّ اللغة كأداة تعبير و تفكير الدرجة الثّانيّة في تصوّري بعد الدّين كمنهج حياة روحيّة و اجتماعيّة فمثلما أنّ الدّين وسيلة توحيد و جمع بمستوى عال على المستوى الرّوحي و الوجداني ،فكذلك اللّغة أعني هنا خصوصا لغة التفكير بالضرورة التي تتجاوز اللّغة الوظيفيّة الحياديّة، أي اللّغة التي يتشبّع بها صاحبها منذ نشأته، و هي غير اللّغة التي نكتسبها وسيلةً معرفيّةً خالصةً،وأداة وظيفيّة باردة"[3]

لعبت هذه اللّغة طوال قرون من الزّمن دورا كبيرا في تماسك المجتمع الجزائري فهي التي تربط الجزائريين بعضهم ببعض ، كما تربطهم بالمجتمع العربي على مستوى الأمّة العربيّة و بالتّالي تحدّد انتماءهم المصيري إلى ثقافة اللّغة العربيّة وحضارتها، "اللغة العربيّة

[1] ينظر، المرجع السابق، ص281.
[2] مكتب الدراسات،ديوان مجمد العيد آل خليفة، د ط،دار الهدى،عين ميلة الجزائر،2010،ص210.
[3] عمر بن قينة المشكلة الثقافية في الجزائر التفاعلات و النتائج،ص12.

هي لغة الإسلام الرّسميّة ، ومن ثمّ فهي لغة المسلمين الدّينيّة الرسميّة ، ولهذه اللغة على الأمّة الجزائريّة حقّان أكيدان ، كلٌّ منهما يقتضي وجوب تعلّمها ،فكيف إذا اجتمعتا ، حق من حيث أنّها لغة دين الأمّة بحكم أنّ الأمّة عربيّة الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسيّة ودين معا"[1]فالمحافظة على اللّغة العربيّة إذن يتجاوز الجانب الدّيني فيها، بل القضيّة قضيّة محافظة على القوميّة ، والهويّة الثقافيّة و الشّخصيّة الوطنيّة من الاندثار،و التّشويه، لذا محاولة النيل منها من طرف المحتل ، كان القصد من ورائه النيل من الشخصيّة الثّقافية للجزائريين "فهي الرّابط الذي يربط ماضي الجزائر المجيد ،وحاضرها الأغرّ، و مستقبلها السّعيد، وهي لغة الدّين و الجنسيّة و القوميّة،و اللّغة الوطنيّة المغروسة"[2]،ولمّا كانت الجمعيّة شوكةً في لهاة الاستعمار، تردّ عليه كل مشروع تغريب ، كان من أهدافها الرّئيسة إحياء اللّغة العربيّة و الثّقافة العربيّة ، و العمل على نشرها و تعميمها، باعتبار اللّغة جزء من كيان الجزائريين،"إنّ هذه الأمّة تعتقد و تموت على اعتقادها على أنّ لغتها جزء من كيانها السّياسي و الدّيني، و شرط في بقائها وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدّين و السّياسة، فلم يختلف لهما في رأي، ولم يفترق لهما قصد(...)، لقد أدرك قادة الاحتلال أنّ الأمّةَ التي تفقد لغتها تفقد معها ثقافتها ، و شخصيّتها بل وجودها"[3]، و لله درّ القائل:

"يسألني عن نسبي كل وافد عليّ و على شعري و عن كنه مطلبي
فقلت لهم أرض العروبة موطني و ديني هو الإسلام و القدوة النبي"[4]

2-1-1اللّغة العربيّة بين الهامش و المركز:

ما من شك أنّ اللّغة العربيّة كانت و لا تزال لغة حيّةً باستطاعتها الرقي إلى العالميّة فهي تعبّر عن فكر مئات الملايين من المسلمين عبر العالم ، وعليه تستطيع أن تعبّر عن أيّة حضارة مهما كانت ، وبأيّة لغة كُتبت، و خير دليل على ذلك ، نقل و تطوير التّراث اليوناني إلى أوربا في القرون الوسطى، و في هذا يقول مالك بن نبي"أليس شيئا معبّرا أن تكون اللّغات الأوربية وعلى الأخص اللّغة الفرنسيّة قد أخذت على اللغة العربيّة التقنيةَ التي كانت الأساسَ اللسانيَّ في

[1]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج3،ص48. .
[2]تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائرية(1931،1956م)،ص55.
[3] نفسه،ص327.
[4]عمر بن قينة،الخطاب القومي في الثّقافة الجزائريّة ، منشورات إتحاد الكتّاب العرب،(دط)،1996،ص57.

انطلاقة العلوم الحديثة؟ أليس شيئا معبّرا أن تكون كلمة (chiffres)الأصل صفر معناه العدد ذاتها من أصل عربي في كل اللّغات الأوربيّة؟مما لا شكّ فيه أنّه يتحتّم على العرب أن يقوموا بالقفزة ذاتها، التي حدثت منذ ثلاثة عشر قرنا لكي يترجموا جديد الفكر العالمي ، وحتّى الفكر السيّاسي ،هذه دعوة لا أعتقد أنه يمكن تجاهلها في رأي يمنح مسألة التّعريب بعدا تاريخيا"[1] و إنّه لمن الغلط الفاضح أن يُقال أن اللّغةَ العربية عاجزةٌ عن استيعاب العلوم الحديثة ،ولا تصلح إلّا للتعبير عن خلجات النفس و الحال المعنويّة كما أنّها ليست لغة مدنيّة و عمران وهي أكاذيب روّجها أعداؤها بغية شلّها، وصرف أبنائها عنها،و بالتّالي سلخهم عن هويّتهم"لو لم تكن اللّغة العربيّة لغة مدنيّة وعمران، ولو لم تكن لغة متّسعة الآفاق،غنيّة بالمفردات والتّراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان و آداب فارس و الهند،و لأزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعلّم تلك اللّغات ، و لو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسيّة، وأدمغة يونانيّة ، ولو وقع ذلك لتغيّر مجرى التّاريخ الإسلامي برمّته"[2]

لا يخفى على أحد أنّ اللّغة العربيّة قد وسعت كل تلك العلوم و الآداب في مدّة زمنيّة لا تساوي في حساب الزّمن شيء، و هي مدّة خمسين حولا فقط ، فوعتها بكل تفاصيلها، حتّى الدّقيقة منها،و الأكثر من ذلك طوّرتها ، واستعملتها، وكيّفتها حتّى لكأنّها منها، "قامت اللّغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعيّة و آدابها ، فوعت الفلسفة بجميع علومها ، و الرياضيات بجميع أصنافها ، والطب و الهندسة، والآداب و الاجتماع ، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة الفعلية في الأمم الغابرة ،وهذا هو التّراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأوّل، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، إمّا أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإمّا أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوّة لغيرك وقد تفطّن أسلافنا لهذه الدّقيقة ، فنقلوا العلم و لم ينتقلوا إليه"[3].

وازنت اللّغة العربية بين انفعال الفكر الفارسي ، وبين هدوء ورصانة البربري وأسهمت بحظ وافر في الجمع بين المتناقضات، وسهّلت أسباب العلم و المدنيّة، ومهّدت الطرائق المؤديّة إليه

[1] مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة،(من أجل التغيير)،ص55.
[2] أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1،ص376.
[3] نفسه،ص376.

حتّى أخذت كل أمّة منها بنصيب[1]، فلم يقتصر فضل اللّغة العربيّة يومئذ على أبنائها ،بل تعدّاه إلى الأمم الأخرى.

كانت العربيّة في وقت لسان معارف العرب ، وترجمان حضارتهم، و ناقلة فلسفات الشرق و فنونه إلى الغرب ، وكانت في وقت ما هادية العقل العربي الضال إلى موارد الحكمة في الشرق،وكانت في جميع الأوقات مستودع آداب الشرق و ملتقى تيّاراته الفكريّة ، وما زالت صالحة لذلك ، لولا غبار من الإهمال علاها ، وهي قبل و بعد كل شيء حاضنة الإسلام ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار، دخلت به إلى الهند و الصين ، وقطعت به البحار و الفلوات وفيها من عناصر البقاء ما يرشّحها للسيطرة و الخلود و التّمكّن[2]"و اللّغة العربية من اللّغات الرّاقيّة فقد بلغت من الثّراء في المفردات،وصيغ التعبير، ما أثار إعجاب كبار علماء اللّغات والمستشرقين الذين عنوا بدراستها فقد أكّد نولدكه عن إعجابه بوفرة مفرداتها فقال:"إنّه لا بد من أن يزداد تعجّب المرء من وفرة مفردات العربيّة عندما يعرف أنّ علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا ،و بلدهم ذو شكل واحد ، و لكنهم داخل هذه الدّائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكليّة خاصّة"[3]

2-2الدين كمكون أنثروبولوجي:

يصف علماء الاجتماع الإنسان بأنّه الكائن الثّقافي المتديّن بالطّبع،وذلك لتفرّده بالقراءة و الكتابة و التفكير، فهو ميّال جبلةً إلى اعتناق ديّانة مهما كانت ،لذلك يُعتبر الدين زاويةً من الزّوايا التي وجب الاعتماد عليها لفهم نفسيّة الإنسان كائنا من كان ، وعليه تقع مسؤوليّة رفع مستوى الأخلاق، و تقريب النّاس من بعضهم ،وزيّادة قابليّتهم و ثقتهم بأنفسهم، و لا يتم ذلك إلّا بإزالة الحواجز التي تقع مانعا أمامهم، في طليعتها الجهل بكل أنواعه و مجالاته والاستبداد و محاولة إيقافه بالموعظة الحسنة و الطّرائق السليمة.

إن حقل الدّين يرتبط في العقل البشري بالمقدّس الذي لا يجوز المساس به أو خرق سيّاجات محرّماته، فالإيمان بالله هو الذي يجعل للحياة قيمة، و هو الذي يمكننا من أن نستخرج

---

[1] المرجع السابق،ص378.

[2]ينظر،أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج3،ص282.

3سمدون حمّادي و آخرون،اللغة العربيّة و الوعي القومي ،مركز دراسات الوحدة العربية ، وعلاقة اللغة و الهويّة،أبريل 1984م،ص291.

من الحياة كل ما فيها من لذّة و سعادة ،و هو الذي يجعلنا نتحمّل كل ما في الحياة من محن و نتقبّلها بكثير من الشّجاعة و الرّضا ، وهو الذي يهيء لنا ما هو ضروري لحياة وادعة بتعبير ويليام جايمس، فلا شك أن النزعة الدّينية غالبا ما تسجّل حضورها في بناء المجتمعات ،إذ يتدخّل الدّين ضرورة في هذا البناء، كما يعين في اكتشاف المقوّمات الشخصيّة للفرد"إن الفكرة الدّينيّة تتدخّل إمّا بطريقة مباشرة، أو بواسطة بديلاتها اللاّ دينيّة نفسها في التّركيبة المتآلفة لحضارة ما ، وفي تشكيل إرادتها"[1]

إنّ للدين موقعا مكينا في النفس البشريّة ، ومكانة محوريّةً في نظامها الثّقافي، ونفوذا ملحوظا يتخلل البنية المجتمعيّة في كليّتها وتعدد مجالاتها، و قد أّكدت أنثروبولوجيا الأديان أن المعتقد الدّيني هو من أكثر مكوّنات الثّقافة تمظهرا في حياة الكائن الإنساني ، واقتدارا على فعل الهيمنة و التّأثير ، كما أثبتت التجربة التّاريخيّة أن مختلف الأنساق والنظم الاجتماعيّة التي استهدفت علمنة الحياة بنفي الدين ، واستبعاده كليّا من كيانها انتهت إلى الفشل و الإفلاس"إنّ نفسيّة الفرد في المجتمعات التّاريخيّة على الأقل مُفعمةٌ بالنّزعة الدينيّة، تلك التي تُعد جزءا من طبيعته ، وهو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان بأنّه حيوان ديني،وهو بذلك يحدّد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع،و كل فرد يبني شخصيّته الخاصّة على هذا الأساس"[2]،كما أن الوحدة المذهبيّة و الدّينيّة بين الشعوب تلعب دورا غاية في الأهميّة في تماسكها الاجتماعي ، فالدّين يتّصل بالينابيع الرّوحيّة للفرد و بذلك يكون عاملا من عوامل التّماسك بين أعضاء الجماعة[3]،"و الدين الإسلامي في الجزائر يُعتبر مقوّما من مقوّمات الشّخصيّة الجزائريّة، وذلك رغم اختلاف الباحثين في كون الدّين من مقومات الشّخصيّة القوميّة للجماعة أم لا ، وهذا يعود إلى أنّ الجزائريين لا يفصلون بين مفهوم العروبة كقوميّة وبين مفهوم الإسلام كدين ووحي جاء لحماية النّاس أجمعين إلى سواء السبيل، فالعروبة عندهم تعني الإسلام، كما أنّ الإسلام يعني العروبة"[4].

مكانة الدين في بناء الحضارة مهمّة على اختلاف الدّيانات ، ولا يختلف في هذا المجتمع الإسلامي عن غيره ، بل يزيد عليهم قليلا لما للإسلام من مكانة ساميّة في قلوب أبنائه فهو

[1] مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى،ص61.
[2] مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع،ص64.
[3] ينظر تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشّخصيّة الجزائريّة(1931،1956م)،ص34.
[4] نفسه،ص56.

بالنّسبة لهم دين و عقيدة و ثقافة و منهج حياة، وعليه"لا يختلف تطوّر الحضارة المسيحيّة عن تطوّر الحضارة الإسلامية، إذ هما ينطلقان من الفكرة الدينيّة، التي تطبع بطابعها الخاص وتوجّه نحو غايات ساميّة ،فالحضارة لا تنبعث في حضارة من الحضارات عن أصلها الدّيني الذي بعثها، و لعلّه ليس من الغلو في شيء أن نجد الدين في البوذية بذور الحضارة البوذيّة و في البرهميّة نواة الحضارة البرهميّة"[1].

تستمدّ الهوية الثقافيّة العربيّة مقوّماتها من الدّين الإسلامي الذي يدعوا إلى الحق ، ويتّخذ من الإنسان موضوعا له، و بالتالي فهي تتكىء على مصادره الأساسيّة متمثّلةً في القرآن الكريم و السنّة النبويّة الشريفة وإجماع العلماء و القياس، بالإضافة إلى ما صحّ من التاريخ و الحضارة الإسلاميّة ، فالدّين هو المكوّن الأوّل للهويّة الثّقافيّة الإسلاميّة، ولا يمكننا تصوّرَ وجود للهوّية الثّقافيّة العربيّة ،إلّا بوجود الدّين الإسلامي ، باعتباره سمة مميزة لها و أداة المسلمين لمقاومة الاغتراب الثقافي ، وبالتّالي فأي هجوم على الإسلام هو محاولة استيلاب للهويّة الثّقافيّة و الحضاريّة للأمّة العربيّة.

يدعو كل من الدّين و الثّقافة إلى تهذيب الأخلاق ، و إلى إعادة بناء الفرد و المجتمع الحضاري الصّحيح ، فلا يمكنهما الانفصال عن بعضهما، وإذا انحرف الدّين عن مساره وانقلب على أصوله ، فلا يكون إلّا مصدرا للانحطاط،وكذلك الثّقافة تفقد أصالتها و معناها ذلك أنّ"الدين عنصر أساسي من عوامل الهويّة الثّقافيّة بالتأكيد ، وهو عامل من العوامل الحاسمة في بناء الهويّة خصوصا، لأنّه يتّصل بالقيم الرّوحيّة،التي لا يمكن للإنسان أن تكتمل إنسانيّته بدونها"[2].

لما كان للدين مفعول السحر على العقول، كان دائما و أبدا حجر الزّاوية الذي تتكىء عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بهدف تمرير مشاريعها التربويّة و الثّقافية خاصّة، ولمّا كانت العودة إلى الأصل مدعاةً للبناء المتين على الأسس الصحيحة،عمد العلماء إلى"تطهير الدين الإسلامي ممّا لحق به من خرافات و بدع في عصور التّخلّف التي اعترت المسلمين لعدّة

[1] المرجع السابق،ص50.
[2] جابر عصفور،الهويّة الثّقافيّة ، موقع الكتاب ،13افريل 2009،العدد44688.

قرون ، ومحاولة إيقاد شعلته الوهّاجة في القلوب ، تلك الشعلةُ التي بذل الاحتلال كل غال و نفيس حتّى تنهار مقاومة الجزائريين الصلبة ضدّه"[1].

إنّ العودة إلى أصول الدين الصحيحة فرضته التشويهات و التحريفات التي لحقته من قبل شيوخ الطّرقيّة المحسوبين على الإسلام، بينما كانوا في الحقيقة بمثابة معاولَ هدم استعملها الاحتلال للقضاء على هذا الدّين في الجزائر، ومن بوّابته القضاء على الهويّة الثقافيّة للجزائريين من خلال بثّ البدع و الخرافات فيه، ممّا يُحدث اختلالا في أهمّ مقوّماته ، و في هذا يقول أحد القادة الفرنسيين:"إنّ كسبَ شيخ طريقة أنفع لنا من تجهيز جيش كامل ،وقد يكونون ملايين ،و لو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال و الجيوش ،لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ على أن الخضوع لقوّتنا لا تؤمن عواقبه لأنّه ليس من القلب، أمّا كلمة الشيخ فإنّها تجلب لنا القلوب و الأبدان و الأموال أيضا"[2].

كانت الحملة الفرنسيّة على الجزائر صليبيّةً بامتياز لأنّ الدّين هو عماد المجتمع ، ولا تقوم له قائمة إلّا به، لذا سعت إلى القضاء عليه في قلوب الجزائريين قبل حياتهم العمليّة في إطار حملتها الثقافية التي شنّتها على ثوابتهم ، ولقد فاح نتن هذه الحملة و النيّة المبيّتة من فم الوزير الفرنسي بيدرو عندما صرّح يوما"إنّني لن أترك الهلال ينتصر على الصّليب ، قاتلها الله كلمة يدوّي فيها صوت القرون الوسطى فيكشف عرضا كنه القضيّة، لذا يجب أوّلا أن نوضّح هذه الكلمة في معناها الصّحيح يعني أن توضَّح في فكر صاحبها مجرّدةً من اعتبارات الدّبلوماسيّة (...)،وعليه فكلمة بيدرو إذا ما راجعناها في قاموس هذا الوزير فإنّها تعني شيئا آخر، كأنّه أراد أن يقول بالتلميح يجب أن نوقف الإسلام عند حدّه"[3] فماذا ينقم الجاهلون من الجمعيّة حين زجّت بالدين في مشروعها الإصلاحي الثقافي، فموقفها لم يكن سوى ردّة فعل على حملة استعماريّة صليبيّة،وبالتّالي يمكن اعتبارها كنوع من المقاومة الثّقافيّة التي تدخل في عموم الحركة الدّينيّة التي قادها علماؤنا ،والتي كانت ثورةً ثقافيّةً حقيقيّة بمفهوم اليوم، قلبت أوضاع الشّعب الجزائري رأسا على عقب"لقد أدخلت تلك الثّورة الثقافيّة على المجتمع الجزائري تحوّلات في مفاهيمه، إذ أيقضت فيه روح الأخوّة، و التّضامن، وبعثت فيه الأمل الذي هو

[1]تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصية الجزائرية،ص198.
[2]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص143.
[3]مالك بن نبي،مشكلات الحضارة، في مهبّ المعركة،ص56،57.

مفتاح الوصول إلى الغاية المنشودة وأعدّت بذلك الوسائل الملائمة، التي رسمت الطّريق إلى شاطىء الخلاص و برّ الأمان"[1]

نالت الجمعية حظّها من الثّناء من قبل رعيل من المفكّرين و نخص بالذكر المفكّر العالمي مالك بن نبي،في مقالة له تحت عنوان الأفكار الحيّة و الأفكار الميّتة افتتحها بالقول"أهدي هذه السطور إلى إخواني أعضاء جمعيّة العلماء، لأنّهم أصحاب الفضل و المزية في تكوين جانب كبير من العقل الجزائري ، وفي تحضير روّاد الثّقافة في البلاد"[2].

إن الإصلاح الثّقافي يقتضي أن يتعالق لإنجاحه كل من الإصلاح الاجتماعي و الدّيني فالإسلام دين و اجتماع، ولا يتوانى الإمام عبد الحميد بن باديس في تفسيره للقرآن الكريم و الحديث النبوي الشّريف في استنباط مظاهر ثقافيّة واجتماعيّة شتّى، فالذي يتحدّث ليس عالم الدّين فحسب،بل هو الذّاب عن الدين، والثّقافة والهويّة، وهو كذلك عالم الاجتماع، والنّاقد الثّقافي يقول الإمام في تفسيره لقوله تعالى"حتّى إذا أتوا على واد النمل ،قالت نملة يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان و جنوده وهم لا يشعرون"[3].

"عاطفة الجنسيّة غريزة طبيعيّة، فهذه النملة لم تهتمّ بنفسها ، فتنجوا بمفردها، ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها،إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم و لا نجاة لها إذا لم تنجح معهم، فأنذرتهم في أشدّ ساعات الخطر أبلغ إنذار(...)، فهذا يعلّمنا أن لا حياة للشخص إلّا بحياة قومه، ولا نجاة له إلّا بنجاتهم (...)ومظهر هذا الشّعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها"[4]

يستنبط الرجل من الآية الكريمة ضرورة تكاتف المجتمع ،واجتماع أفراده على كلمة سواء لأنّ مصيرهم مرتبط ببعضهم، وقيمة الفرد يكتسبها من الجماعة فلا قيمة له بدونهم وكأنّه أراد أن يقول تلميحا أنّه لا سبيل للحريّة و الاستقلال إلّا بالوحدة و التّكاتف، كما يستنبط منها خصال القائد و الزّعيم الذي يقود المجتمع وذلك تحت عنوان واجب القائد و الزّعيم:"هذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوّة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت

[1]أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج2،ص8.
[2]مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة، في مهب المعركة،ص127
[3]سورة النمل ، الآية 18 .
[4] عمار طالبي،آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس،ج1،ص28.

بالإنذار، فلا يصلح لقيّادة الأمّة و زعامتها إلّا من كان عنده من بعد النظر وصدق الحدس وصائب الفراسة ،وقوّة الإدراك للأمور قبل وقوعها،ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحسّ و يتوقّع"[1]وهي لعمري شروط و مواصفات ضروريّة وجب توفّرها في كل قائد و زعيم، و كأنّه أراد أن يُكوّن بتفسيره هذا جيلا يقود الأمّة الجزائريّة إلى شاطىء الخلاص، جيلٌ تقع على عاتقه مهمّة تحضير الشعب الجزائري و قيادته أيضا للثّورة المضفّرة و هو ما كان بالفعل، ليواصل الحديث تحت عنوان عظة بالغة"هذه النملة وفت لقومها وأدّت نحوهم واجبها،فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه، هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه، ولمن يرى الخطر داهما فيمكث و يتعامى، و لمن يقود الخطر إليهم ،ويصبّه بيده عليهم، آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النّملة"[2].

صدقا لقد كان العلماء من هذه الأمّة بمنزلة هذه النّملة من قومها، وهي من جهة أخرى دعوة صريحة إلى وجوب الاقتداء بها، وتأدية الواجب نحو الأمّة و الوطن، نفس الطريقة التي اعتمدها رحمه الله في شرحه للقرآن الكريم واصل عليها في شرح الحديث النبوي فكان دأبه أن يستفيد في شروحه من طرح قضايا تهتم بالإصلاح الثّقافي ،إذ يركّز دائما على قيمة الجماعة و يعتبرها أسبق و أوكد من قيمة الفرد، وهذا الذي يظهر في شرحه لحديثه صلى الله عليه و سلّم "مثل المؤمنين في توادّهم و تراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمّى و السهر"[3] و لفظه سائر الجسد معلّق "ينبه على معنى عظيم في ارتباط كل فرد بأمّته ارتباط الجزء بكلّه، وهذا الارتباط يقتضي أمورا كثيرة، منها ما جاء في الحديث الشريف ومنها ما يُؤخذ مما يقتضيه المقام،ومن هذا أنّ الفرد منظورٌ إليه في النظر الاجتماعي العام بما يُنظر إلى أمّته سواء أساورها في المستوى الذي هو فيه من رُقي و انحطاط، أم كان أسمى منها أو أدنى، فقيمته في النظر الاجتماعي العام من قيمتها"[4].

الاعتراف بأنّ الاتّحاد واجب أكيد محتّمٌ على الجميع، ففيه حياةُ الأمّة و في تركه هلاكُها والمسلم للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا ، و قيمة الفرد من قيمة قومه ،فإذا كانت الأمّة تملك

[1] المرجع السابق،ج1،ص28
[2] نفسه،ج1،ص29.
[3] نفسه،ج1ص30.
[4] نفسه،ج2،ص229.

أسباب المدنيّة و الرّقي يكون الفرد أقرب إلى التطوّر و العكس صحيح إذ القضيّة قضيّة تأثير و تأثّر، و لسان حاله :على الشباب أن يعمل لرفع المستوى الثقافي في البلاد في إطار جماعي منظّم،حتّى إذا تمّ ذلك انعكس حتما على الأفراد ،"وقد تأكّد أنّه لا يمكن لأية ثقافة من الثّقافات أن تنموا إلّا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان،فالدّين هو الذي يكسب الحياة الاجتماعيّة معناها ، ويمدّها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها و آمالها"[1].

إنّ الثّقافة لا تقوم لها قائمة إلّا إذا اقترنت مجبرة بدين من الأديان،والثقافة العربيّة كانت أعمق اتصالا بالفكر الإسلامي ، وأقربها على فهم معاني القرآن الكريم ، ومعطياته وبلاغته ولقد رابط الشعب الجزائري بحصن اللّغة العربيّة و الدين الإسلامي ردحا من الزمن وفي أحلك الظروف، حتى تحدّدت بموجبهما هويّته الثقافية التي لا تنازعه فيها أي قوّة في الأرض مهما بلغت درجة بطشها و طول يدها،"اللغة والدّين من هذه الزّاوية روح الثقافة التي هي وعاء حياة الأمّة ،فتغدو الثقافة بمضمونها الدّيني كوعاء، إذن هي من زاوية أخرى في موقع الوتد و القنطاس معا في الخيمة ، و الركائز الأخرى لواحقٌ لا غنى عنها في ارتفاع الخيمة كصورة التّاريخ و الجغرافيا و السيّاسة و الاقتصاد و الاجتماع بكل أبعاده و زواياه، فتلوح تبعا لهذا الهويّة الثقافيّة المتميّزة بين شعب و آخر، ومن هنا كانت الهويّة الثقافية للأمّة العربيّة و هي التي نهضت بشكل مميّز على الدّين و اللغة كقطبي تناغم، فإن أحالتنا اللغة إلى القوم فهؤلاء القوم لم يكن لهم شأن إلّا بالإسلام ،و هو الإطار نفسه الذي تحدّدت فيه لأوّل مرّة في التّاريخ هويّة الشعب الجزائري و استقرّت بعدما قاوم جميع المحتلّين ، ثمّ احتضن الإسلامَ و حمل رايته ،وقد نضجت هويّته بمضمونيها:العربيّة لغة جامعة بين سائر أفراده و الإسلام عقيدة توحيد و نظام ووحدة و تعاون ، فثبت الشعب متكاتفا في وجه كل الغُزاة ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا مستندا إلى هاتين الدّعامتين اللّغة العربيّة لسانا، و الدّين لإسلامي عقيدةً"[2].

[1] أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ص32.
[2] عمر بن قينة،المشكلة الثقافيّة في الجزائر التفاعلات و النتائج،ص12،13.

2-3التّاريخ و أثره في الحفاظ على الهويّة:

التّاريخ مدرسة الأمم و ذاكرتها، وهو المنبع الذي تستقي منه على الدّوام القيم و المثل و الدّروس والأخلاق، و حبّ الوطن و التّعلّق به، فلا يوجد حقل أو كتاب أخصب من التّاريخ بأناشيده الوطنيّة ،وأحداثه المؤثّرة، و دلالاته العميقة ، وأسراره الخفيّة يصلح كوسيلة تحفيز لمعشر الشباب، من أجل الذود عن قيمهم و آثارهم، و تراثهم و حبّ أوطانهم و التعلّق بها، وإحياء التراث التّاريخي هو إحياء للأمم خاصّة تلك التي طمست عن عمد أو جهل هويّاتها[1]"إنّ حفظ التّاريخ هو الشرط الأول ، و الأساس لحفظ الأمم نموّها، ورقيّ الشعوب و سموّها، وإنّه لا يمكن تصوّر وجود أمّة تشعر بذاتها و تعتزّ برجالها إلّا إذا كانت حافظة لتاريخها، وواعيّة بماضيها متذّكرة لأوليائها، ومبادئها مقيدة لوسائلها، مسلسلة لأنسابها حاشدة لأحسابها، خازنة لآدابها ما يقوم به إلّا علم التّاريخ الذي هو الفاصل بين الماضي والحاضر و الرابط بين الآنف و المستأنف"[2].

إن التّاريخ هو الحبل الوثيق الذي يربط الأجيال بعضها ببعض، و الذي يضمن استمرار الحياة الثّقافيّة، و السير في درب التطوّر و الحضارة، فبذكره نستحضر الوقائع المصاحبة له لنستلهم الدّروس و العبر، و التّاريخ الجزائري حقل ثري حافل بالأمجاد و البطولات ، تجلّى عبر العصور حقلا خاما ، و أرضا بكرا توحي إلى القارىء و الباحث الغوص فيه،و استنكاه أسراره ، فهو ليس مجرّد أشياء و أرقام و تواريخ، و صور، ولا عرض لبطولات، وأحداث و حكايات، بل هو قبل كل شيء ذاكرة الشّعوب، و مدرسة عليا للأخلاق، وله دور كبير في تكوين شخصيّة الإنسان،يتعلّم منه النّاشئة دروس الإيمان و الثقة بالنّفس، و الإرادة[3]"فإذا كانت اللّغة هي روح الأمّة، فإنّ التّاريخ هو ضميرها،لذلك فإنّ التّاريخ المشترك يعتبر إلى جانب اللّغة المشتركة من أهم عوامل الشخصيّة القوميّة للجماعة"[4]، فلا عبرة لمن لا ماضي له، وإن كان في الحاضر من أرقى الأمم "ولمّا كان التّاريخ العربي الإسلامي للجزائر يعتبر مقوّما من مقوّمات الشخصيّة الجزائريّة،فقد شنّ عليه الاحتلال حربا عنيفة، لا تضارعها إلّا تلك الحرب

[1]ينظر، خالد عيقون ، الذاكرة الحيّة و الذّكريات الأليمة(1954-1962)،ج1،الجزائر،2013م ،ص1،2
[2]شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب،المكتبة العصريّة،ط1،بيروت،2008م،ص4.
[3]ينظر ،خالد عيقون،الذاكرة الحيّة و الذكريات الأليمة،(1954-1962)،ج1،ص2.
[4]تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشّخصيّة الجزائريّة(1931،1956)،ص33.

التي شنّها على اللغة العربيّة (...)و بالإضافة إلى ذلك بذل علماء التّاريخ و الآثار الفرنسيّون محاولات مكشوفة من أجل تشويه تاريخ الجزائر في ظل الإسلام والعروبة، كما حاولوا إسدال ستار كثيف على وقائع هذا التّاريخ"[1]

أدرك الاحتلال أنّ التّاريخ هو السبيل الذي يخوّل للأمم أن تشعر بوجودها، و هو من أهم مقوّمات هويّتها و شخصيّتها، و السجل الثابت لماضي الأمّة ، وديوان مفاخرها، وهو آمالها و أمانيها، لمّا كان الأمر على هذا النحو حاول القضاء على هذا النّور الذي يلوح في الأفق"فقد حصروا جل اهتماماتهم، ودراساتهم بتاريخ الجزائر والآثار التّاريخيّة الموجودة بها،من خلال عهدين فقط من عهودها التّاريخيّة، وهما العهد الرّوماني قبل الإسلام، وعهد الاستعمار الفرنسي بعد الاحتلال (...)، وكان هدفهم من وراء ذلك هو الإيحاء إلى الجزائريين بأنّ بلادهم فرنسيّةٌ في حاضرها ومستقبلها،و رومانيّةٌ في ماضيها ولا شيء غير ذلك،و بالتّالي ليس هناك تاريخٌ قوميٌّ للجزائر، يُمكن أن يعتزّ به الجزائريّون ، ويقيمون على أساسه بنيتهم الاجتماعيّة وشخصيّتهم الوطنيّة"[2].

المسكوت عنه في هذه الحملة هو محاولة حصر تفكير الشعب الجزائري بعيدا عن الحضارة الإسلاميّة و هو نسق مضمر أراد المحتل تمريره من خلال التركيز على العهدين الروماني والفرنسي متجاهلا عن عمد عهد الفتح الإسلامي الذي يعتبر المرحلة الفارقة في تاريخ الجزائر بهدف طمس جانب كبير من جوانب الشخصيّة الجزائريّة.

التّاريخ هو الذي يميّز الجماعات البشريّة بعضها عن بعض، فكل الذين يشتركون في ماض يعتزّون و يفتخرون بمآثره ، يكونون أبناء أمّة واحدة، وهذا معناه أنّنا بحاجة إلى نهضة فكريّة،و ثقافيّة لمحاربة الأساليب التي تعمل على محو ذاكرة التّاريخ، فالذّاكرة شرط لا غنى عنه في الحياة الإنسانيّة الفاعلة ، و من ثمّ فهي جزء جوهري من الفكر الإنساني .

[1] المرجع السابق،ص58.
[2] نفسه،ص58.

كان من أهداف العربي التبسي و من خلفه جمعية العلماء"إحياء الحس التاريخي في نفوس الجزائريين فينهضون لاسترجاع مكانتهم ،و انتزاع حقّهم و انتشال وطنهم(...)فهو يتحدّث عن أهميّة التاريخ بالنسبة لأي شعب ،يقول و كأنّه يعني الشعب الجزائري :متى درسه-التاريخ- أبناء أمّة و أحاط خبرا بأدواره شبابها عرفوا وجودهم ، فلم تبتلع قوميّاتهم القوميّات الحيّة النهمة المجاورة لهم و أدركوا ما لماضيهم من المجد و ما لأسلافهم من الشرف فلم يقبلوا تنقيص المنقصين و عتب المذلين و قدح المغرضين و شعروا بعزّ السيادة و لذّة الحياة (...)لا يمكن لأحد أن يتكهّن باليوم الذي تبعث فيه الأمّة الجزائريّة من مرقدها، فإن المستقبل لله وحده و لكن لا نيأس من هذا اليوم الميمون"[1]

فلا بأس إذن من الرجوع قليلا إلى الوراء حتّى نستلهم المآثر و العبر ،فالأمم التي تنسى مآثر أسلافها تكون عرضة للتّفكّك والتقهقر، "فمن السنن الكونيّة المقرّرة في سقوط الأمم و عدم امتداد العزّة و الرقي فيها أن ينسى آخرها مآثر أوّلها ، فينقطع التيّار الدّافع فيتعطّل التقدّم "[2]

3- الخطابات النقدية الثقافيّة:

تميّزت جل خطابات علماء الجمعيّة بالطّابع الثّقافي ،نظرا لحاجة المجتمع الجزائري الملحّة لهذا النّوع من الخطابات حتّى يتسنّى لهم مجابهة حملة التشويه التي شنّتها حكومة الاحتلال الفرنسي على ثوابته، بالإضافة إلى أنّ العلماء هم مثقّفون في الأصل لم ينحصر عملهم في الجانب الدّيني فحسب ، بل تنوّعت جهودهم في سبيل انتشال المجتمع الجزائري من ربقة الجهل و الجمود.

3-1خطاب الهويّة:

من القيم الراقية التي ينطلق منها الإنسان وإليها يسعى ،و يحاول بها إثبات الذّات والافتخار بالانتماء ،و التواصل مع المجتمع ، و التّفاني في خدمة الأمّة قيمة الهوية ،فقد قرر علماء النفس أن من الحاجيات الأساسية للفرد:حاجته إلى الانتماء والتقدير الاجتماعي والمشاركة الجماعية إذ "تأتي الهويّة لتكون مطلبا ثقافيّا كإحدى علامات ما بعد الحداثة

[1] محمّد الهادي الحسني،الشيخ مبارك الميلي مصلح و رائد للمدرسة التاريخيّة الجزائريّة الحديثة،جريدة الشعب،بتاريخ 10فيفري1983م.

[2] أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج4،ص309.

و الهويّة كمصطلح حديث يحيل على السّمات و الخصائص الثقافيّة المميّزة للنّاس في العنصر و العرق و القوميّة، و الجنوسة و المعتقد"[1]، فمن المعلوم سلفا أنّ الجماعة التي تشعر بالغربة في بيئتها والتي تعجز عن تحديد هويّتها الاجتماعيّة و الثّقافيّة، تنتفي القدرة لديها على معرفة نفسها وتحديد مكانها ودورها وشرعيّة وجودها تصبح عاجزةً عن إنجاز أي مشروع مهما كان نوعه أو حجمه.

ورد في لسان العرب عند ابن منظور"الهويّة بالمعنى الفلسفي، تعني حقيقة الشيء من حيث تميُّزُه عن غيره وتسمّى أيضا وحدة الذّات"[2]، و هي بهذا تتساوى مع مصطلح (هو هو) الفلسفي الذي يشير إلى ثبات الشيء بالرّغم ممّا يطرأ عليه من تغييرات ،فالجوهر هو هو و إن تغيّرت أعراضه[3]، و ورد في المعجم الوسيط أنّ الهويّة في الفلسفة حقيقة الشيء أو الشخص التي تميّزه عن غيره،أو هي بطاقة تثبت بها اسم الشخص و جنسيّته و مولده وعمله و تسمّى البطاقة الشخصيّة أيضا، أمّا في اللّغة الانجليزيّة فقد قيل أنّها تعني تماثل المقوّمات أو الصّفات الأساسيّة في حالات مختلفة ،وظروف متباينة ، و بذلك يشير إلى الشكل التجمّعي، أو الكل المركّب لمجموعة من الصّفات التي تكوّن الحقيقة الموضوعيّة لشيء ما، و التي بواسطتها يُمكن معرفة هذا الشيء، وغيره على وجه التّحديد، وبناءا على ذلك استُخدم اللّفظ ليدل على الإحساس العميق و المتواصل للإنسان نفسه ، وماضيه و حاضره ومستقبله ، و المستمد من مشاعره، ومعتقداته وأفكاره[4]، قال محمّد عمارة"هوية الشيء ثوابتُه التي لا تتجدّد و لا تتغيّر وتتجلّى و تفصح عن ذاتها دون أن تخلّي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذّات على قيد الحياة فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميّز بها عن غيره ، وتتحدّد فاعليتها، و يتجلّى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارىء الطمس، إنّها الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها ، و التي عن طريقها يتعرّف عليه الآخرون باعتباره منتميّا لتلك الجماعة"[5]فالهويّة مفهوم اجتماعي نفسي يشير إلى كيفيّة إدراك شعب ما لذاته و كيفيّة تمايزه عن الآخرين ، وهي تستند إلى مسلّمات ثقافيّة عامّة مرتبطة تاريخيّا ببنية

[1] عبد الله الغذامي،القبيلة و القبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة،ص48.
[2] ابن منظور ، لسان العرب ،15،ص375،376.
[3] نفسه،ص207.
4 ينظر،محمّد عمارة ،مجلّة الهلال ،القاهرة، يناير،1997
[5] محمّد عمارة ، مجلّة الهلال ، القاهرة ، يناير 1997.

اقتصاديّة و اجتماعيّة و سيّاسيّة للمجتمع من قبيل الثّقافة و الأخلاق و العقائد و العادات والخبرات العلميّة.

قال ابن حزم معرّفا الهويّة"و حدّ الهويّة هو أن كل ما لم يكن غير الشيء فهو هو بعينه إذ ليس بين الهويّة و الغيريّة وسيطة يعقلها أحد البتّةَ ، فما خرج عن أحدهما دخل في الآخر"[1] استنادا إليه يمكن القول أنّ الهويّة العربيّة الإسلاميّة هي مجموعة الصّفات و الخصائص التي تنفرد بها الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة، و تجعلها متميّزة عن الهويات الثقافية الأخرى ، تتمثّل تلك الخصائص في اللّغة و الدّين و العادات والتّقاليد والأعراف و غيرها من المكوّنات الثقافيّة ذات السّمة العربيّة الإسلاميّة ، وإذا ما أردنا البحث عن الهويّة الموحّدة في الحال العربيّة لا بد لنا من اللّجوء إلى الدّين ، فنستعير منه عناصرَه المتمثّلة في الحقيقة المطلقة، والعقيدة الثّابتة فتُصبح الهويّة و الدّين متلازمتان، ولا أساس لثقافة مجتمع مأزوم دون صياغة هويّة متنوّعة جوهرها الإبداع و التجاوب، ولا مجال للبناء دون العودة إلى الأصول.

إنّ الهوية الثقافيّة و الحضاريّة لأمّة من الأمم هي القدر الثّابت و الجوهري و المشترك من السمات و السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمم عن غيرها من الحضارات ، و التي تجعل للشّخصيّة الوطنيّة أو القوميّة طابعا تتميّز به عن الشخصيات الوطنيّة و القوميّة الأخرى[2] إذ تعبّر عن الاستقلال الذّاتي وعن قدرة الإنسان على إبداء رأيه ،قال الإمام العربي التبسي:"ليفهم الشعب العربي الإسلامي الذي تحوّلت لغته إلى رطانة في منطقه ،وخلط في مفرداته، حتّى أصبح لسانه مزيجا:أن لا دين، ولا قوميّة ،ولا أمّة، ولا أي مقوّم أو مميّز للأمّة إذا هي مضت فيما هي عليه من الجهل بلُغتها ، والعزلة عن تاريخها،و رضيت لنفسها أن تكون في حجاب بينها و بين آداب و مفاخر أسلافها تلكم المفاخر التي كانت دارسة الرّسوم "[3].

في فترة النصف الثاني من القرن العشرين كانت مظاهر الغزو الثقافي الغربي للعالم العربي و آلياته تتمثل في فساد القيم الفكريّة و الاجتماعيّة التي انتشرت مع الاستعمار وإضعاف

[1].ابن حزم الظاهري،الفصل في الملل و النّحل،(د ط)،ج2،مكتبة الخانجي، القاهرة(د ت)، ص107.
[2]محمد عمارة ،مجلة الهلال،القاهرة، فبراير،1997.
[3]عبد الرحمن شّيبان ،حقائق و باطيل،ص179.

الشعور بالقوميّة ، وانحلال الحاسّة الوطنيّة عند بعض الأدباء و المثقّفين ، حيث تسرّب الغزو الثّقافي عن طريق غزو اللّغة إلى الأدب و كان أثره خطيرا على أصحاب المواهب الأدبيّة[1].

تتداخل كلمة الهويّة مع عدد من المفاهيم التي تساعد في جلاء المعنى أحيانا و في تعقيده في أحيان أخرى، "وذلك بسبب مجالات الاستخدام، مثل الثقافة و السيّاسة و علم النفس و المنطق و الاجتماع و غيرها من المعارف، مما يقتضي البحث عن جذر تم تطويعه، دون الابتعاد كثيرا أو تقدّم المعالجة القديمة معنى شامل يعبّر عن واقعها ،ونجد في معاجم أخرى مثل المعجم الوجيز أن الهويّة تعني الذّات "[2]أمّا بعض المفكّرين فيرى أنّه من الصعوبة بمكان تحديد وتعيين الهويّة أو الخصوصيّة على صعيد الواقع ، وبالتّالي اعترف الكثيرون أنّ مفهوم الهويّة مصطلح أيديولوجي أكثر منه علمي، ذلك لأن الهويّة يُمكن التعبير عنها من خلال الدّين أو اللّغة أو الدولة الوطنية أو القوميّة، وهي كلّها متغيّرة حسب طريقة استخدامها و توظيفها،لذلك يمكن لمجتمع واحد أن يبدل هويّته حسب المراحل المختلفة تاريخيّا، ووفقا للظروف الحاكمة.

سعت الجمعيّة جاهدة إلى ربط الشباب الجزائري مع هويّته من خلال تأصيل تكوينه دينيّا و قوميّا و وطنيا حتّى إذا أحبّ الشباب دينه و لغته أحبّ العرب جميعا، و أصبح في نفسه دافعا إلى الاجتماع بإخوانه في الدّين و العروبة يقول الإمام عبد الحميد ابن باديس:"جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلّم التعليم الأوربي ، و المتأدّب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطّبقات الرّاقية منهم ، وانساق بنا الكلام إلى ما تكتسب به الأمم و الأفراد الاحترام في عين غيرها ،واتفقنا على أنّ الأمّة التي لا تحترم مقوّماتها من جنسها و لغتها، ودينها و تاريخها لا تعدّ امّة بين الأمم ، ولا ينظر إليها إلّا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتّقهقر و الاندحار، وأنّ الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمّته،لتأخرها في سير الزّمان ، بما أحاط بها من ظروف الحياة، وإن تحلّى بأعظم و أحسن ما يتحلّى الرّاقون من أمّة أخرى ،لا ينظر إليه إلّا بالعين التي ينظر بها على أمّته"[3]، هي دعوة صريحة للتشبّث بالهويّة فذلك هو سبيل التميّز المُوجب للاحترام ، في مقابل التميّع و الانصهار في ثقافة الآخر المختلف تماما ممّا يورث

[1]ينظر، عبد الكريم غلاب، الأدب و الغزو الثقافي ص37.
[2]ينظر ، معجم اللغة العربيّة، القاهرة،1997،ص654.
[3]عمّار طالبي،آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس،ج2،ص229.

العُقدة من الانتماء ، و ضعف الشخصيّة ، و القابليّة للتّسليم بكلّ ما يقدّمه هذا الآخر إن خيرا فخيرا و إن شرّا فشراّ حتّى و إن تناقض مع ثوابت هذا الدّخيل ممّا يوجب السخريّة و الاحتقار.

رابطت جمعيّة العلماء في حصن الهويّة و لم تحد عنها قدر أنملة لاعتقادها الرّاسخ أنّها الأصل في كل مشروع نهضوي، فكان الحفاظ عليها من أسمى غاياتها و في هذا يقول عبد الرّحمن شّيبان يصف معهد ابن باديس:"وإذا أدركنا أنّ شعبنا الجزائري المناضل لا ينهض النهضة الفعّالة المثمرة إلّا إذا تسلّح بلغته و تدرّع بدينه و تحصّن بقوميّته ،وتزوّد بتاريخه إذا أدركنا كلّ هذا أدركنا بيسر وجلاء المدى البعيد والأثرَ البالغَ للرّسالة الكبرى التي يؤدّيها معهد ابن باديس للأمّة الجزائريّة جمعاء"[1] هذه الأفكار لا زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا وأبرزها إعداد الشباب على أساس الانتماء للعروبة و الإسلام و الوطنيّة ،مما يجعلهم في إطار مسارها الحضاري ، وهذا الذي يعصمه من الوقوع في براثن الغربنة و التنكر للأصول والشعار الذي تقوم عليه الحركة الوطنيّة المتمثلة في جمعيّة العلماء المسلمين هو شعار يكرّس هويّة الشعب الجزائري و هو (الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا)، و هي الثّوابت التي قادته لاحقا نحو الاستقلال و التحرّر، إذ لا معنى لهذا الأخير إذا فقد الشعب أصول هويّته "فكم من الشّعوب قد استقل، غير أنّ كلّ شعب يتميّز عن البقيّة بأصالته التي تبوّؤه موقعا خاصّا في هذا العالم ، وإذا حدث و أن ضاعت هذه الأصالة ، فإنّ كلّ الأفراد يصبحون كالسّمك في الماء (...)إنّنا جزائريّون و هذا يعني أنّنا شعب له شخصيّته و تتجلّى هذه الشخصيّة في دينه ولغته وعاداته و تقاليده و تاريخه "[2] ،نجحت الجمعيّة في إفهام الشعب الجزائري معاني الهويّة فوضعت بذلك الأُسس المتينة ، و الخطوط العريضة لتحقيق النهضة الكبرى ، و تحقيق الحريّة بتمام معانيها .

هذا وتعدّ الهوية مادّة خصبة للدراسة الثقافيّة فهي تصلح"مجالا مهمّا للنقد الثقافي ،وهنا يفترض أن نستعين بكل مناهج العلوم الإنسانيّة الممكنة ليس من الزاوية النظريّة فحسب ،بل

[1] عبد الرحمن شّيبان ،حقائق و أباطيل،ص50.
[2] نفسه،ص102.

ننطق بالعكس أي ننطلق من واقع الهويات في العالم في شكلها و نموّها ، واندثارها و مقوّماتها وانغلاقها و انفتاحها"[1].

3 -2التراث والحداثة:

قضية التراث و الحداثة، أو الأصالة و المعاصرة من أكثر النقاط نزاعا في الفكر النقدي الثقافي الحديث، وإذا كان الحفاظ على الأصالة من الحفاظ على الهويّة، فإنّ التفتح على الفكر العالمي ، وعلى أسباب المدنيّة و التّطوّر عند الآخر لا يمثل بشكل من الأشكال طعنا في الأصالة ما لم يتعارض مع الشّرع و العرف، فالدّعوة للانفتاح على الفكر العالمي هي دعوة إسلاميّة أصيلة قائمة منذ القدم ، و لكن بضوابطها ، وحدودها و أساليبها التي تحفظ الذّاتيّة و تحول دون انهيارها،و انصهارها في الفكر الوافد،وهي دعوة قام المسلمون عليها في عصر التّرجمة قوامة أصيلة فملكوا إرادتهم و لم يترجموا إلّا ما هم بحاجة إليه،كما نقلوا العلم إليهم و لم ينتقلوا إليه فحافظوا على هويّتهم صافيّة من المنغصّات.

و لأن جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين جمعيّةٌ متعدّدة المهام ، و باعتبارها جمعيةً ثقافيّة أيضا،لم تستثن هذه النقطة من محور بحثها، بل صال علماؤها وجالوا في رحابها غير ما مرّة حتّى جعلوا منها ركيزةً من ركائز بناء الدّولة، يقول العربي التبسي متحدّثا عن معهد ابن باديس:"إن المعهد المستقل لا يرجى منه تخريج نشء مثقّف بالتّعاليم الدّينيّة، وعلوم اللّغة العربية ، و ما يربط به ماضيه الفاخر من تاريخ و سير فحسب، لكونها غير كافيّة وحدها، فإنّ العصر يتطلّب أكثر من ذلك فالواجب يقتضي بأن نعمل على إرسال بعثات علميّة إلى أوربا للتزوّد بالعلوم التي تقوم عليها الحياة اليوم، فإنّنا متى أعددنا شبابا متسلّحا بالسّلاحين الرّوحي المستمد من ديننا و تاريخنا، و السّلاح المادّي الموجود عند أوربا الصّناعيّة، نكون عندئذ قد أسّسنا للشعب دعائم العزّة، وأركان القيادة و السعادة، و لكن هذا يتطلّب من الأمّة نضالا، وهل يستحقّ الحياة إلاّ المناضلون؟"[2]

إنّ البحث عن الجديد لا يعدّ منقصة في حقّ الأصالة و التّراث،بل هو داعم و معاون لها حتّى يستمرّ وجودها ، وتتمكّن من الحفاظ على نفسها، و غير بعيد عن العربي التبسي ها هو

[1]عز الدين المناصرة ،الهويات و التعددية اللّغوية ،قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن ،ص13.
[2]عبد الرحمن شيبان ، حقائق و أباطيل،ص181.

عبد الرحمن شّيبان يعلّق على قول ابن باديس (مبدؤنا في الإصلاح الدّيني و الدنيوي: لا يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها)"إنّه يعمل على تكوين أجيال تبني حياتها على الأصالة و المعاصرة معا،اتباع السلف الصالح من الأمّة الإسلاميّة فيما صحّ من العقائد والعبادات و المعاملات و الأخلاق، من جهة و مسايرة التطوّر و العصرنة في شؤون الحياة العامّة من جهة أخرى"[1]

و فيه بيان الجمع بين الأصالة و المعاصرة ، و الأخذ من كل واحدة منهما بحظ، و ضرورة مسايرة التطوّرات الحاصلة في الكون حتى لا ينقطع المجتمع عن أخباره و ما جدّ فيه من جديد و هي أمور تقتضيها الإنسانيّة ، و يفرضها الدين و العقل،يقول ابن باديس"احذر كل متعيلم يزهدك في كل علم من العلوم ، فإنّ العلوم كلّها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانيّة، ودعا إليها القرآن بالآيات الصّريحة ، وخدم علماء الإسلام بالتّحسّن والاستنباط ، ما عرف منها في عهد مدنيّتهم الشرقيّة والغربيّة،حتّى اعترف بأستاذيّتهم علماء أوربا اليوم"[2]

لا يخفى على أحد ما للعلوم الحديثة من أثر في تطوّر المجتمعات و رقيّها و هذا يقتضي تكييف التفكير و المعاملات مع العصرنة، لكن بلا مساس بالثّوابت و المقوّمات "كن عصريّا في فكرك و في عملك و في تجارتك ،وفي صناعتك و في عدلك و في رقيّك(...)، احذر التوحّش فإن المتوحّش في عصر المدينة محكوم عليه طبيعيا بالتناقض،ثم الفناء و الاضمحلال و الاندثار كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدّن و الرقي(...)كن أخا إنسانيّا لكل جنس من أجناس البشر(...)، كن حسنا لكل أحد من كل جنس و دين،فدينك الحنيف يأمر بالإحسان"[3]

إنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين هي جمعيّة علميّة ثقافية،إنسانيّة،تدعوا إلى الأخذ بأسباب الحياة الرّاقيّة، و المدنيّة الظاهرة، كما تدعوا و تشارك أمم الدّنيا في خدمة الإنسانيّة ودفع عجلة التطوّر في كل مناحي الحياة"إنّ أمّتنا تريد الثورة على الأوضاع الاجتماعيّة الباليّة و القضاء على النزعات الفرديّة المبيدة و الآراء الرجعيّة المثبّطة ،ومعهد ابن باديس يسعى

[1] عبد الرحمن شيبان ، مقدّمة مجلّة الشهاب،ص41.
[2] المرجع السابق ،ص42.
[3] نفسه ،ص43.

لتخريج قادة تربّوا على الحريّة في التفكير و الصّرامة في التفسير و الطّموح للمعالي(...)و إنّ الجزائر بحاجة إلى علوم الحياة التي تنهض بها في الميدانين الاقتصادي و الصّناعي "[1].

إنّ القاعدة التي أراد ابن باديس أن يربي عليها طلبة العلم من أبناء الجمعيّة هي أنّ الحكمة ضالّة المسلم أينما وجدها فهو أولى بها، فعليه أن يلتمس الخير حيثما وُجد و عليه أن يأخذه ويستفيد منه، كما يستفيد من كل ما ينفعه في المدنيّة الغربيّة، ولكن يجب أن يكون ذلك بلا إفراط و لا تفريط، إذ لا يجوز له أن يقلّد الغرب تقليدا أعمى ، تذهب معه شخصيّته و هويّته،حتّى يرى نفسه دون الغربي فيخضع له، و يراه فوقه في كل شيء، و إنّه لمن العار أن يتصرّف المسلم على هذا النحو"إنّ الشرق مخدوع ، وليس الغرب من العقل والكياسة كما نتوهّمه ، فلقد اجتمعتُ بأعظم مفكّري الغرب ، فلم أر فيهم ما يرجّحهم على المفكّرين الشرقيين،إنّ أصل بلائنا نسينا أنفسنا و عزّتنا و تاريخنا، و لولا ذلك لما وقعنا فريسة باردة لغيرنا "[2].

كما أنّ من القواعد التي تجري عليها أعمال الجمعيّة ما جاء في المادّة64 ، وتجري في الاجتماعي منها خاصّة على قواعد ما كل قديم يُنبذ و لا كل جديد يُؤخذ ، وإنّ مستقبلها ينبني على ماضيها وإنّه لا تنافي بين الإسلام و المدنيّة الصحيحة، بل هو روحها و خلاصتها، إذا أقيم على وجهه الصّحيح[3] "وإنّ نواميس الكون هو سنن الله فيه ، والأخذ بأسباب الحياة هو تحقيق لحكمة الله في تلك السنن ،وإنّ تجديد الأمّة الجزائريّة إنّما هو في غير ما هي به مسلمة وفي غير ما هي به عربيّة"[4] و الكلام واضح إذ التجديد لا ينبغي أن يمسّ البتّة مقوّمات الهويّة التي يجب أن تبقى على أصالتها و في مقدّمتها الإسلام و العروبة ، فالتّجديد يجب أن يبقى في إطار الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، يقول روجي غارودي، في مقالته الموسومة:الإبراهيمي العالم المجدّد:"الشيخ الإبراهيمي هو الذي انتهج مع الشيخ ابن باديس منهج التجديد في الجزائر وتابع العمل الإصلاحي الذي انطلق في مصر على يد جمال الدّين الأفغاني و محمّد عبده و رشيد رضا(ت1935) ، وكان هذا العمل يحمل طابع التجديد من النّاحيّة الدّينيّة و السّياسيّة

[1] عبد الرحمن شيبان ،حقائق و أباطيل،ص50.
[2] عبد الرحمن شيبان ،مقدّمة مجلّة الشهاب،ص96.
2 ينظر، عبد الرحمن شّيبان،من وثائق جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،(د ط)،دارالمعرفة،الجزائر،2008م،ص59
[4] نفسه ،ص59.

و الثّقافيّة(...) ،وهكذا فالشيخ الإبراهيمي كان مع ابن باديس كالشّعلة التي بثّت في الجزائر ثروتها الثّقافيّة ، تلك الثّورة التي مكّنت الشعب الجزائري من نيل الاستقلال عام 1962م، بعد 130 سنة من الاستلاب ،كما مكّنته من استرجاع هويّته العربيّة الإسلاميّة التي ما فتىء يُكافح من أجلها ..."[1]

فالمقال عبارة عن توضيح للجهود المضنية التي بذلها العلماء الأجلّاء في مضمار التجديد ليواصل القول"و قد تحدّد موقفها أنذاك برفضها للأفكار التي دعا إليها في تركيا ضياء جوكلاب وتبعه بعد بضع سنوات كمال أتاتورك الذي اختلط عليه الأمر بين العصرنة (modarnisation)، و الغربنة(occidentalisation)،و بذلك أفقد الإسلام جانبه الرّوحي بتقليد الغرب تقليدا أعمى (...)كما أنّهما رفضا موقف الجامدين الذين يتّجهون إلى الأمام عن طريق القهقرى (...) وقد كتب الشيخ الإبراهيمي يقول بأنّ أسوء ما وقع فيه دعاة الثقافة الغربيّة من عيوب هو الجهل المطبق بحقائق الإسلام ، وأنّ أسوء ما وقع فيه أنصار الثّقافة الإسلاميّة هو الجهل المطبق بمشاكل العصر، ومستلزماته"[2]

إنّ الدعوة الإصلاحيّة لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين تأخذ في الحسبان أسباب المدنيّة الحديثة، و يظهر هذا جليّا في شعاراتهم التي تعني التوجّه نحو المستقبل ومنها عبارات التقدّم و النهضة و الترقّي، و يظهر هذا بوضوح في اسم نادي الترقّي الذي كان رمز التقدّم و الازدهار ، ولقد كان منهاج الجمعيّة الذي تسير عليه وجوب الاحتفاظ بما في الماضي من نفع، وعدم الزهّد بما في الحاضر من خير و مدنيّات[3] دون إفراط و لا تفريط ،فقد"أخطأنا حينما جمعنا بين الانبهار بالعقل الغربي و منجزاته، وبين احتقار العقل العربي و التنكر لمنجزاته و التقليل الكامل من شأنها"[4]

لم تتوقف دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجمع بين الأصالة و المعاصرة في مجال الأفكار و المعاملات فحسب بل تعدّاه إلى مظاهر ثقافيّة أخرى نذكر منها:

---

[1] ينظر، مجلّة الثقافة،ع87،ص140.

[2] المرجع السابق،ص141،142.

[3] ينظر، علي مراد،الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة في الجزائر،(1925،1940)،بحث في التّاريخ الدّيني و الاجتماعي،تر:محمّد يحياتن،دار الحكمة، الجزائر،2007،ص374،375.

[4] عبد العزيز حمّود ، المرايا المقعّرة،(د ط)، نحو نظريّة نقدية عربيّة،مطابع الوطن،الكويت ،2001م،ص31.

1-**المعمار**:

أدرك علماء الجمعيّة قيمة الرموز الثقافيّة في حياة الجزائريين فنجدهم يقحمون العمران لما له من تأثير كبير على نفسيّة المواطنين ،من حيث مساهمتُه بطريقة أو بأخرى في انسجام أفكارهم و أذواقهم ،بالإضافة إلى التمسّك بتقاليد التصميم المعماري الإسلامي الذي يعكس حتما شخصيّة المسلم ،ممّا يدخل في نطاق المحافظة على الهويّة و الثّوابت إذ "تمتاز مدارس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بطرازها المعماري الإسلامي الموحد،حيث راعت فيها الجمعيّة ضرورة الجمع بين روعة الفن المعماري الإسلامي من النّاحية ،وبين ذوق العصر ومتطلّبات الصحّة العامة للمتعلمين من ناحية أخرى وهي في مجموعتها تكوّن وحدة منسجمة ،كي تكون للأجيال القادمة شاهدا على أنّها نتاج (فكرة موهبة) وقد كان هدف الجمعيّة من توحّد الفن المعماري لمدارسها ، هو تكوين أجيال جزائريّة منسجمة في أذواقها ، وتفكيرها و متّحدة في اتّجاهها الوطني و القومي العام"[1].

2-**الملابس**:

أمّا على صعيد الهندام فقد أولته الجمعيّة أيضا فائق العناية باعتباره مؤشّرا ثقافيّا"عمليّة المسخ شملت جميع المظاهر الثّقافيّة و الاجتماعيّة ، من أدناها الملابس و الثّياب، إلى أعلاها الذوق الفني و القيم الأخلاقيّة ، بهدف أن يصبح الجزائريّون ، و كأنّهم لا جذور لهم تربطهم بتاريخهم و حضارتهم ، وثقافتهم"[2] فالملبس من المؤشّرات الثقافيّة التي تربط الفرد بحضارته و ثقافته ،و التي تحدّد انتماءه ،لذا ركّزت عليها جمعيّة العلماء المسلمين و لم تغفلها في مشروعها لمقاومة الاحتلال ،وإن كانت من أدنى مظاهر الثقافة .

3-3 نقد خطاب الهيمنة، و القابليّة للاستعمار:

عادةً إذا أرادت دولةٌ احتلال أرض بذلت لها ما بوسعها من أسباب السيطرة عليها، ومن أسباب السيطرة التّوجّهُ نحو الفكر من خلال العمل على جعل الشعب المحتَل قابلا للاستعمار مسلّما به ، سائرا في فلكه دون أن يشعر، و هو المصطلح الذي عبّر عنه مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار.

[1] تركي رابح عمامرة، التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956م)،ص211

[2] نفسه،ص323،324.

كان من أمر الاحتلال في هذا المضمار أن أرسل رجالا ذوي علم يُقال لهم المستشرقون من أجل استطلاع الطريق وتأمين الوصول إلى العقل العربي الجزائري، فهمّوا بدراسة الشخصيّة القوميّة للأمّة العربيّة في تراثها الفكري و الثقافي و الحضاري و الدّيني ،و شملت دراستهم جميع مكوّنات هذه الشخصيّة من الجوانب النفسيّة و الاجتماعيّة و الثقافيّة و الدّينيّة و اللّغويّة و غيرها ،و كان عملهم يهدف في المقام الأوّل إلى التغلغل في أعماق أغوار الإنسان العربي، من أجل معرفة مواطن قوّته ، و مواطن ضعفه، وفهم النواحي الإيجابيّة في شخصيّته و كذلك النّواحي السلبيّة فيها تمهيدا للسيطرة عليه و احتلال بلاده[1]

كان الهدف الأسمى من وراء كل هذا هو معرفة مكامن الضعف في الشعب الجزائري إدراكا من الاحتلال أنّ بقاء الأمّة مرتبط ببقاء لغتها ، وأنّها تزول بزوالها، لذلك سعى جاهدا في تحطمها و استبدالها بلغته، فتكون حينئذ ليست اللّغة العربيّة هي التي تنهار، ولكن تنهار معها الشخصيّة الجزائريّة بكل ميراثها الثقافي و الحضاري"كان الاستعمار الانجليزي و الفرنسي يوجّهان التعليم في مستعمراتهما توجيها يخدم أهدافهما لكن كل واحد بطريقته الخاصّة ،فإنجلترا مثلا لا تشجّع التعليم الحديث في مستعمراتها، وإنّما تحصر أهالي المستعمرات في دائرة ثقافتهم التقليديّة، وفرنسا تقاوم الثقافة القديمة(القومية) في مستعمراتها وتفرض على أهلها اللغة الفرنسيّة ، و التعليم الفرنسي، و المدنية الفرنسيّة(...)و مع اختلاف الأسلوبين فالحكمة والهدف واحد ، فإنجلترا تريد أن تضمن بقاء الشعوب تحت سيطرتها(...)في حين فرنسا تريد أن تصل إلى نفس الهدف بجعل أهل مستعمراتها فرنسيين لحما و دما ، حتّى يندمجوا فيها ويكونوا جزءا من فرنسا الكبرى"[2].

إنّ التعليم الفرنسي لم يكن في بداياته متاحا على نطاق واسع ، فعلى الرغم من أن السياسة الاستعماريّة قامت على ثلاثة ركائز هي (الفرنسيّة ،التنصير،الإدماج)إلّا أنّه في التطبيق العملي لم تفتح أبواب التعليم الفرنسي في وجه الجزائريين إلّا في نطاق محدود جدا على خلاف ما يقضي به منطق الإدماج ،فالواقع العملي كان مُناقضا للتنظير الذي وضعته الحكومة

[1] نفسه،ص21،22.
[2]تركي رابح عمامرة، التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956م)ص51،52

الاستعماريّة، و هنا يَحضُرنا المبدأ الذي استعمله الاستعمار في صراعه الفكري مع الجزائريين القائم على الغموض من منظور مالك بن نبي، فالظّاهر في هذه السيّاسة أن الاستعمار يبغي تثقيف أهل مستعمراته، بينما المسكوت عنه في ذلك هو محاولة دمجهم في فرنسا ، و على الرغم من هذه الأهداف الخفيّة إلاّ أن التعليم الفرنسي كان في حدود ضيّقة جدّا مخافة منهم أن ينقلب السّحر على السّاحر، وعلى هذا فالمسلم الجزائري من حيث المنطق و المعقول هو مسلم جزائري و كفى، ممّا يدفعنا للقول أن التجهيل هو الذي شكّل الهدف الأسمى عندهم.

إنّ التعليم في عهد الاحتلال كان استعماريّا بحتا لا يعترف باللّغة العربيّة و لا يقيم لوجودها وزنا، فاللّغة الفرنسيّة وحدها لغة التدريس في كل مراحل التعليم، في محاولة منه للقضاء على اللّغة العربيّة كليّا، ومن هنا عمل الاحتلال على"تحويل المجتمع الجزائري على المدى البعيد من مجتمع مناهض للاستعمار إلى مجتمع راض عن الوضع الاستعماري لبلاده و لديه القابليّة للفرنسيّة، و الاندماج في مجتمع دولة الاحتلال ، وبذلك تتمكّن دولة الاحتلال من السيطرة المطلقة و الدّائمة على الجزائر،وبسط نفوذها على الجزائريين"[1]، وهي فكرة القابلية للاستعمار التي تجعل من الجزائري خاضعا خانعا راضيا ،له عقدة من الانتماء وخوف من المجهول ظاهرٌ جرّاء وضع اللّغة العربيّة و الثقافة الإسلامية في ثوب لغة الضعيف الموجبة للاحتقار،"إنّ الخلل الأكبر في الخيبات التي كانت قد مُنيت بها الجزائر و غيرها من البلاد الإسلامية خللٌ ذاتيٌّ يتمثّل في تدهور البنية الاجتماعيّة للشعوب الإسلاميّة بما تفشّى فيها من خمول و أنانيّة ، وتواكل و تخاذل،وفهم سيء لمعاني القضاء و القدر وطاعة أولي الأمر والنجاة و التهلكة، والجهاد و الاجتهاد ، إلى غير ذلك من الأمراض التي تُساعد على تعبئة كل الطاقات لمواجهة العدو المشترك، و الاحتلال المقيم بكلاكله على البلاد و العباد ، وهو ما سمّاه مالك بن نبي القابليّة للاستعمار"[2]،فنحن هنا أمام وضع مزر لمجتمع استشرى الدّاء في كلّ قطعة من جسده حتّى أصبح يشبه السّرطان من بين أنواع العلل المهلكة فتحوّل إلى ما يمكن أن نسمّيه نكسةً اجتماعيّةً فكّكت المجتمع إلى أشلاء انهارت معها القيم و الأخلاق ،ممّا استدعى حلولا عاجلةً أعطت الأسبقيّة للجماعة على حساب الفرد .

[1] المرجع السابق ،ص127.
[2] عبد الرحمن شيبان ، حقائق و أباطيل،ص112.

برزت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ، و اتخذت نهجا جديدا يختلف عن ذلك الذي سلكه غيرها من الأحزاب و الهيئات ، فهي أبعدُ نظرا و أدقُّ بصيرةً، وأكثرُ أصالةً وذلك لإعادة الجزائري إلى بيضة الإسلام و العروبة، وتكوينه تكوينا مختلفا يجعله غير قابل للاستعمار،ويؤهّله للنضال والجهاد"إن الاستعمار ليس من عبث السّياسيين ولا من أفعالهم،بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار، و التي تُمكّن له في أرضها،وليس ينجو شعبٌ من الاستعمار و أجناده إلّا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر،وتخلّصت من تلك الرّوح التي تؤهّله للاستعمار"[1].

إن الخلل ذاتي نابع من النفوس الجبانة و العقول المحدودة، هذا الذي يراه مالك بن نبي الذي امتدحه صديقه محمود شاكر في تقديمه لكتاب :في مهب المعركة قائلا"فهذا المفكّر الخبير قد استطاع بحسن إدراكه و قوّة بيانه ، وبدقّة ملاحظاته ،أن يفتح عيونا على الخيوط التي تنسج منها حياتنا ،تحت ظلام دامس ، فقد أطلقه المستعمر ليخفي عنّا مكره بنا ،وخداعه لنا، فإذا تمّ نسيج هذه الحياة لمسناها كأنّها حياةٌ نابعةٌ من شرّ أنفسنا،وبذلك يُمكن أن يقودنا كالأنعام،ونحن نحسّ أنّنا دائما نقود أنفسنا، وأنّنا نتصرّف في هذه الحياة تصرّفَ الحرّ الذي لا سلطان عليه وهذا هو المعنى الذي وضعه مالك بن نبي باصطلاحه الذي وضعه وهو القابليّة للاستعمار"[2].

إنّ القابليّة للاستعمار مرضٌ عُضالٌ يورث الكسل و التّخاذل عن أداء المهام المنوطة بالشّعب المستعمَر حتّى يستعيد عافيته من النّاحيّة الثّقافيّة ، تعمّد الاستعمار بثّه في النّفوس حتّى يُطيل مكوثه في تلك المستعمرات ، كنوع من الهيمنة الفكريّة التي تُعدّ تمهيدا للهيمنة العسكريّة و أصلا لها، فالصراع قائم بين نوعين من أنواع الهويّة حسب تقسيم كاستلرز هما: "الهوية المشرعنة، وهي الهويّة التي تنتجها المؤسّسات الاجتماعية المهيمنة من أجل إدامة هيمنتها و عقلنتها (...)و الهويّة المقاومة و هي الهويّة التي تنتج عن النشطاء الواقعين في موقع أو في حال التّقليل أو التصنيف الدّوني كنتيجة لسلوك أو منطق العناصر المهيمنة..."[3]

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة،ص31.
[2] مالك بن نبي مشكلات الحضارة،في مهبّ المعركة،ص11.
[3] عبد الله الغذامي،القبيلة و القبائليّة أو هويّات ما بعد الحداثة،ص51.

فالأمر إذن في غاية الوضوح إذ يُقصد بالهويّة الأولى الهويّة الاستعماريّة التي يُمثّلها الاستعمار و التي تمثّل الفعل، بينما تمثّل الثانيّة ردّة الفعل ،وهي هويّة الشعب المستعمَر لتكون المعركة قائمة بين "هويّات تحرّريّة انعتاقيّة، و أخرى عنصريّة استعلائيّة"[1].

3-4الأدب كظاهرة ثقافيّة:

يُعد الأدب ظاهرةً ثقافيّةً تدخل في بوتقة الخطابات التي يتم تمرير المشاريع الحضاريّة و النهضويّة عبرها، فهو رقم صعب و حسّاس في معادلة بناء الأمم ،كما يُعتبر من النقاط الهامّة التي اتكأت عليها الجمعية في مشروعها "لم يعد الأدب يُفهم كما كان يفهم في العهود الماضية المظلة بأنّه تنميقُ كلمات منظومة أو منثورة ولو كانت خاليّة من كل معنى(...)، بل الأدب اليوم معنى أسمى وأخطر من ذلك كلّه فهو تصويرٌ لحياة الفرد و المجتمع، وتعبيرٌ عمّا يختلج في النفس الإنسانيّة من الأماني و المطامح، وما ينتابها من المآسي و الآلام(...)، نعم إنّ الأمم الرّاشدة أصبحت تُقدّر شأن الأدب كثيرا، وتعتبر رجاله كرسل هداية عليهم أن يدعوا و يبلغوا و عليها أن تطيع و تنقاد"[2]

إن الأدب في لبّه رسالةٌ ،و الأدباء ينبغي أن يكونوا رسلَ إصلاح وهداية، تتدفّق الحكمة و الرشاد من أفواههم ، لان الأدب وسيلةٌ من وسائل التعبير و التأثير،ومظهرٌ من مظاهر الثّقافة و التفكير، يعبَّر به عن الظروف الاجتماعيّة و السياسية الآنية ، وليس مجرّد التباهي و التفاخر في الاجتماعات المناسباتيّة، على شاكلة ما كان يحدث في العصر العباسي، وعليه يستعمل العلماء الأدب في سبيل بناء الدول و الحضارات و ليس لمجرّد المتعة،و لسان حالهم يقول:

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بُناة المعالي كيف تبنى المكارم.

في هذا قال إمام الأدباء الجزائريين محمّد البشير الإبراهيمي:"إنّ من فتور العزائم الذي أصابنا في مبدإ نهضتنا ،هذا الفتور الذي عقّد ألسنة شعرائنا، فهم لا يقولون الشعر إلّا في

[1] المرجع السابق،ص66.
[2] عبد الرحمن شيبان، حقائق و اباطيل،ص38.

المناسبات كالاجتماعات،والاحتفالات ،أمّا الطوارىء التي تتجدّد كل يوم ،والأمراض الاجتماعيّة والأخلاق المرذولة، لا يهتمّون لها لذاتها،اللّهم إلّا إذا ذكرت عرضا، في اجتماع فخيم أو مأدبة تكريم"[1].

لم يغفل علماء الجمعيّة الأدب بل عدّوه من أساليب المقاومة ، وركيزةٌ من ركائز تنوير الرأي العام"فالحديث عن أدبيات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين من الحديث عن أدب المقاومة،والباحث في القضيّة الجزائريّة ، و تطوّرها خلال الفترة التي ظهرت فيها الجمعيّة وحتّى قبل ظهورها بقليل، يجد أنّها من أهم المراحل في تاريخ الجزائر المستعمرة وهذا نتيجة ما شهده المجتمع من وعي جعله أكثر تمسكا بمقوّماته الشخصيّة"[2]

إن الحياة الأدبية هي انعكاس للحياة الثقافيّة،فكما قيل قديما الإنسان ابن بيئته، ولمّا كان للأدب هذا الشأن العظيم سعى علماء الجمعيّة إلى إنعاش الحياة الثقافيّة و الأدبيّة فبرز بفضلهم رجال ملكوا ناصيّة اللّغة العربيّة و تثقّفوا بالثقافة الإسلاميّة و نشؤوا على حبّ الدّين و اللّغة و الإبداع فساهموا بقسط وافر في بعث الأدب الجزائري من مرقده ، حتّى ظهر منهم الشعراءُ و الخطباءُ ممن بلغوا بالأدب الجزائري مبلغا عظيما،إلى أن بلغت المقالة عند الإبراهيمي درجة تُضاهي ما وصلت إليه المقالات العربيّة في أزهى عصورها"ولقد ساهم في إرساء دعائم هذه النهضة الثقافيّة و الأدبيّة ، ذلك التأثّر بالاتجاهات الأدبية المشرقيّة التي جاءت بها الحركة الإصلاحيّة من أدباء مصر بصفة خاصّة ، وكذلك ظهور الصّحافة الوطنيّة التي حاصرها الاستعمار في البداية وواجهت مشاكل ماديّة ، فلمّا نشأت في القرن العشرين فتحت صفحاتها للكتابات السّياسيّة و المقالات الصحفيّة التي أخذت في الارتقاء حتّى أصبحت ذات صبغة أدبيّة قد ترتضي إلى أن تتبوّأ أعلى الدّرجات كما عند البشير الإبراهيمي في عيون البصائر..."[3]

يظهر أثر جمعيّة العلماء واضحا في تطوير الحياة الأدبيّة شعرا و نثرا، والتي لا تنفكّ طبعا عن الحياة الثّقافيّة بصفة عامّة،في محاولة منهم للبعد عن التقليد ،والإقبال على الابتكار

[1] عبد الرحمن شيبان ،سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،ص174.
[2] خالد أقيس،آثار العربي التبسي ، دراسة فنيّة،رسالة ماجيستير،ص2
[3] عبد الملك بو منجل ، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،ص16،17.

والاجتهاد، ورد في خطبة للشيخ خير الدين "إنّ من دلائل الفتور المستولي على شبابنا هذه الحقائق التي نعترف بها ونحن آسفون خجلون، وتالله لو بعث هذا الأدب من مرقده، وجُمعت هذه الثورة الموزّعة لاجتمع للجزائر أدبٌ تتباهى به الأمم،و تطاول به العصور و يحيي به فينا تلك الذكريات،وتحرّك فينا تلك النّعرات، ولكن أدباءنا عفا الله عنهم رضوا بأن يكونوا عالة على كتّاب الشرق و أدبائه لا يقرؤون إلّا ما يُكتب بأقلام غير جزائريّة كأنهم خُلقوا للتقليد والمحاكاة و ما خُلقوا للابتكار(...)وهذه حالة لا تجمُل بمن يريد أن يجدّد أدبا قد اندرس، أو يحيي أمّة بعد موتها ومن الخير لواكب أدبائنا على المطالعة و القراءة حتّى تكتمل ملكاتهم الأدبيّة ، ثمّ يكتبوا لنا في النواحي الأدبية التي تتصل بحياتنا وهي كثيرة متشعّبة الأطراف"[1].

استنادا إليه نفهم أنّ الواجب الملازم لأدبائنا هو أن يملؤوا مجلاتهم الخاصّة ثم ينتقلوا إلى غيرها بهدف رفع شأن البلاد وإعلاء ذكرها والتّعريف بها في مختلف المحافل، لقد لحق الأدبَ الركودُ والانحطاطُ في الوطن العربي عامّةً وفي الجزائر خاصّةً امتدادا للركود و الانحطاط الحاصل في مناحي الحياة الأخرى بفعل الاستعمار و عمله بلا هوادة على طمس الهويّة الثقافيّة الإسلاميّة عند الجزائريين، يقول الإبراهيمي:"وقد اطلعنا على أكثرها فإذا هي لون واحد، و إذا هي مصروفة في الغالب إلى مدح المشايخ و الكبراء ، وإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرّائجة في السوق لأنّها منقطعة الصلة بالشعر في ألفاظها ومعانيها، ومنقطعة الصلة بالخيال في تصرّفه و انتزاعه، بل أنا أحكم بأنّ في الشعر الملحون ما هو شعرٌ في الحقيقة فقد سمعت من شعر القرن الماضي (19) ما يفيض حكمةً و حثّا على الفضائل و الكمالات"[2].

و مما دعا إليه البشير الإبراهيمي هو أن يحافظ الأدب الجزائري على أصوله وقواعده ،أي أن يبقى عربيّا يُعبّر عن الواقع ،ويهدف إلى الإسهام في البحث عن الحلول، وهو يدعو في الكثير من الأحيان إلى الكفاح الأدبي الفكري ،والحفاظ على أصالة الأدب وهويّته، كما لم يغفل العلماء دور النقد في تجديد الأدب و إخراجه على أحسن هيئة، لكن ليتحقّق ذلك يجب أن يكون النقد موجّها إلى الفكرة بُغية تصوبها لا إلى الأشخاص بهدف التقليل من قيمتهم"و أوّل وسيلة تكفل الكتّاب أن يؤدّوا مهمّتهم كاملةً سالمةً، غير منقوصة و لا مسلوبة،إنّما هو التّسامح فهو

[1]عبد الرحمن شيبان ،سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،ص173.
[2]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1،ص71،72.

الذي يمنح للكاتب الحق في أن يكون حرّا في تفكيره،صلبا في عقيدته ، لكن تمنعه كذلك من الاعتداء على من تخالفه في رأيه ، ولا يؤمن في مذهبه، و ليس معنى هذا أن يسكت الكاتب عند نقد ما لا يراه صائبا ، فإنّ ذلك يحرم النّاس من متعة النقد ، ويحول دون انكشاف الحقيقة(...) بل إنّ التّسامح المفيد هو أن يعمد الكاتب الناقد من نقده إلى الفكرة المنقودة التي لا تروقه ،إلى الفكرة وحدها يوليها بكل حريّة تمحيصا و تزييفا لكن حذار أن تخرج عن حدود اللباقة و المنطق، أو يمس صاحب الفكرة المنقودة بسوء(...)وبعبارة أخرى يجب أن تكون الفكرتان الهاجمة و الدّافعة هما اللتان تتناظران و تتقاتلان و يبقى صاحباها بعيدين عن المعركة"[1].

المدقّق في كلام عبد الرحمن شيبان و هو تلميذ ابن باديس يدرك تمام الإدراك الحسّ النقدي والأدبي الذي بلغته الجمعيّة، و الأشواط الكبيرة التي قطعتها في هذا الميدان، وبالتّالي هو دليل آخر على حسن انتقاء أعضائها، وتنوّع ثقافاتهم و ممّا يزيد من قيمة هذا الإنجاز هو الظّروف القاهرة التي مرّت بها البلاد،إذ لم يثنهم الاستعمار عن تطوير ملكاتهم الأدبيّة و النّقديّة لعلمهم أنهما من أخصب الميادين التي تمرّر عبرها المشاريع الثّقافيّة بأنواعها .

أدرك علماء الجمعية تمام الإدراك نقطة البدء نحو النهضة الكبرى ،و الميادين التي ينبغي إصلاحها و هي مجالات ثقافيّة بحتة ،ساعدهم في اكتشافها حسّهم النقدي و رصيدهم الثّقافي ممّا خلّف تراثا فكريّا ضخما هو من صميم النقد الثقافي بمعناه العام .

[1]عبد الرحمن شيبان،حقائق و أباطيل،ص38.

الفصل الثالث:المنهج الإصلاحي الثقافي لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين

1الوسائل و الأساليب:

1-1التربية و التعليم

1-2المساجدوالمدارس

1-3الصحافة

1-4التوعيّة المباشرة

2شروط النهضة بين جمعية العلماء و مالك بن نبي

2-1شروط النهضة عند الجمعيّة

2-1-1العلم و الأخلاق

2- 1-2الشباب ودوره في النهضة

2-1-3المرأة و العلم

2-1-4الحريّة

2-1-5الجماعة

2 -2شروط النهضة عند مالك بن نبي :

2-2-1مكوّنات الحضارة(الإنسان،التراب،الوقت)

2-2-2الاستقلال الفكري و البعد عن التبعيّة

2-2-3الفكرة الدينيّة

2-2-4الموازنة بين أفكار الجمعيّة و أفكار بن نبي

الفصل الثالث:المنهج الإصلاحي الثقافي لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

تسعى كل حركة ثقافيّة أو سيّاسيّة أو دينيّة إلى إدراك غايات معيّنة، فتبذل في سبيل ذلك الجهود الجبّارة ، والأموال الطّائلة ، والأوقات الثّمينة بهدف تحويل إنتاج تلك الحركة إلى ثقافة لدى شرائح واسعة من مجتمعاتها ،لكن لا يتحقّق ذلك ما لم ترتسم خطّة محكمة تسير وفق منهجيّة واضحة المعالم،ولأن الجمعيّة ذات مهام متنوّعة، وباعتبارها بلغت من التنظيم والاحترافيّة مبلغا مهمّا ، رسم علماؤها خارطة طريق متوسّطة المدى مكّنتها من الاهتمام بمداخل الإصلاح في الأمّة و التي هي من أوكد الواجبات على الإطلاق، ليكون لبّ المشروع النهضوي هو ضرورة المحافظة على الثّابت من الحضارة الإسلاميّة و بالتّالي حفظ الشخصيّة من الاستلاب"فشخصيّات الأمم منها جوهر ومنها عرض ، وإنّ الجوهر منها هو الصّالح للبقاء،وإنّه لا بد للفرد و الجماعة من تكييفه كما يشاء ،أو كما تشاء وأنّ تطوّره موكل إلى تدبير المجتمع لا إلى تدبير الجماعات، وأنّ الغرض منها هو محلّ التبديل و التغيير ،يصلح لزمن فيؤخذ ، و لا يصلح لآخر فينبذ ، فالمحافظة على جوهر المقوّمات ليست محافظة ، وإنّما حفظ للقوميّة من الاندفاع و التداخل ، وعماد لها أن تتداعى و تسقط، وأمّا الأعراض فهي قشور تتحوّل و تزول كأوراق الخريف توجد و تعدم و الشّجرة شجرة"[1]

التركيز كل التركيز منصب على الأصول ، وضرورة الحفاظ عليها،لكن هذا المشروع و كغيره من المشاريع احتاج قسرا إلى وسائلَ و أساليب ، كما احتاج إلى شروط وتطبيق للنظريات على أرض الواقع في إطار عملي ،لذلك اتخذت الجمعيّة لتطبيق برامجها و إرساء مبادئها وتحقيق أهدافها طرقا ووسائل تستطيع بواسطتها التواصل مع أطياف الشعب الجزائري على اختلاف مشاربهم و تنوع توجّهاتهم ،نستطيع تلخيصها فيما يأتي:

1 الأساليب و الوسائل :

1-1التربية و التعليم:

ميدان التربية و التعليم هو الأصل في كل حركة إصلاحيّة مهما كان نوعها، فالإصلاح الشّامل و العميق هو الذي يبدأ من عالم الفكر و العقل، ومنهج التفكير ، فيغدو أساسا لبناء الأمم

[1]أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1،ص15.

لأن المجتمع يقوم على مدى ثقافة أفراده كمّا و كيفا و نوعا، إذ ورد في معجم مصطلحات علم الاجتماع أن التعليم بالإمكان أن يوجّهنا "نحو مسؤوليّات المواطنة، ويمكن أن يوجّهنا نحو قيّم وتوقّعات ثقافيّة متشاكلة نسبيّا لجماعة تقليديّة"[1]،ومنه فمنزلة التعليم من الإنسان تضاهي منزلة الهواء،فالعلم هو المخوّل له الحديث عن الواقع الثقافي و انعكاساته على المجتمع، حتّى ورد في نفس المعجم قولهم"و خذوا الكلمة التي تبيّن بمرجعيّة أكبر الأساس الثّقافي للحديث باسم الواقع و العقل و الحقيقة:العلم"[2].

خطت الجمعيّة أولى خطواتها في هذا المجال باعتباره الأرضيّة الخصبة لأي مشروع ولقد تنوّعت فيه الجهود بين محاضرات توجيهيّة ، ودروس وعظيّة إرشاديّة تقدَّم للعامّة، فيما تقدّم دروس لأبناء الجزائريين في غير أوقات دراستهم في المدارس الفرنسيّة لتلقينهم مبادىء القراءة و الكتابة باللّغة العربيّة ،ومبادىء الدّين الإسلامي ، وتاريخ الإسلام والجزائر وجغرافيا الجزائر و العالم العربي الإسلامي حتّى يرتبط هؤلاء الأطفال منذ الصغر بالحضارة العربيّة الإسلاميّة، وبوطنهم الجزائر،ولا يذوبون في الوسط الذي يعيشون فيه[3]"فالأمم الحيّة في وقتنا ما حييت إلّا بالعلم الاختباري التطبيقي ، وأساس هذا العلم وإن علا القراءة و الكتابة،ولمّا انتهى العلماء منهم إلى أبعد غاية وأعلى ذروة التفتوا يتبيّنون الطريق التي وصلوا منها إلى هذه الغايات البعيدة، فرأوا أنّ مفتاح الباب الذي منه دخلوا ومبدأ الطريق الذي منه وصلوا هو(ألفباء) ،و أنّ أوّل منعم عليهم بهذه النعم الجليلة هو أوّل من علّمهم هذه الحروف الضئيلة(...)،فهناك جهود تبذل و أموال تصرف، و طرائق تخترع للقضاء على الأميّة واقتلاع جرثومتها الخبيثة لأن القوم يعتبرونها كما هي في الواقع آفة اجتماعيّة مهلكة(...)و نحن نرى ظلّها كل يوم يتقلّص بين هذه الأمم،و طوفانها ينحصر حتّى ليوشك أن لا يبقى في بعضها أميّ واحد"[4].

هذا الكلام يعزّز موقف الجمعية تجاه التربيّة و التعليم و أهميّتها في رقي و ازدهار الأمم، كما أنّه دليل على تفتح العلماء و حثّهم على المضي قدما نحو ما وصلت إليه الأمم من تقدّم ،و اتباع

---

[1] طوني بينيت،لورانس غروسبيرغ،ميغان موريس،مفاتيح اصطلاحيّة جديدة،عجم مصطلحات الثقافة و المجتمع،تر:سعيد الغانمي،المنظمة العربيّة للترجمة،ط1،بيروت 2010م،ص201.

[2] نفسه،ص504.

[3] ينظر تركي رابح عمامرة،التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1955)،ص204.

[4] عبد الرحمن شيبان،سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،ص93،94.

النهج الذي سلكته ما لم يختلف مع الشّرع و العرف ، وبذلك كانت الجمعيّة تقريبا أول هيئة اجتماعيّة فكّرت في محاربة الأميّة بصورة منظمّة "فلقد كان المجتمع الجزائري في القرن العشرين و بالتحديد في الفترة الممتدّة بين العشرينات و الأربعينات كأنّه مجتمع خارج لتوّه من مجتمعات القرون الوسطى"[1].

بدأت معجزة البعث تتدفّق من كلمات ابن باديس ، وكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخذّر يتحرّك "ويا لها من يقظة جميلة مباركة ،يقظة شعب مازالت مقلتاه مشحونتين بالنوم،فتحوّلت المناجاة إلى خطب و محادثات ، ومناقشات و جدل ، وهكذا استيقظ المعنى الإجمالي ،وتحوّلت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب ،فتساءل الناس كيف نمنا طويلا؟،وهل استيقظنا حقّا ؟وماذا يجب أن نفعل الآن؟ ولقد كانت هذه الأسئلة على شفاه قوم غمرتهم الدهشة،وما زالوا يتقلّبون في خدر النوم يتلمسون منه فكاكا"[2]

اتخذ علماء الجمعيّة من التعليم و التربيّة سيّاسة للإصلاح الثقافي و الاجتماعي و السيّاسي فأهداف التربيّة عندهم تشمل ذلك كلّه ، ومن أهدافها كمال الحياة الفرديّة و الجماعيّة ، فهو إذن هدف مزدوج فردي جماعي ،وعليه استوعبت الجمعيّة إلى حدّ بعيد مفهوم الإصلاح الثقافي ، و المراحل الإجباريّة التي يجب أن يمرّ عليها المصلحون، كما أدركت علاقته بواقع المجتمع الجزائري الخاص تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي ، الذي سعى إلى القضاء على العقول قبل الأبدان،وما يرويه البشير الإبراهيمي عن رفيقه ابن باديس و عن منهجيّته في التربيّة قال"وكان من طريقته في التربيّة أن يرمي إلى تصحيح الفكر،وصقل العقل وترقيّة الروح ،وتقويّة الخلق ،وتسديد الاتجاه في الحياة ، وأنّه يستخرج من قواعد العلوم التعليمية قواعدَ للاجتماع ،وينتزع منها دروسا للتربيّة و الأخلاق ضمن القواعد الاصطلاحيّة المعروفة كقولهم مثلا :الفاعل مرفوع و العامل يتقدّم فمن الأمثلة هذه الجمل المبتذلة الدّائرة على الألسن في دراسة العلوم ، كان يستخرج من معانيها اللّغويّة نظريات اجتماعيّة طبيعيّة ككون الفاعل العامل المرفوع القدر عند الناس ، وككون العامل يجب تقديمه على الكسلان العاطل في جميع المقامات"[3].

[1] سعد فهمي ،حركة عبد الحميد ابن باديس ودورها في يقظة الجزائر،ط1،دار الرحاب،بيروت،1983،ص90.
[2] مالك بن نبي ، شروط النهضة،ص24.
[3] أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ص139.

إنّ التربيّة كما أوردنا آنفا تستوعب و تشمل كل أنواع الإصلاح كما أنّ من بين القرارات التي أسفر عنها المؤتمر الإسلامي 1936م بقيادة ابن باديس المطالبةُ بإجباريّة التعليم الابتدائي للجزائريين ،أسوةً بأبناء الأوربيين مع حريّة التعليم باللّغة العربيّة ،و المحافظة على الشخصيّة الإسلاميّة للجزائريين ،ولأن العلم هو حجر الزّاوية الذي ينبغي أن ينطلق منها كل مصلح وإليه يعود ،عدّه علماء الجمعيّة من الوسائل الفاعلة في تحقيق الحريّة و الاستقلال ،بل هو الرّكيزة الأساسيّة لتحقيق ذلك ،وفي هذا يروي الإبراهيمي ما كان يدور بينه و بين ابن باديس في موسم الحج من عام 1913م،حول الحلول المقترحة للاستقلال قائلا:"فكنّا نجمع أنّه لا وسيلة لذلك إلّا العلم تُنشر أعلامه ، و الجهل ينقشع ظلامه،ثم تصوّر الخواطر لي و له مدارس تشاد للنشء و ألسنة تتفتّق على العربيّة ،و أقلاما تتشقّق على الكتابة"[1]

لا يخفى على أحد ما للمدرسة من أهميّة في المحافظة على المقوّمات الرئيسة للجماعة خاصّة أنّها هي التي تعدّ الأطفال ليكونوا أعضاءَ صالحين فيها و ذلك بتزويدهم بالتّراث الثقافي الخاص بها ،بهدف دمجهم في مجتمعهم و تطبيعهم بالطّابع الخاص لأمّتهم بواسطة برامجها ،ونشاطاتها التربويّة المختلفة،لذلك كانت إحدى وظائف المدرسة المحافظة على التراث الثقافي للجماعة[2]، يقول الأستاذ مصطفى بن حلوش:"وحاجةُ الأمم إلى التعليم الابتدائي واحدة لا تختلف ما دام هذا التعليم يقوّم الخلق ،ويهذّب الطبع ،ويحفظ اللّغة في لسان الطفل و الإيمان في قلبه و القوميّة في شعوره، و الذّود عن الحمى في شجاعته ، والاعتزاز بتاريخه في همّته و الافتخار بتراث أسلافه في كبريائه"[3]

و غاية التعليم هي تفقيه المتعلّم في دينه ولغته، و تعريفه بنفسه ويكون ذلك بمعرفة تاريخه و أصوله،فاللغة العربيّة صلة بين أهل الأمّة و أسلافهم وهي أصل الثّقافة الإسلاميّة لأن فهم القرآن الكريم و السنّة المطهرّة متوقّف على فهمها ،ليكون الحفاظ عليها حفظ لهويّة ومقوّمات الأمّة، والغرض الأكبر من تعليم اللّغة العربيّة هو أخذ العبرة من الثقافة الإسلاميّة ومتى لم تصل اللّغة العربيّة بأبنائها إلى هذا المستوى ،فلا يمكن البتة التنبؤ بنجاحها ، كما أنّ التركيز ليس حكرا على التثقيف الديني فحسب ،بل يدخل في الاعتبار تثقيف العقول بالعلوم الأخرى

[1]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ص140.
[2]ينظر،عبد الرحمن شيبان،من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،ص35.
[3]عبد الرحمن شيبان،سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،ص124.

فبالالتفات إلى الأمم التّاريخيّة حيّةً و بائدةً،يظهر أنّ الإرشاد هو سبب تقدّمها ورقيّها و المرشدون هم من بثّ المعارف في العقول وبهم عرف النّاس عظماء الإنسانيّة قديما وحديثا[1]

1-2المساجد و المدارس:

على المسجد أن يسعى لنشر الثقافة العربيّة الإسلاميّة التي ينبغي أن تكون في قلب كل مسلم،و عليه أن يسعى لتنقيّتها و تصحيحها حتى يؤدّي الواجب المنوط به ، فالمسجد ليس مجرّدَ فضاء لأداء الصلاة ،وإنّما هو أيضا فضاءٌ من فضاءات التعليم، و من الأمثلة الحيّة على ذلك الزيتونة و الأزهر والقيروان وغيرها من منارات العلم و المعرفة في مختلف التخصّصات ،ومما يثبت بعد نظر الإمام و أقرانه هو سعيهم إلى بناء كليّة دينيّة تكون عبارة عن مسجد من مساجد العاصمة العظمى ،أو مساجد قسنطينة ،ثمّ تكون جميع مساجد القطر فروعا لها،ها نحن اليوم بعد مرور أزيد من ثمانين عاما نعيش على مشروع بناء المسجد الأعظم بالعاصمة الجزائر،وهو مشروع يُشبه أو يقترب إلى حدّ ما إلى ما كان يصبوا إليه الإمام وهذا دليل على سعة فكر الرجل و بعد نظره واستشرافه للمستقبل.

يرى الإمام عبد الحميد ابن باديس أنّ مهمّة المسجد يجب أن تكون تثقيفيّةً تعليميّةً بالإضافة إلى مهمّة أداء الصلاة فيه"فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة ،فكما لا مسجد بدون صلاة،فكذلك لا مسجد بدون تعليم،وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة،فلا إسلام بدون صلاة، و لا إسلام بدون تعليم"[2] فبالإرشاد الحق من المرشدين البصراء ذوي النيات الصّادقة استقامت الحياة البدنيّة على أسس متينة قويّة،وتثقيف العقول بالثّقافة الدينيّة عن رسول الله صلى الله عليه و سلّم،و الثّقافة الدّراسيّة المتلقاة عن أهلها من علماء الإنسانيّة[3] و إلى جانب المسجد سعى علماء الجمعيّة جاهدين إعادة المدرسة الجزائريّة إلى عهدها الذهبي من خلال نشر الثقافة العربيّة الإسلاميّة ،و مقاومة سيّاسة التبشير التي انتشرت على نطاق واسع في المدارس.

[1]ينظر المرجع السابق،ص135.
[2] نفسه ،ص100.
[3]ينظر نفسه،ص135.

ومما يدلّ على اهتمام العلماء بالتربية و التعليم هو فتح عشرات المدارس الابتدائيّة الحرّة لأبناء الجزائريين الذين لم يتردّدوا للالتحاق بها ،فالمدرسة عند ابن باديس تمثّل المحطّة الأولى إلى تحقيق النهضة"إنّ الحياة تنبعث من المدارس ،فيجب أن تكون المدارس أوّل ما نهتمّ به و نسعى لتحقيقه ،وكل من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمّة و نهضتها"[1]وقد تم افتتاح هذه المدارس وانتشارها عبر التراب الوطني بانتظام و تسارع ،ففي عام 1944م فتحت الجمعيّة أزيد من سبعين مدرسة ،وقد بلغ عدد المدارس سنة1955م أكثر من مائة و خمسين مدرسة ابتدائيّة حرّة يتردّد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ من أبناء الأمّة الجزائريّة بنين و بنات يدرسون مبادىء لغتهم ،وآدابها وقد تخرّج منها عشرات الآلاف ، هذا بالإضافة إلى معهد ابن باديس الثّانوي الذي أسّسته الجمعيّة عام 1947 م و تخرّج منه على مدى سنوات نشاطه مئات الطلبة الذين صاروا بعد ذلك من أطر الدّولة الجزائريّة بعد الاستقلال لأن التعليم عند الجمعيّة سلك طريقا معتدلا حتّى وصل بالطّلبة إلى هذا المستوى"فالابن الذي يتعلّم تعليما إفرنجيا محضا يفني في عمله،وينكر أكثر أو كل ما يتصل بقوميّته و أسرته،و تصير كل صفة خلقيّة ،أو عملهم من صفاته نقصانا في حقّه ، فلا يجمل به و هو المتعلّم أن يتحلّى بها أو يبدو منه حنان إليها ، وغاية الانسلاخ من قوميّته ، و الاندماج في قوميّة غيره، وذلك شرّ ما يستعيذ بالله منه (...)و لو كان من رجال الجمعيّة رجال يجمعون بين الثقافتين العربيّة و الإسلاميّة لاقترحت إنشاء جريدة دينيّة تكتب باللّغة الفرنسيّة لإنقاذ شباب كثيرين من براثن التفرنج والاندماج وإفهامهم أن حاجة الحياة لا ينافيها الدّين ، بل هو عليها أعظم معين"[2]

لا ترى الجمعيّة من حرج في الاستفادة من تجارب السّابقين و الأخذ عنهم ما لم يتعارض ذلك مع الدّين و العرف ، ولا مانع أيضا من تطوير ما استفدناه حتّى يتماشى مع مصالحنا وهذا ما كان يهدف إليه الشيخ السعيد الصّالحي "وهذه الأمم الحيّة لمّا اقتبست من آبائنا كيفيّة التعليم ما غفلت لحظة عن زيّادة التنظيم،بل بحثت و فكّرت و استنبطت و اخترعت طرقا مفيدة (...)أفلا كان الأسمى أن نسير وفق البرامج الأوربيّة ،إذ قد نقّحوا ، وهذّبوا و بحثوا،ونقبّوا في كل كتاب وبلاد،فلنسر على ذلك المنهج مترجمين و منقحين بانفتاح من تلك البرامج إن احتجنا

[1]عبد الرحمن شّيبان ،حقائق وأباطيل،ص216م.
[2]عبد الرحمن شيبان ،سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،ص190،191.

لذلك ، و لا بدّ من الاحتياج ، أفلا كان الأجدر بنا أن نجعل نهايةَ بحوثهم بداية تنقيبنا كما فعلوه في طليعة نهضتهم فلنقتبس منهم صناعة التعليم فقد درسوها حقّ الدّراسة ، ولنطلب بعد ذلك الزّيادة"[1]

ورد في المادّة74 من القانون التأسيسي للجمعيّة ما يلي:"تعنى الجمعيّة بترغيب أعضائها العاملين في اقتناء الكتب النّافعة كأمّهات التفسير و الحديث و فقهه و اللغة و الأدب و الأخلاق و التّصوّف العلمي ، و التّاريخ و ترشدهم إلى إيمانه،و ترغبهم بالمطالعة و الفرض من ذلك هو تنميّة ملكة الاستذكار و الوصول منها إلى العلم الاستدلالي "[2]

الظاهر أن الجمعية تنحو منحى المحافظة الإبداعيّة التجديديّة البعيدة عن التعصّب و الرجعيّة في مقابل المحافظة التّقليديّة التي ترفظ كلّ جديد وإن حمل في طيّاته الخير الكثير للبلاد و العباد و هي المحافظة التي ترفضها رفضا قاطعا.

1-3الصحافة:

إن للصحافة تأثيرا بالغا في حياة المجتمعات فرادى و جماعات في مختلف ميادين الحياة وقد استفادت الجمعيّة أيّما استفادة من هذا المصدر الحيوي لتحقيق غايتين تلتقيان عند هدف واحد و هو تحرير العقول و الأبدان معا ، و لتحقيق هذه الغايات اتخذت من الصحافة منبرا تنشر منها أفكارها و تبث من خلاله الوعي في نفوس الجزائريين حتى يعرفوا واجباتهم و يطالبوا بحقوقهم و ذلك عن طريق تذكيرهم بماضيهم التّليد الذي حاول الاحتلال جاهدا طمسه،وهذا حتّى يبثّوا النخوة في النّفوس ،أمّا ثانيها فهو التصدّي للمشاريع الهادفة إلى طمس الهويّة و تغييب التّاريخ، وهدم الشخصيّة القوميّة للجزائريين ، وهي مشاريع صليبية تضليلية تغريبيّة تجهيليّة.

و لقد انشأ علماء الجمعيّة عددا من الصحف و المجلات حتى قبل تأسيس الجمعيّة ذاتها،فشارك الإمام ابن باديس في تأسيس جريدة المنتقد 1925م،حيث صدر منها ثمانيّة عشر عددا قبل أن يوقفها الاستعمار ، وأسّس الإمام نفسه بعد توقيفها جريدة الشّهاب التي تحوّلت إلى مجلّة شهريّة واستمرّ ظهورها إلى أن أوقفها الإمام نفسه سنة 1930م،كما شارك الشيخ الطيب

[1] المرجع السابق ، ص210.
[2] عبد الرحمن الشيبان،من وثائق جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،ص67.

العقبي في تأسيس جريدة صدى الصّحراء لمحمّد العابد العقبي 1925م،ليؤسّس بعد ذلك جريدة خاصّة به هي الإصلاح التي بدأت في الظهور سنة 1927م[1].

قبل تأسيس الجمعيّة كانت الفكرة واضحةً متجليّةً في عقول أفرادها ،فكانت تحتاج إلى لملمة هذه الجهود و عملها تحت راية واحدة اصطُلح على تسميّتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،و أنشأ علماء الجمعيّة تحت هذه الرّاية جريدتي الشريعة المحمّديّة و السنّة النبويّة ثم جريدة الصراط السويّ،غير أنّ الإدارة الاستعماريّة سارعت إلى منع هذه الصحف وتعطيل صدورها الواحدة تلو الأخرى،أمّا لسان حال الجمعيّة و أعني جريدة البصائر فقد تأسّست عام 1935م،التي كافحت من أجل اللّغة العربيّة و الثّقافة الإسلامية و حملت على عاتقها راية البيان العربي ،وإرجاع الإسلام إلى عهده الزّاهر ، وتصارعت مع الإدارة الاستعماريّة دفاعا عن مؤسّسات الجمعية و مبادئها[2]

أمّا الشيخ أبو اليقظان فله من الجهود الجبّارة ما تُذكر فتشكر في هذا المضمار قبل و بعد تأسيس الجمعيّة ،فالرجل لم يكلّ و لم يمل من تأسيس الجرائد الواحدة تلوى الأخرى رغم المعارضة الشّديدة من إدارة الاحتلال ،حيث أصدر في أكتوبر 1926م العدد الأوّل من جريدة وادي ميزاب، التي ضلت تصدر بصعوبة حتّى تاريخ توقيفها عام 1929م،لينشأ بعدها جريدة ميزاب التي لم تر النّور،فقد حجزت السلطات العدد الأوّل منها،ومنعت صدورها ،ولم يتوقّف الرجل عند هذا الحد فأنشأ جريدة المغرب 30جوان 1930م،التي استمرّت في الظهور إلى مارس 1931م،ثم النور (15سبتمبر1931م/30ماي1933م)،فالبستان (1جوان 1933،23جويلية من نفس السنة)،والنبراس(21جويلية1933،سبتمبر من نفس السنة)ثم الأمّة التي عمّرت أطول من سابقاتها أي(سبتمبر1934م،24ماي 1938)الفرقان(6جويلية1938 و لم يعرف تاريخ توقّفها)[3]، فأيّة إرادة و أي عزم وأيّة همّة كان يملكها الرجل ، بعد كل هذه الجهود لا ينبغي أن نتفاجأ من المنزلة التي وصلت إليها الجمعيّة في نفوس الجزائريين ، ولا من درجة التأثير الذي أضحت تحدثه في قلوبهم و عقولهم يومئذ.

1 ينظر مسعود فلوسي،دور جمعة العلماء في مواجهة المشروع الاستعماري في الجزائر،موقع مركز الأصالة للدراسات،تاريخ الإنزال28ماي2015.

[2]ينظر أحلام بالولي،أدب المقال عند البشير الإبراهيمي عيون البصائر أنموذجا،رسالة ماجيستير،ص36.

[3]ينظر نفسه ،ص38.

4-1التوعية المباشرة و الإرشاد:

من بين الأساليب التي اتبعها العلماء بغية تحقيق أهدافهم نجد في الواجهة الاتصال المباشر بجماهير الشعب ، نعني العامّةَ من النّاس الذين يمثّلون السواد الأعظم من أبناء هذا الوطن،فلقد حرص العلماء على الاحتكاك بهم و مخالطتهم في مختلف القرى و المدن ، وكانوا يلقون عليهم الخطب ، و المحاضرات الدّينيّة و السّياسيّة و الثقافيّة ، التي كانت تدور في الغالب بالتعريف بالجمعيّة و جهودها و مقاصدها و أعمالها و ما تستفيده الأمّة منها[1]

وقد كان ابن باديس أشدّ الناس حرصا على هذا النوع من النشاط حيث يقول تلميذه محمّد العنيزي:كان الأستاذ الرئيس لا يغفل جانب الشعب الكادح ،و المنتشر في أصقاع وطن تزيد مساحته عن مليونين و ثلاثمائة ألف كيلومتر مربع ،وتتباعد مدنه بمسافات كبيرة يكلّف السفر فيها في الغالب أكثر من خمسمائة كيلو متر بين مدينة و مدينة.

كما كان يزور بعض علماء الجمعيّة العمّالَ في فرنسا لتفقّد أحوالهم و دراسة ما يعترضهم من مشكلات و الإشراف على استيعابهم ، تربيّةً و تعليما لهم و لأبنائهم وقد خصّص لهذا الغرض من رجال الجمعيّة اثنان من كبار تلاميذ الإمام ابن باديس هما الفضيل الورثلاني و السعيد الصالحي.

هذه الجهود لم تذهب أدراج الريّاح ،حيث بدأت تظهر الثمار في فترة وجيزة ،وقد أسهمت في تغيير كبير في الذّهنيات و في البنية الثقافيّة للمجتمع الجزائري ،فانتشر التعليم العربي وازدهرت اللّغة العربيّة ،وانتعشت الحياة الثقافيّة ،وتطوّر الفكر الجزائري الحديث ،وظهرت نهضةٌ أدبيّة و فكريّةُ واسعة، ووجهت في المقابل رسالة شديدة اللّهجة للمستعمر المستبد ،يقول الإبراهيمي:"آثار أعمالنا في الشعب بارزة لا ينكره حتّى أعداؤنا من الاستعماريين ،وخصومنا من إخواننا السّياسيين ، فمن آثارنا بث الوعي و اليقظة في الشعب حتّى أصبح يدرك ما له و ما عليه ،ومنها إحياء تاريخ الإسلام و أمجاد العرب التي كان المستعمر يسد عليه منابع شعاعها حتّى لا يتسرّب إليه شيء من ذلك الشّعاع و منها تطهير عقائد الإسلام و عباداته من أوحال الضلال و الابتداع ،وإبراز فضائل الإسلام ، و إلى الاعتماد على النفس ،و إيثار العزّة و الكرامة، و النفور من الذلّ و الاستكانة و الاستسلام ،ومنها أخذ كل شيء بالقوّة ، ومنها العلم هذه الكلمة الصغيرة التي تنطوي تحتها جميع الفضائل ، ومنها بذل المال و النفس في

[1]ينظر أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج4،ص343،344.

سبيل الوعي و الوطن، ومنها نشر التحابب و التآخي بين أفراد المجتمع ، ومنها التمسّك بالحقائق لا الخيالات و الأوهام ، فكل هذه الفضائل كان الاستعمار يغطيها عن قصد ليتبناها المسلمون على مرّ الزمان ،بواسطة التجهيل و انزواء العقل و الفكر"[1]

بلغ الشعب الجزائري إلى كل هذا الوعي بفضل هؤلاء العلماء و ما بذلوه من جهود في خضم الرذائل التي مكّن لها الاستعمار ، وتبنت الفضائل التي جاء بها الإسلام ولو تأخّرت الجمعيّة بعشرين عاما لما وجد في الجزائر من يسمع صوتها"و لو سلكنا سبيلا غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمّة ، وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيضت وجه العرب و المسلمين ، ولو نشاء لقلنا أننا أحيينا اللّسان العربي والنخوة العربيّة،و أحيينا دين الإسلام و تاريخه المشرق و أعددنا لهما سلطانهم في النفوس وتأثيرهما على العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ و الأسوة ،فأحيينا بذلك كلّه الشعب الجزائري فعرف نفسه ،فاندفع إلى الثّورة يحطّم الأغلال ، و يطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر"[2]

لو لم تسلك الجمعية سبيل الإرشاد و الدعوة لما و صلت إلى ما وصلت إليه من نجاح قاد الشعب الجزائري لاحقا إلى التحرر،"و أي أمّة ذهب منها الإرشاد و المرشدون فعدّها في أموات الأمم وإن كانت حيّة تأكل كما يأكل الأنعام "[3]

2شروط النهضة بين جمعيّة العلماء و مالك بن نبي:

2-1شروط النهضة عند الجمعيّة:

أيّة حركة أو أمّة تروم تحقيق نهضة ،أو بناءَ حضارة ينبغي لها أن تتكىء على قواعد رصينة ،وبرامج ومناهج واضحة المعالم ، تنير الدرب و تحدّد الرؤية ،فالنهضة الإصلاحيّة لا تقوم على الارتجال و الفوضى ، وإنما تقوم على الفكر و التخطيط و التنظيم و الانضباط الذي يرسمه عادة علماء الأمّة بأفكارهم الفاعلة ،فالتغيير نحو الأفضل لا تصنعه إلّا الأفكار الحيّة ولا يوجه حركته إلّا المفكّرون المخلصون من العلماء و المثقفين،ذلك أنّه ليس من الهيّن على النّاس مهما كانوا أن يقبلوا بالتغيير أو التجديد إلّا بحذر و ترقّب، وجمعيّة العلماء المسلمين

[1]أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص287.
[2] نفسه،ج5،ص288.
[3]مرزوق العمري،الشيخ العربي التبسي و نشاطه الإصلاحي ،البصائر،ع699،7-13افريل2014.

الجزائريين هي التي حملت على عاتقها إقناع الناس فرادى وجماعات بجدوى التجديد و الإصلاح في الجزائر ، وهنا ينبغي القول أن التجديد عند الجمعيّة لا يعني الإزالة و الاستحداث ،وهدم الأصول و الابتعاد عن الجوهر،فالقيم العليا لحضارة ما لا يمكن أن تتغيّر فهي أصولها ومثالها العام و ينبغي أن يحدث التغيير بعيدا عن هذه الأصول.

إنّ التجديد في معناه العام يعني إعادة الأمر إلى أفضل صورة ممكنة له ،صافية من الشوائب و التغيرات ،ثم التفكير في الارتقاء و النهوض بالمجتمع فكريا و ثقافيا و اجتماعيا و أخلاقيا ،و الخطاب الإصلاحي عند رجال الإصلاح في الأمّة الجزائريّة يعني التجديد "وهو بمثابة التفكير السديد الذي يرى أن تكون الحضارة كظاهرة اجتماعيّة في ظل الظروف و الشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى(...)حضارة الإسلام في عصوره الزّاهرة "[1]
هذا يقتضي الثورة على الأوضاع الراهنة ،واستدعاء الماضي التليد ليأخذ مكانته الطبيعيّة في حياة الشعوب ،لذا يعرّفه ابن باديس "التمرد على الحاضر ،و الاستنجاد بالماضي لاكتساب الطاقة الحراريّة التي تنقل المجتمع الجامد إلى السير نحو مستقبله يخطّها بنفسه من صميم سلفية لا تنتعش إلّا لتندمج في الصورة الجديدة التي تنعش حضارة ما ،وتسير بها إلى الأمام "[2]
إنّ الرجل يرى ضرورة العودة خطوات إلى الخلف بهدف تحقيق قفزة نوعيّة نحو الأمام فالأمر على خلاف ما يعتقده البعض من كون الرجوع إلى الخلف زيّادة في الانحطاط و التقهقر ،بل مدار الأمر على أن القفزة تكون أطولَ و أقوى كلّما كان التراجع إلى الخلف أكبر ، و الإصلاح الحق يقتضي البدء من الأساس و الانطلاق من الأصول.

لكي يكون الإصلاح مجديا ينبغي أن يشمل كل مناحي الحياة لا جانبا واحد كالديّن مثلا إذ الحضارة من وجهة نظر وظيفيّة"هي مجموعة الشروط الأخلاقيّة و المادّية التي تنتج لمجتمع معيّن أن يقدّم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضروريّة له في هذا الطور،أو ذلك من أطوار نموّه ،فالمدرسة و العمل و المستشفى ونظام شبكة المواصلات ، و الأمن في جميع صوره،عبر سائر تراب الوطن،و احترام

1محمّد العربي ممروش ،مالك بن نبي و الاتجاه الحضاري في الحركة الوطنيّة بين الحربين 1920،1938،مجلّة الثقافة عدد85،ص206
2 نفسه ،ص207.

شخصيّة الفرد تمثّل جميعا أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد و يقدر المجتمع المتحضّر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"[1]

إنّ الحضارة و المجتمع يربطهما حبل وثيق، فكلاهما يحتاج إلى الآخر حتّى يكتسب شرعيّة وجوده ، فالمجتمع يحتاج إلى الحضارة حتّى يتطوّر و يطول عمره بين الأمم والحضارة بحاجة إلى الجماعة حتى تظهر نتائجها فيه.

"إنّ الشمول في العمل الإصلاحي من شأنه أن يكسب تجربة الإصلاح توازنا وتكاملا يؤمن معهما إهمال جانب من جوانب الفساد ممكن أن يستشري و يتضخّم فيأتي بالنقص على كل الجوانب الأخرى التي يتحقّق فيها الإصلاح،وكم من تجربة إصلاحيّة كان مآلها الفشل بسبب اقتصارها على معالجة جانب وحيد من الواقع و إهمالها لسائر الجوانب الأخرى"[2]

2-1-1العلم و الأخلاق:

يرى علماء الاجتماع أن الميدان الأكثر خصوبة ،الذي ينبغي أن ينطلق منه بناء الحضارة و تحقيق النهضة هو ميدان العلم، فلا سبيل للّحاق بالأمم الرّاقيّة و حضارتها إلّا البداية من حيث انتهت هي، فابن باديس و كغيره من علماء عصره يرى أنّ الحضارة الإنسانيّة هي دورات تتداولها الأمم و تنتقل بينها عن طريق التّأثير و التأثّر،و عليه فالحضارة الغربيّة حسبه ما هي إلّا امتداد لما وصلت إليه الأمم السّابقة عنها، و منها الحضارة الإسلاميّة التي تأثّرت بدورها بالحضارات السابقة عنها ، و في هذا يقول الإمام الرئيس"نقلت المدينة الإسلاميّة أصول المدنيّات السّابقة عليها نقل أمين ،ونحلتها نحل الناقد البصير وزادت عليها من نتائج أفكارها وثمار أعمالها ما كان الأساس المتين لمدنيّة اليوم"[3].

إنّ التفاعل الحضاري لا يُعد عيبا في عرف الحضارات ، لكن يجب أن يكون النقل بحذر و بصيرة، وهذا السر الذي جعل الإمام يحث على طلب العلم بأي لسان كان و عن أي شخص كائنا من كان ،بشرط أن يطبعه بطابعه الخاص لكي يتحقّق به الانتفاع المطلوب ، كما

[1]مالك بن نبي ،القضايا الكبرى،ص43.

[2]نور الدين سوكحال ،الشيخ بيوض إبراهيم و منهجه في الإصلاح،رسالة ماجيستير،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة،معهد أصول الدّين ،قسم الدّعوة و الإعلام ،قسنطينة،الجزائر،ص191.

فعل ذلك الأوربيون ، وما أخذوه عن أجدادنا و طبعوه بطابعهم الخاص،و عليه يجب أن ينقل المسلمون العلم إليهم بدل أن ينتقلوا إليه فالأمر دائر بين الاستفادة من الحضارة الغربيّة و بين الحفاظ على مقوّمات الأمّة الشخصيّة،"و جمعيّة العلماء ترى أن التعليم العربي الذي تسعى لحريّته ، و ترقيّته هو نوع من التعليم العام والذي هو وسيلة التثقيف،و التثقيف هو أشرف مقاصد الحكومات الرّشيدة"[1]

يرى علماء الجمعيّة أن الأمّة التي لا تُغيّر من حالها لن يكون بمقدور أيّ كان تغيير ما بها من جهل و انحطاط وتخلّف ، فهم ينطلقون من الآية الكريمة:"إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم"[2] ، وغاية العمل الإصلاحي لا تتحقّق إلّا إذا حدث التغيير في البنية الذّاتيّة للمجتمع الجزائري ،"فلن يصلح المسلمون حتّى يصلح علماؤهم (...)،و لن يصلح العلماء إلّا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطّابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته لنفسه ولغيره"[3].

لا بد للعلم أن يقترن بالأخلاق على سبيل التلاحق، إذ لا وجود لعلم بدون أخلاق ، ولا وجود للأخلاق إلّا بوجود العلم فالأمم حاضرة و بائدة"لا تقوم و لا تحفظ وجودها إلّا برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها ،ولهذا نجد الإسلام يأخذ في شروطه على أبنائه أن يتآمروا بالمعروف ،ويتناهوا عن المنكر،و يبديء في هذا المعنى و يعيد ، و يضرب الأمثال ،ويبين الآثار ، و يلفت لنفوس إلى الاعتبار بمن مضوا إلى سنن الله الخالية فيهم"[4]

إنّ الاستدمار سعى جاهدا إلى تجريد الشباب الجزائري من كل أنواع الحشمة و الحياء و الأخلاق و حثّ الخطى إلى جلب اهتمام النشء إلى كل ما يلهيهم عن مصالحهم ،و يجرّهم جرّا نحو شهواتهم ، فلا يهتمّون إلّا بسفاسف الأمور،ويغفلون عن التفكير في مآلهم و مصيرهم و الشباب هو رأس مال الأمّة، ينبغي أن تكرمهم بالعلم و التثقيف ،و حسن التربية و الأخلاق وكما قيل الأمّة التي لا تجعل الأخلاق ملاكها تتعجّل هلاكها.

1أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج3 ،عيون الصائر،ص49.
2سورة الرعد،الآية11.
3ابن باديس ،آثار الشيخ عبد الحميد ابن باديس،ج4،ص74.
4أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج1، ص134.

إنّ النهضة تستلزم الأخلاق الفاضلة بالإضافة إلى العلم النّافع القويم ، يقول الإبراهيمي أيضا مخاطبا طلبته :"لا يضرّكم ضعف حضّكم من العلم إذا وُفّر حضكم من الأخلاق ،فإنّ أمتكم بحاجة إلى الأخلاق و الفضائل ،إن حاجتها إلى الفضائل أشدّ و أوكد من حاجتها إلى العلم ،لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ،لكن من نقص في الأخلاق"[1]
فغاية التربيّة عنده هي توحيد الجيل الجديد في أفكاره و مشاربه و ميولاته و تصحيح مساره ونظرته للحياة ،فلا يراها إلّا وسيلة لتحقيق مآرب الدين والوطن بقوّة واحدة، ويؤكّد ذلك قائلا :"إنّ عدوّكم يعتمد على متانة الأخلاق ،قبل اعتماده على الحديد و النّار فأعدّوا له أخلاقا أمتن تفلو حديده و تطفئوا ناره (...)ابدؤوا بتحرير أنفسكم من نفوسكم وشهواتها و رذائلها ،فإذا انتصرتم في هذا الميدان ،فأنتم منتصرون في كلّ ميدان "[2]

2-1-2الشباب ودوره في النهضة:

يعدّ الشباب عماد كل نهضة تستهدف التحرّر،و أساس كل تشييد إيجابي يرمي إلى الحضارة باعتباره العنصر الأكثر فاعليّة في كلّ مجتمع ،و الأمّة التي لا تعتمد على شبابها يُحكم عليها بالفشل الذّريع في ميادين الحياة المختلفة ،وهي بدونهم غابةٌ بلا أشبال و حديقة بلا أزهار بتعبير الإبراهيمي،لذا أولت الجمعيّة فائق العناية بهذه الفئة لما تملكه من طاقات حيويّة تؤهلّها لبناء مجتمع متكاتف بعيد عن التخاذل و التكاسل،يقول ابن باديس في مطلع قصيدته التي احتوت الدستور الذي نادت به جمعيّة العلماء:

"يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصّباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب"[3]

والإبراهيمي فيرى أنّنا بحاجة في الدرجة الأولى إلى تكوين مجتمع حيوي منتج يقول:"الحق الذي لا مراء فيه أنّه لا يوجد عندنا مجتمع منتج بالمعنى الذي نريده و يتمنّاه العقلاء منّا والمفكرون(...)إذن نحن محتاجون إلى تكوين مجتمع خاص تنتج عنه نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومّية، وألزم هذه اللّوازم أربع الدين و الأخلاق و العلم و المال"[4]

[1]أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمّد البشيرالإبراهيمي،ج4،ص296.
[2]نفسه ،ج4،308.
[3]عبد الرحمن شيبان،حقائق و أباطيل،ص72.
[4]أسعد السحمراني،الشباب في فكر الإمام محمّد البشير الإراهيمي،البصائر،ع243،6-13جوان 2005.

للوصول إلى هذا المبتغى وجب توجيه النظر إلى فريقين تقع على عاتقهما مسؤوليّة الإعداد والتكوين،أقصد اللذان يديران العملية التربوية و هم الأساتذة الذين يتوجب عليهم أن يتوفرّوا على المقومات الرئيسة التي تكفل لهم أداء مهامهم على أكمل وجه منها العلم و التربية و الأخلاق وبعد النظر لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وكذا الطلبة و هم السواد الأعظم من الشباب الذي ينبغي أن تكون تنشئتهم على العلم القويم و التنشئة النفسيّة والخبرة الضروريّة، جاء في المادة65 من القانون التأسيسي للجمعيّة "أول مقاصد الجمعيّة طائفة العلماء و الطلبة باستعمال كل الوسائل لحملهم على التخلق بالأخلاق الإسلاميّة ، وتذكيرهم بما غفلوا عنه ، وأهملوه من الأخوّة الدينية و الأخوة العلمية، و ما تقتضيانه من واجبات و حقوق ، وحملهم على الإتحاد و التعاضد ونبذ الشقاق و التّقاطع حتّى يكونوا مظهرا للفضائل الإسلاميّة ، عاملين بالحقّ هُداة به ، فهم من الأمّة بمنزلة القلب من الجسد تصلح إذا صلحوا و تفسد إذا فسدوا"[1]

اعتمد العلماء في سياستهم لصناعة التقدم على تكوين جيل الأمّة الأرقى والأقوى والأكثر أهليّة و هم جيل الشباب الذي لا سبيل لتحقيق النهضة و لا لاكتساب العزّة دون إعدادهم وتكوينهم وتثقيفهم على أسس متينة و في هذا وجّه الإبراهيمي نداءا إلى المعلمّين قائلا:"إن وطنكم مفتقر لجيل قوي البدن ،قوي الروح مستكمل الأدوات من فضائل و عزائم، و إنّ هذا الجيل لمنتظر تكوينه منكم"[2].

إن الشباب في كل أمّة هم الذين تقع على عواتقهم المهمات الجسام تجاه الأمّة و الدين و التراث و التاريخ و المستقبل ، و لا يوفّق في هذا ما لم يلتزم خط القيم التي تتوازن فيها الروح و المادّة و الكميّات مع الاجتماعيّات أي القيم الإنسانيّة لأن الأخذ بالفكر الوافد القائم على الماديّات هو الذي يلقي بالشباب إلى موقع خارج حدود الأمّة.

2-1-3المرأة و العلم:

سعى الاستعمار جاهدا لضرب استقرار المجتمع الجزائري في الصميم من خلال توجيه النظر إلى أكثر مكوّناته حساسيّة متمثّلة في المرأة التي تعتبر شطر المجتمع ،حيث عمل على إفسادها

[1]عبد الرحمن شيبان، من وثائق جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،ص60 .
[2]أسعد السحمراني ،الشباب في فكر الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،البصائر،ع243،6-13جوان 2005.

من خلال تجريدها من كل معاني الحشمة و الحياء، قال أحدهم:"إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم بنيته و في قدراته على المقاومة فيجب علينا قبل كلّ شيء كسب النّساء و يجب علينا السعي للبحث عنهن خلف الحجاب حيث يتوارين و في المنازل حيث يخفيهنّ الرجل"[1].

أدرك علماء الجمعيّة أنّ أحسن ردّ على مكائد الاستعمار هو تزويد المرأة بمختلف العلوم التي تؤهّلها للتصدّي إلى حملاته المُغرضة التي تدفعها دفعا نحو التخلّي عن أهمّ مقوّمات هويّتها بالموازاة مع تكوين الرّجال في هذا الجانب حتّى يسمحوا للبنات بالتعلّم ، فطلب العلم عند الجمعيّة ليس حكرا على الرجّال دون النساء ،بل تعليم المرأة أمر مطلوب و محمود لتستقيم الأسرة المؤمنة،وتعرف حقوقها وواجباتها،إذ"من المؤسف المحزن أن تكون الأم وهي المدرسة الأولى جاهلة لا تعلم ، و ناقصة لا تكمل،و آسف من ذلك و أحزن أن يضاف إلى جهلها و نقائصها جهل الرجل و نقائصه، فتبقى مدرسة الأسرة عاطلة ،لا من ناحية الرجل و لا من ناحية المرأة..."[2].

تعليم البنات واجب على أن يرتبط ببعض الآداب و الإجراءات ،كفصل البنات عن صفوف الأبناء ،حتّى لا يتحرّج الآباء و لا المعلّمون ،على أن مدّة التعليم لا بدّ منهما لهما معا سواء للبنت أو الابن في رأي الأستاذ باعزيز بن عمر[3].

إن الخطاب الإصلاحي عند جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لم يهمل ضرورة الاهتمام بالمرأة ،وحسن تعليمها ،باعتبارها النصف الثّاني في المجتمع ، ولها كل الحق في التعليم ،مثلها مثل الرجل لا فرق بينهما في ذلك ،ففساد العقول و انحطاط الأخلاق شملا الأمّة ذكورا و إناثا.

وقعت المرأة الجزائريّة يومئذ بين نارين ،نار اكتوت بها من طرف أنصار و دعاة التقاليد القبليّة البائدة التي ما أنزل الله بها من سلطان ،كما اكتوت بنير الاحتلال الذي حاول تجريدها من حشمتها و سترها و شخصيّتها،و حاول رميها بين أحضان الفسق و الفجور الذي ميّز الحياة الغربيّة الفرنسيّة بحجّة تحريرها [4].

---

[1]فرانز فانون ،العام الخامس للثورة الجزائريّة،تر:ذوقان قرطوط،ط1،دار الفرابي ،لبنان،2004م،ص26.
[2]عبد الرحمن شيبان ،سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ،ص189.
[3]ينظر نفسه،ص121.
[4]ينظر علي ابن الطاهر،مبارك الميلي و جهوده في الحركة الإصلاحيّة في الجزائر،(1897،1945)،ص329.

يرى المبارك الميلي"إنّ المرأة شقيقة الرجل في الإنسانيّة ،فلتكن شريكته في التربيّة و التهذيب،فلا ينبغي أن تُحرم من ينابيع العلم و التربيّة ،و إنّها الأم و المدرسة الأولى التي فيها يتلقّى الأبناء معلوماتهم الأوليّة ،ثم إن الأنثى مكلّفة في حكم الإسلام بمثل ما يكلّف به الرجل لا يفترقان إلّا فيما يعود للقوّة والسّيادة كالإمامة و ولاية مناصب الحكم، وإلّا فيما يعود للضعف و الحنان فيختص بالأنثى ،كما أن المرأة شريكة الرجل في منزلته و قرينته في حياته لا غنى لأحدهما عن الآخر ،فلابد من تشاركهما في التهذيب و تقاربهما في التثقيف"[1]
نفهم من هذا أنّ النساء في نظر الخطاب الإصلاحي سواسيّة مع الرّجال في طلب العلم و تصحيح العقائد، و إذا كان الإسلام يكلف المرأة بما يكلّف به الرجال فلا معنى لإهمالها ،بل يعتبر هذا المنع عند طائفة من العلماء بمثابة تجنّي على المرأة و بخسها حقّا من حقوقها و فيه يرى المبارك الميلي أن مادام الإسلام قد جعل الرجال قوّامين على النساء ،فإن الإعراض عن تيسير طرق العلم عليهنّ ،و القيام بفروض دينهم جناية لا تعادلها جناية.

إن تعليم المرأة لم يكن مجرّد واجب قام به العلماء تجاهها ،بل كان بمثابة ردّة فعل قويّة تجاه الاستعمار،و خسارة فادحة تكبّدها هذا الأخير في سباق المعركة الثقافية التي فرضتها الجمعيّة ،فمثّلت في وقتها نوعا من المقاومة الفكريّة،و من ثمار النصر الذي حقّقته الجمعيّة تلك الحادثة التي أوردها عبد الله الناصح علوان في كتابه تربيّة الأولاد في الإسلام التي مفادها سعي الحكومة الفرنسيّة للقضاء على القرآن في نفوس الجزائريين عن طريق تجريد نسائهم من الحجاب ،وتلقينهن الثّقافة الفرنسيّة بلغتها و لباسها حتّى أصبحن كالفرنسيّات تماما"وبعد أحد عشر عاما من الجهود هيأت حفلة تخريج رائعة ،دُعي إليها الوزراء و المفكّرون والصّحفيّون (...)و لمّا ابتدأت الحفلة فوجىء الجميع بالفتيات الجزائريّات يدخلن بلباسهنّ الإسلامي الجزائري فثارت الصّحف الفرنسيّة و تساءلت :ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذا بعد مرور مائة و ثمانيّة و عشرون عاما،فأجاب لاكوست: وماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا"[2]

---

[1] عبد الكريم بولصفصاف ،جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنيّة الجزائريّة (1931،1945)،ص329

[2] عبد الرحمن الشّيبان ،حقائق و أباطيل،ص131،عن عبد الله الناصح علوان ،تربيّة الأولاد في الإسلام،ج2،ص801.

إجابة تلخّص تمسّك الجزائريّات بهويّتهن رغم المغريات ،والفشل الذّريع الذي مُني به مشروع الاستعمار،بالإضافة إلى استسلامه أمام سُلطان الدّين الإسلامي على قلوب و عقول الجزائريين فهو عندهم بمثابة دين و عقيدة و منهج حياة ومقوّم رئيس من مقوّمات عالمهم الثّقافي.

2-1-4الحريّة:

إنّ فهم مسألة الحريّة في فكر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لجدير بأن ييسر لنا فهم استراتيجيّة العمل الدّعوي ، و الكفاح الثقافي لهذه الحركة ،فالحريّة و الاستقلال عاملان في غاية الأهميّة في مسيرة بناء الحضارات و الأمم ، و هي في نظر الإمام الرئيس التمتع بجميع الحقوق التي هي للإنسان في حدود من النظام لا تتعداها إلى حقوق غيره،و هي من أقدس القيم و أعلى الأشياء التي يملكها الإنسان ،و يتعلّق بها و يمجّدها حتى تنال مكانا في النفوس بل هي عين الحياة بتعبير ابن باديس حين يقول"حق كلّ إنسان في الحريّة كحقّه في الحياة ،ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حريّة،المعتدى عليه في شيء من حريّته كالمعتدى عليه في شيء من حياته ،و كما جعل الله للحياة أسبابها و آفاقها جعل للحريّة أسبابها و آفاقها(...) و ما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة و السلام ،و ما أنزل عليهم الكتب ،وما شرع لهم الشرع إلّا ليعرّف بني آدم كيف يحيون أحرارا ،و كيف يأخذون بأسباب الحياة و الحريّة"[1]

فلا يمكن للإنسان أن يأخذ بأسباب الحياة ، ولا أن يسير قدما في مسارها ما لم يكن حرّا مستقّلا و يظهر شغف الرجل و سعيه للتحرّر في إشاعته للفظ الحريّة حتّى تألفه الأذن ،إذ من المعلوم أن الكلمة إذا ما تكرّر صداها على الأذن وقعت من النفس موقعا محمودا،و ترسّخت في القلوب الموصوفة بها ، فكان لتكرار كلمة الحريّة صداها في الآذان ،و شغفها في القلوب ولهفة لدى الشعب الجزائري ، وفي هذا الإطار يدخل وصف مؤسسات الجمعيّة بالحريّة فمدارسها حرّة و تعليمها حرّ، و معلّموها أحرار ، و مساجدها حرّة،وصحائفها حرّة[2]،قال البشير الإبراهيمي:"جاء الله بالإسلام دينا سماويّا عامّا كاملا ليحقّق للإنسانيّة آمالها في التحرير العام

[1]المرجع السابق،ص109.عن الشهاب،ج10،مج11،شوّال1354ه/جانفي1937م.
[2]أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص19.

فكان الإسلام هو دين التحرير ،و هو النبأ الذي كان أصحاب الأرواح الصّافيّة يترقّبونه و هي الأمنيّة التي كانت تملؤ نفوس المصطفين الأخيار من عباد الله ،ثمّ ماتوا قبل أن تتحقّق "[1]

أجمع رواد النهضة قديما و حديثا على أن الخضوع للظلم و الاستبداد للدولة التي تفتقر لحقوق الإنسان هو موت و هلاك ،و أن الحريّة التي يكفلها قانون عادل هي الكفيلة وحدها لتحقيق العزّة و الكرامة ،ولا شكّ أنّ علماء الجمعيّة قد صدروا عن القرآن الكريم ،و السنة الشريفة و الفطرة السويّة في إقرار دور الحريّة وضرورة انتزاعها إذا أرادت الأمّة أن ترتقي في سلّم الحضارات، فالقرآن الكريم كتاب هدى يخاطب العقل ، ويدعوا إلى الفطرة و يحثّ على التدبّر و إعمال الفكر فيما ينفع، كما يحارب التقوقع و التقليد الأعمى و يرغّب مقابل ذلك في الاجتهاد و لا يكون ذلك متاحا إلاّ تحت راية الحريّة بأنواعها، و المساواة بأتمّ معانيها بين جميع الناس أمام الله و الحق و العدالة و هذا الذي سعى الإمام إلى تحقيقه على المدى البعيد.

إنّ الإسلام دين يسعى إلى تحرير العقول و الأبدان ، و الحريّة هي موضوع جل الرسالات و أمانة كافة الرسل ،أليس أسمى الغايات التي يروم الأنبياء بلوغها هي تحرير العقول و القلوب و النفوس من عبادة الأوثان،و تحريرها من ظلاميّة الجهل و الطغيان؟ و لقد شاع لفظ الحريّة على لسان الصحب الكرام ،إذ ما زلنا نردّد ما جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا).

يسير الشيخ الإبراهيمي رحمه الله في هذا المسار فيرى أن الحريّة و الإحسان قاعدة عامّة لكل شيء حتّى للحيوان الأعجم، فقد حرّم الإسلام على الإنسان أن يحمّله ما لا يقدر من الأعمال أو أن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل فيه شيء من ذلك يبيع عليه جبرا بحكم الحاكم وأوصى بالرفق بالحيوان وصايا زاجرة ، و في الحديث أن امرأة دخلت النار في هرّة أمسكتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من هشاش الأرض ،وأن امرأة بغي دخلت الجنّة بسبب كلب وجدته يلهث على حف بئر ،فأدلت خفها و سقته ،أفلا يكون الإنسان أولى بالحريّة وأسبق؟[2]و"التحرير الذي ينشده الإبراهيمي هو تحرير عام شامل يشمل تحرير الإنسان

[1] المرجع السابق،ج4،ص357.

[2] ينظر أ.د أحمد ناصر سنّة ،مقال مشاعل النور ،ملامح الفكر التجديدي عند الشيخ البشير الإبراهيمي ، موقع الشيخ عبدالحميد ابن باديس،15،11،2014م،تاريخ الإنزال 8،2،2015م،ص7

و الأرض و الفرد ،والمجتمع ، تحرير الرجل و المرأة ، تحرير العقل و البدن،التحرير من الاستعمار الخارجي الذي غايته استغلال الأمّة ووسيلته سدّ أبواب العلم في وجهها حتى يتمّ له استغلالها ، ومن الاستعمار الداخلي الذي غايته تشويه محاسن الإسلام"[1].

إن مفهوم الحريّة عند جمعيّة العلماء يدخل ضرورة في تحديد مفهوم الأمّة،فهذه الأخيرة حسبهم كيان يرتبط بظروف تهيأ وجوده، و تبسط تحققه وأولاها الحريّة التي تحيل إلى القدرة على اتّخاذ القرار "فالأمّة المغلوبة على أمرها (...)لا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها ، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تستطيع أن تدافع عمّا تقرّره مع غيرها،وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليّتها فكيف يعتمد عليها في خارجيّتها.."[2]،و قيل في البشير الإبراهيمي من طرف والي وهران في رسالته إلى الوالي العام الفرنسي:"إن الإبراهيمي ليس فقط محرّكا للضمير العام ، ولكنّه أصبح المحرّك لكل الأنشطة السيّاسيّة المحليّة ذات الطموح المضاد لفرنسا"[3] و أي طموح مضاد لفرنسا أسبق و أوكد من طموح الحريّة و الاستقلال ، كما قيل عن الإمام الرئيس"إن صاحب الشهاب لم يكتف بوضع منهاج لتحرير الجزائر واستقلالها على أركان قيمها الذّاتيّة كما رأينا، بل دفعه إيمانه بأن استقلال الجزائر آت بحول الله و فضله، فوضع لها دستورا تعتمده عند استقلالها ،دستورا جمهوريا ديمقراطيّا قائما على الأصالة و المعاصرة بعنوان (أصول الولاية في الإسلام) وهو يتضمّن أعلى ما تنادي به الشعوب في مجال الحكم، وهو أن يكون أمر سيّادتها بيدها،وذلك في كنف الحريّة،و مراعاة حقوق الإنسان ،و الأمن و الكرامة و الوحدة،و التضامن و العدل اقتبسه من خطبة الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه و سلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه"[4]، فمن أركان قيّام الدّولة الحريّة بأنواعها و التي لا تغني إحدى حلقاتها عن الأخرى إذ العلاقة بينها علاقة سببية فتحرير الأرواح أصل لتحرير الأبدان و سبب فيه .

[1] المرجع السابق،ص8.
[2] عبد الحميد ابن باديس،آثار الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،ج3،ص398،399.
[3] أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص19.
[4] عبد الرحمن شيبان ،مقدّمة مجلّة الشهاب،ص96

2-1-5الجماعة:

لما كانت الجماعة هي التي تحدّد شكل مجتمعها الثقافي و الاجتماعي و الاقتصادي ،بما تحوزه من صلاحيات كفلها لها قانون البشريّة ،كانت العناية بها والعمل على تحقيقها غاية من غايات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ،و التي عدّتها عاملا من عوامل النهضة فسعت إلى"العمل على النهوض بالجزائر لاسترداد سيّادتها ،ومواكبة ركب الحضارة مع الأمم المالكة زمام أمورها ،السّاعية إلى ما فيه سعادتها و مجدها ،وكانت الوسيلة إلى تحقيق ذلك هو الإصلاح الدّيني و الاجتماعي التي اضطلعت به جمعيّة العلماء بأمانة و كفاءة..."[1]

أدرك العلماء أنّ تطوّر الجماعة كفيل بأن يضمن حياة أفضل على جميع المستويات لأن مسألة التطوّر أو الانهيار متوقّفة على إرادة المجتمع وغاياته، لذا عملوا على رفع سقف طموحاته وتحديد أهدافه.

لعل أول خطوة نحو النهضة التي تؤدّي إلى الحضارة ،و أوّل خطوة في طريق الحضارة إنما هي تكوين الإنسان ، وربط أفراد المجتمع في شبكة من العلاقات الاجتماعيّة لتحقيق هذا الهدف المشترك،يقول ابن باديس:"إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله،وإذا كانت لهم القوّة ،وإنّما تكون لهم قوّة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكّر و تدبّر وتتشاور و تتآزر(...)"[2].

أدرك العلماء معنى الوحدة و التضامن في ضمان استقرار الشعوب و استمرارية مسيراتها نحو التطوّر،لذا دعوا غير ما مرّة إلى الوحدة في الكلمة و الموقف بين جميع من شملتهم الثقافة العربيّة الإسلاميّة،و قد جعلوها ركيزة من ركائز النهضة، و هذا الذي يفسّر موقفهم من جملة القضايا التي تهمّ العرب و المسلمين، وهذا الذي يظهر اهتمامهم بقضايا المغرب العربي ،يقول الإبراهيمي:"طالما نعينا على المسلمين خصوصا و على الشرقيين عموما هذا التقاطع الذي شتّت شملهم، و فرّق جامعتهم،و صيّرهم لقمة صائغة للمستعمرين ، وطالما شرحنا للمسلمين أسباب التواصل و التراحم و التقارب الكامنة في دينهم،وأقمنا لهم الأدلّة ،وضربنا لهم الأمثال،وسقنا لهم المثلات ،وجلونا العبر،و كانت نذر الشرّ تتوالى فيتمارون بها و صيحات

[1]أحمد طالب الإبراهيمي ،،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج2،ص6.
[2]عمار طالبي،آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس،ج1،ص106.

الضحايا تتوالى فيصمّون عنها ،و الزمن سائر،و الفلك دائر،وهم في غفلة ساهون..."[1]،فالفرقة و الشتات هي أصل كل شرّ،والعود محميّ بحزمته ضعيف حين ينفرد،وقد صدق من قال:

"صوت الشعوب من الزئير مجمّعا فإذا تفرّق كان بعض نباح"[2].

لا حيلة للعرب إذن في مواجهة الاستدمار سوى الوحدة والتّكاتف ،فلا أقل من الإتّحاد في الكلمة و الرأي، والمصائب غالبا ما تجمع المصابين ،فيصبحون بحاجة ماسّة إلى الوحدة يقول البشير:"أينقم منّا الاستعمار أن نتناصر بالكلمة وهو سلاح المغلوب،ونتعاون بالأقلام و هي بقيّة العتاد المسلوب ،و تتعاطف منّا الأرحام وذلك أيسر مطلوب،إن صحّ ذلك منّا فلا رضي و لا حضي، ولازال عصبا جردا ،إنّنا لا نلومه إلّا إذا لمنا السباع الضارية على الافتراس وإنّما نلوم أنفسنا أن لا نكون شوكة في لهاته،ونغصا في شهواته ،وسوادا في لونه و كسادا في كونه، وضياعا في صونه، وخذلانا في عونه، ولو كنّا ذلك لأنصفنا و انتصفنا لأنفسنا منه..."[3]، لم تنس الجمعيّة القضيّة الفلسطينيّة، وسعت جاهدة لنصرتها باعتبارها قضيّة كل العرب، قال الإبراهيمي:"أيها العرب إنّ قضيّة فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم و هممكم و أموالكم ووحدتكم،و ليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم وإنّما هي للعرب كلّهم و ليست حقوق العرب فيها تنال بالشعريّات والخطابيات ،وإنّما تنال بالتصميم والعزم و الاتحاد والقوّة ،إنّ الصهيونيّة و أنصارها مصمّمون فقابلوا التصميم بتصميم أقوى منه وقابلوا الاتحاد باتّحاد أمتن منه،(...) أيها العرب أيها المسلمون إنّ فلسطين هي وديعة محمّد عندنا ،وأمانة عمر في ذمّتنا ،وعهد الإسلام في أعناقنا،فلئن أخذها اليهود منّا و نحن عصبة إنّا إذن لخاسرون"[4] ، ففلسطين أمانة عند المسلمين ،والمسجد الأقصى مقوّم رئيس من مقوّمات الهويّة الإسلاميّة و الالتفاف حول القضيّة الفلسطنيّة واجب محتّم على كل من يغار على الإسلام والمسلمين فالأمر يتعلّق بحفظ الهوّية و الشخصيّة الإسلاميّة،و في هذا يرى الإبراهيمي ضرورة اعتماد المنهج الوحدوي بعيدا عن الفرقة و الانقسام لأن أعداء الأمّة في كل عصر و مصر اعتمدوا سيّاسة فرّق تسد، و على الشباب اعتماد القاعدة القرآنية

[1] عبد الملك بو منجل،النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،ص70.
[2] أحمد البشير الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج5،ص189.
[3] نفسه،ص71
[4] نفسه،ص74،75.

(إنما المؤمنون إخوة)فالفرقة والانقسام داء دواؤه الوحدة و التماسك "إنّ النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا و شقاؤنا هي أنّهم أرادونا على الانقسام،و زيّنوه لنا كما يزيّن الشيطان للإنسان سوء عمله فأطعناهم و انقسمنا ، فوسّعوا شقّة الانقسام بيننا بأموالهم و أعمالهم و آرائهم و علومهم و لم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلّا حشدوها في هذا السبيل و لم يغفلوا الأستاذ والكاتب و الراهب و المرأة والتاجر والسمسار حتى بلغوا الغاية في تقسيمها شيعا و دولا و مماليك (...)أمّا و قد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون وأصبحنا في درجة من الضعف المادي و الضعف العقلي (...)فأول واجب علينا بل أول نقطة يجب أن نبتدىء منها السير ،هي أن نكفر بهذا الانقسام و نكفر عليه بضدّه و هو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء(...)و لنعتصم بالأمر الميسور و هو أن نوحّد التعليم و مناهجه و التجارة وأوضاعها و لنطمس هذه الحدود الفاصلة و ليرتفق بعضنا ببعض..."[1]، إنّ الانقسام داء دواؤه الوحدة و الاجتماع،و إذا ما أرادت الشعوب العربية الفلاح فلا مفرّ لها من التوحّد تحت راية العروبة و الإسلام ،"يجب أن تتضافر الجهود العربيّة على إلحاق آخر قافلتهم بأوّلها فإنّ بين الطرفين بعدا بعيدا،في الثقافة و التفكير و الاتصال بالعصر و أسباب الثورة ،وفهم الحياة وأوضاع الاجتماع ،وإنّ هذا التباعد هو أقوى أسباب التّنافر بينهم"[2] ،فالجماعة في الغالب الأعم هي وصف لشبكة قائمة من العلاقات ،تدل على ارتباط مثل القرابة و التراث الثّقافي و القيم و الأهداف المشتركة.

تعتبر الهويّة الوطنيّة من أهمّ مواثيق الشخصيّة الجزائريّة ،ولقد أولتها الحكومة الجزائريّة بالغ الأهميّة قبل الاستقلال وبعده ،فقد جاء في بيان أوّل نوفمبر 1954م في مادّته الأولى تحديد للهويّة بكونها ضمن إطار المبادىء الإسلاميّة و ضمن وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي الإسلامي، كما أنّها-الجزائر- جزء لا يتجزّأ من المغرب العربي و تراثها هو التراث الرّائع للحضارة العربيّة الإسلاميّة، فالشعب الجزائري المتعلّق بحضارته ينتمي إلى العالم العربي[3] "إنّ الشّعب الجزائري جزء ثمين من الأمّة العربيّة الماجدة ،مازال محتفظا بخصائص العروبة كأقوى ما يكون الاحتفاظ ،و من ثمّ فهو رأس مال العرب يجب أن يحافظوا عليه ،وهو كذلك جزء له قيمته من الأمّة الإسلاميّة العظيمة،مازال محتفظا بشعائره متصلّبا في عقائده الكريمة السمحة،و من ثمّ فهو رأس مال عظيم للمسلمين،يجب عليهم

1يوسف القرضاوي،مقوّمات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،البصائر،العدد245،20-27جوان 2005م.
2أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،ج4،ص376.
3ينظر، نفسه،ج5،ص54.

- حيثما كانوا – أن ينظروا إليه نظرة الأخوّة المقتضية للنجدة و النصرة"[1].

إن شعار الحركة الوطنيّة المتمثّلة في جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين هو الإسلام ديننا و العربيّة لغتنا ،و الجزائر وطننا،و هي مقوّمات الشخصيّة الجزائريّة التي لا سبيل للحياد عنها،فالجزائريّون لا يفرّقون عادة بين الإسلام كدين ووحي جاء لهداية الناس أجمعين وبين العروبة كقوميّة ،فالعروبة عندهم تعني الإسلام، و الإسلام يعني العروبة ،كما يعتبر التاريخ العربي الإسلامي أحد مكوّنات ضمير الشعب الجزائري، فهو الذي ربط الجزائريين بذكريات ماضيهم و أحداثه السّارة و الحزينة، فيستلهمون منه العبر و الدروس،و يتطلّعون بفضله إلى مستقبل أفضل ،فلا بد من التشبث بالهويّة القوميّة العربية و بالوطنية الجزائريّة حتى يكون واضحا عند كل شاب جواب سؤال من أنا ؟لأن ضياع الهويّة الدينيّة و القوميّة و الوطنيّة يجعل المسار خبط عشواء و يؤدّي إلى العبث و الفوضى و الضياع[2]

2-2شروط النهضة عند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن مشكلة كل شعب هي في الحقيقة في جوهرها مشكلة حضاريّة ،و لا يمكن البتة لأي شعب مهما كان أن يحل مشكلته ما لم يرتق بفكره إلى الأحداث الإنسانيّة و ما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها.

2-2-1توفّر مكوّنات الحضارة

لكي تتحقّق الحضارة و النهضة يجب للأمّة أن توفّر لها عناصرها التي تتمثّل حسبه في ثلاثة أشياء،الإنسان و التراب و الوقت وفيها يجب على العالم الإسلامي أن"يقتبس من الكيميائي طريقته فهو يحلّل أوّلا المنتجات التي يريد أن يجري عليها بعد ذلك عملية التركيب فإذا سلكنا هنا هذا المسلك قرّرنا أنّ كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية:ناتج حضاري=إنسان+تراب +وقت"[3]

[1] المرجع السابق،ج4،ص342.
[2] ينظر،أسعد السحمراني ، الشباب في فكر الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،البصائر،ع234،6-13جوان 2005.
[3] مالك بن نبي ،شروط النهضة،ص44.

الإنسان:إن مشروع بن نبي يعتمد على الإنسان كركيزة محوريّة في عمله الإصلاحي فالتغيير الهادف يجب أن ينطلق منه شخصيّا عبر تغيير نفسه والارتقاء بها إلى مصاف الإنسان المتحضّر فهو الوحيد الذي يملك الصلاحيّة لقيادة عملية البناء التي تفضي لاحقا إلى الحضارة يستند بن نبي في هذا لقوله تعالى **"إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم"**[1]،فالإنسان هو الهدف و هو نقطة البدء ،لأن مشكلة العالم قاطبة هي مشكلة أفكار ، و الإنسان هو الذي يملك عالم الأفكار الذي يقوده إلى اكتشاف إنسان الحضارة.

-التراب:هو المكوّن الثاني من مكوّنات الحضارة عند بن نبي ، و الحديث عن التراب في هذا المقام إنّما يعني به التراب كقيمة اجتماعيّة ،و قيمة التراب هنا تستمدّ من قيمة مالكيه ،فحينما تكون قيمة الأمّة مرتفعة ، وحضارتها متقدّمة تكون قيمة التراب ثمينة و العكس بالعكس،فقيمة التراب إذن قيمة ثقافيّة و اجتماعيّة،أي أنّها تشكّل معنى أيضا.

- الوقت: يقترب مالك بن نبي في هذا المجال من معنى الحديث النبوي الشريف (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ،الصّحة و الفراغ)،فاستهلاك الوقت ينبغي أن يفضي إلى عمل نافع ،ويربط الرجل فكرة الزمن بالتّاريخ فهو الكفيل بالتّأثير و الإنتاج ،و هو معنى الحياة الحاضرة.

2-2-2الاستقلال الفكري و البعد عن التبعيّة:

يذهب مالك بن نبي إلى ضرورة ابتداع بدائل فكريّة و مناهج علميّة تتناسب مع البيئة الإسلاميّة،فلا يمكن استنساخ كل ما عند الغرب الأوربي،وتطبيقه على الحضارة الإسلاميّة:"فلكل حضارة نمطها و أسلوبها و خيارها،و خيار العالم الغربي ذو الأصول الرّومانيّة الوثنيّة قد جنح بصره إلى ما حوله ممّا يحيط به: نحو الأشياء،بينما الحضارة الإسلاميّة عقيدة التوحيد المتصل بالرسل سبح خيارها نحو التطلّع الغيبي ، وما وراء الطبيعة:نحو الأفكار"[2] وعليه لا يمكن استيراد الحضارة و نقلها من بلد إلى آخر ، لأن الحضارة حسبه إبداع و ليس تقليد فبعض القيم لا تباع و لا تشترى ، و من هذه القيم نجد

[1]سورة الرعد، الآية 11.

[2]مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،تقديم عمر مسقاوي،تر:بسام بركة و أحمد شعبو،دار ط1،الفكر،دمشق، 1988،ص7.

الحضارة التي تعدّ إنجازا لا يمكن أن يوهب أو يشترى أو يستورد، لذا نجد الرجل يركّز على الإنسان المسلم ويحثّه حثّا على الفعاليّة فهو حسبه جوهر الحضارة، و هو في هذا يتفق تماما مع فكر علماء الجمعية الذين يرون أن نقل العلم وتكييفه مع الواقع الاجتماعي و الثقافي للأمّة أولى و أوكد من الانتقال إليه و بالتّالي فقد الكثير من مقوّمات الهويّة"فالأفكار لست منفصلة عن عالم الأشخاص على طريقة مثل أفلاطون بل إن ملحمتها تجري كلّها على الأرض حتى لا تمكننا مهما تحرينا من تجريد أن نفصل مغامرة فكرة عن مغامرة صاحبها فصلا تامّا"[1]

فلا يقاس غنى المجتمع بما يملك من الأشياء بل بمقدار ما فيه من الأفكار فهو عندما يفقد عالم الأشياء يستطيع إعادة بناءه بالأفكار و العكس غير صحح.

2-2-3الفكرة الدينية:

لا يغفل مالك بن نبي الجانب الدّيني في تشكيل الحضارة و تحقيق النهضة إذ يرى أن الفكرة الدّينيّة تتدخّل بطريقة أو بأخرى في التركيبة المتآلفة لحضارة ما"فنفسيّة الفرد في المجتمعات التّاريخيّة مفعمة بالنّزعة الدّينيّة تلك التي تعدّ جزءا من طبيعته ، وهو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان بأنّه حيوان دينيّ ،وهو بذلك يحدّد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع ،و كل فرد يبني شخصيّته الخاصّة على هذا الأساس"[2].

إن الظاهرة الدّينيّة هي ركن من أركان الحضارة عند مالك بن نبي فهو يرى أن تطوّر الحضارة الإسلاميّة أو حتّى المسيحيّة مردّه انطلاقهما من الفكرة الدّينيّة التي تطبع الفرد والمجتمع بطابعها الخاص ، و توجّهه نحو غايات معيّنة ، فالحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلّا بالعقيدة الدّينيّة" و ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الدّيني الذي بعثها و لعلّه ليس من الغلو في شيء أن يجد التّاريخ في البوذيّة بذور الحضارة البوذيّة ، و في البرهميّة نواة الحضارة البرهميّة "[3]

إنّ أفول حضارة من الحضارات يرجع أساسا إلى تخليّها عن فكرتها الدينيّة التي كانت سبب سعيها "و من هنا نستطيع أن نقرّر المدنيات الإنسانيّة حلقات متّصلة تتشابه أطوارها مع

[1] مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،ص125.
[2] نفسه ،ص64.
[3] نفسه،ص50.

أطوار المدنيّة الإسلاميّة و المسيحيّة ،ثمّ يبدأ أفولها بتغليب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الرّوح ثمّ العقل"[1].

الدين هو الذي يقوم بدور المركّب بين عناصر الحضارة الثلاث الإنسان و الزمان و التراب ،كتب مالك بن نبي عن أثر العقيدة الدينية في بناء الحضارة ، و بما أن العالم الإسلامي قد دخل مرحلة ما بعد الحضارة منذ عصر ابن خلدون أو عصر ما بعد الموحّدين فالمطلوب لإحداث البحث هو الدفعة الرّوحيّة ، و هو ما لم تقم به بعض حركات الإصلاح التي انطلقت مباشرة إلى مرحلة العقل مما تسبّب في تخطّي مرحلة جوهريّة[2]، أمّا في ما يخص الحضارة الإسلاميّة فهي لا تنفكّ عن غيرها من الحضارات"ومن المؤكّد أنّه عندما نتناول الحضارة الإسلاميّة فلا بدّ أن يدخل في اطّرادها بالضرورة عاملان هما:الفكرة الإسلاميّة التي هي أصل الاطّراد نفسه ،و الإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة"[3]،الدّين عنصر لا يمكن الاستغناء عنه في جزئيّة التركيب بين عناصر الحضارة الثلاثة الإنسان و التراب والوقت،إذ يلعب دور المؤثّر الذي يمنح النفس مبدأ الشعور بتعبير كيسرلينج و لا يمكن لعناصر الحضارة أن تعمل بمعزل عن الدّين فهو العنصر الجوهري في عملية التركيب و هو حسب العبارة الشائعة صالح لكلّ زمان و مكان[4].

إن الفكرة الدينيّة حسب مالك بن نبي هي التي تملك القدرة على التحرّر من الأمراض الاجتماعيّة ، و هي التي تدفع المجتمع قدما في سبيل التحرّر و التطوّر ،فهي التي تهذّب سلوك الفرد بمنحها إياه الوعي بهدف معيّن تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى"وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ،ومن طبقة إلى أخرى ،فإنها حينئذ تكون قد مكّنت لبقاء المجتمع ودوامه ،وذلك بتثبيتها و ضمانها لاستمرار الحضارة "[5].

2-2-4الموازنة بين أفكار بن نبي و أفكار الجمعيّة

ممّا سبق ذكره يمكن القول أن مالكا يتّفق في الكثير من النقاط مع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في مسألة الحضارة و شروطها و كذا الخطوات الضروريّة التي يجب قطعها في

[1] المرجع السابق ،ص78،79.
[2] محمّد درّاجي معالم منهج حضاري في تفسير القرآن عند مالك بن نبي،البصائر،ع24،6-11-2000.
[3] مالك بن نبي ،شروط النهضة،ص66.
[4] ينظر نفسه،ص58.
[5] نفسه،ص72.

هذا المضمار ،فهو يؤمن مثلهم أن الخطوة الأولى يجب أن تتمثّل في الإصلاح بكل معانيه و في طليعته الإصلاح الدّيني والثقافي وفي هذا يقول الرجل:"إنّ العلماء الجزائريين كانوا أقرب إلى الصّواب من السيّاسيين حين دعوا إلى الإصلاح ،بمعنى دفع النفس الإنسانيّة إلى حضيرة الإسلام من جديد "[1]و قد كانت هذه الخطوة بمثابة المحرّك الرئيس للعقل الجزائري الذي وجد في هذه الجمعيّة الفضاء الذي يتكلّم فيه بكل حريّة،كما وجد في أفكارها النواميس التي تنير له الدروب المظلمة .

انطلق مالك بن نبي من نفس الخطوة التي انطلق منها العلماء و هو الآية الكريمة "إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم "[2]،فالمنطلق عند كليهما يجب أن يكون بالتغيير الّداخلي أي تغيير ما بالأنفس ثم الانتقال إلى تغيير حال المجتمع،وهو كما يبدو دعوة إلى نوع من النقد الذّاتي الذي احتل فيما بعد مكانة محوريّة في الدّراسات ما بعد الكولونياليّة ، ومن الأمراض التي وجب علاجها في نفوس الجزائريين ،هو مرض القابليّة للاستعمار الذي يُحمّل فيه كل من علماء الجمعيّة و مالك بن نبي المواطن الجزائري مسؤوليّة مكوث المستعمر طويلا في هذه الدّيار"الاستعمار ليس من عبث السيّاسيين و لا من أفعالهم بل هو من النّفس ذاتها التي تقبل ذلّ الاستعمار و التي تمكّن له في أرضها "[3]مما استدعى علاجا داخليا أدّى إلى تدخّل عاجل من جمعيّة العلماء المسلمين التي وضعت يدها على الدّاء فوجدت الدّواء في تغيير ما بالنفس،وخلصت إلى قاعدة مفادها أنّ التخلص من الاستعمار يقتضي التحرّر من ثقافة القابليّة للاندماج وعقدة الدّونيّة ،و مركّب النقص الذي ميّز الإنسان المستعمَر و في هذا يقول مالك بن نبي :"و قد كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريّون أقرب هذه الحركات إلى النفوس ،وأدخلها في القلوب إذ كان أساس منهاجهم الأكمل قوله تعالى (إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم)،فأصبحت هذه الآية شعار كل من ينطرح في سلك الإصلاح في مدرسة ابن باديس ،وكانت أساسا لكل تفكير ،فظهرت آثارها في كلّ خطوة و في كلّ مقال حتّى أشرب الشعب في قلبه حبّ التغيير فأصبحت أحاديثه تتّخذها شرعة و منهاجا"[4]،

[1] المرجع السابق ،ص58.
[2] سورة الرعد،الآية رقم 11.
[3] مالك بن نبي شروط النهضة،ص31.
[4] نفسه،ص25.

كما يتّفق معهم في ضرورة العودة إلى الأصول،أي إلى الحضارة الإسلاميّة العربيّة الأمازيغيّة المميّزة للشعب الجزائري ،فالحضارة تتحقّق في نفس البيئة و لا يمكن نقلها أو الانتقال إليها "و إنّه لتفكير سديد ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعيّة إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى ،كان هذا صادرا عن عقيدة قويّة ،ولسان يستمدّ من سحر القرآن تأثيره ،ليذكّر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزّاهيّة"[1].

ويلتقي مالك بن نبي مع جمعيّة العلماء في ما يتعلّق بالعلم و الفكر باعتبارهما أهمّ و أولى خطوات الإصلاح في مقابل الجهل الذي يورّث الضعف و الهوان ،و ينصّب أصناما يصعب التخلّص منها "من المعروف أن القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهليّة على الفترة التي كانت قبل الإسلام ،و لم ينفع لهم شعر رائع ،و أدب فذّ من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف لأن التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الدّيباجة المشرقة الخالية من كلّ عنصر خلّاق أو فكر عميق ،و إذا كانت الوثنيّة في نظر الإسلام جاهليّة ،فإنّ الجهل في حقيقته وثنيّة لأنّه لا يغرس أفكارا بل ينصّب أصناما ،وهذا هو شأن الجاهليّة فلم يكن من باب الصدفة المحضة أن تكون الشّعوب البدائيّة وثنيّة ساذجة(...)ومن سنن الله في خلقه أنّه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم والعكس صحيح"[2] فبنشر العلم الصحيح تمكّن الإصلاح والمصلحون من الإمساك بمقاليد النهضة الجزائريّة بكل معانيها ،و ذلك بالأفكار الإسلاميّة الصحيحة التي حطّمت الأصنام التي نُصبت قبلها ،و المتمثّلة في الأولياء الصّالحين ممّن قضوا نحبهم ،الذين كانت تقصدهم الأنفس الجاهلة ملتمسة العون،و البركات ،و الحروز الباطلة معتقدة فيهم الإلمام بالغيب .

كما يتّفق مع الجمعيّة في قولها أن تحرير العقول و الأذهان أسبق و أوكد من تحرير الأبدان حين يقول:"أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم"[3] ،إذ لا معنى لتحرير بدن يملك عقلا عبدا يدفعه دفعا نحو التقليد و التبعيّة و يجعله قابلا للاستعمار "و ليس ينجو شعب من الاستعمار و أجناده ،إلّا إذا نجت نفسه من أن تتّسع لذلّ مستعمر،وتخلّصت من تلك الرّوح

[1] المرجع السابق،ص25.
[2] نفسه،ص28.
[3] نفسه ،ص55.

التي تؤهّله للاستعمار ،و لا يذهب كابوسه عن الشعب - كما يتصوّر البعض – بكلمات أدبيّة أو خطابيّة ،وإنّما بتحوّل نفسي ،يصبح معه الفرد شيئا فشيئا قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعيّة جديرا بأن نحترم كرامته ،و حينئذ يرتفع عنه طابع القابليّة للاستعمار،و بالتّالي لن يقبل حكومة استعماريّة تنهب ماله ،وتمتصّ دمه ،فكأنّه بتغيير نفسه قد يغيّر وضع حاكميه تلقائيا إلى الوضع الذي يرتضيه "[1]،إنّ الاستعمار بمثابة الوثن الذي يقيم بكلاكله على قلوب الجزائريين ولا سبيل للتّحرّر إلّا باقتلاعه من أصوله.

غرس العلماء في النفوس مبدأ (الحقوق تُأخذ و لا تُعطى)،و قد بدؤوا عملهم في هذا الجانب من إصلاح الإنسان نفسه ،و تزويده بالرّوح العلميّة التي تنبعث معها بوادر النهضة الكبرى، من خلال بث مواضيع ذات أهميّة تتمحور أساسا حول بحث الحلول الموصلة إلى برّ الأمان حتى أصبحت هذه المواضيع حديث العام و الخاص"و لقد كنّا إذ ذاك إذا ما خلصنا إلى سمرنا نتحدّث حديث (الغشيم) ولكنّه ليس عقيما ،إذ هو يدور حول الشؤون الاجتماعيّة كالتعليم و التربيّة ،و تطهير الأخلاق ،و العادات و مستقبل المرأة ، واستخدام رؤوس الأموال (...)فقد أصبحت لكلّ كلمة من هذه الكلمات قيمتها في الوسط الجزائري ،و لكلّ سعي أثره و إن قلّ إذ هو يساهم في بناء التقدّم و النهضة ،تماما كما تساهم القشّة الصغيرة في بناء عشّ الطير في الربيع"[2].

أدلى مالك بن نبي بدلوه في مسألة الأدب ،وضرورة توجيهه نحو غايات تخدم الصّالح العام و تسهم في بعث الفكر الجزائري الذي مكث طويلا في سبات عميق ،و بالتالي المساهمة في بناء النهضة ،بدل التغنّي بالأشخاص و الجمعيّات و بالتالي العودة إلى الوثنيّة"و لم يتخلّف الأدب الجزائري عن الرّكب فقد بدأ يصوّر تقدّم البلاد في قصائد جدّد فيها نشاطه بعد ركود طويل ،كانت تلك القصائد تغنّي ربيع النهضة ،أي ربيع الفكر لا ربيع الصّنم "[3].

و رغم الخلاف الذي نشب بين بن نبي و الجمعية غداة المؤتمر الإسلامي عام 1936م و ما تمخّض عنه من إقحام الجمعيّة نفسها في القضايا السيّاسيّة الخاصّة بالانتخابات حسب

[1] مالك بن نبي شروط النهضة،ص32.
[2] نفسه،ص33.
[3] نفسه،ص33.

مالك، في حين كان عليها المضي قدما في مشروعها المتمثّل في إصلاح منظومة المجتمع الجزائري الثّقافيّة متّخذة من العلم و التربية و الأخلاق مرتكزات لها ،ممّا ولّد حالة من العودة إلى الوثنيّات القديمة بتعبيره من خلال إيمانها بما تفرز عنه صناديق الاقتراع ،بل من خلال إيمانها أصلا بالانتخابات المزعومة التي دعت إليها الحكومة الاستعماريّة ،مع كلّ هذا النقد البنّاء في نهاية المطاف ،إلّا أنّه لا ينكر فضل الجمعيّة في تشكيل جانب كبير من العقل الجزائري فيقول:"مهما كان شأن جمعيّة العلماء إزاء ذلك الانحراف ومهما كان ركونها أحيانا إلى التفكير غير المنهجي ،فإنّها لا تزال في طليعة النّهضة الجزائريّة الصّحيحة ومن أقوى محرّكاتها"[1].

وكخاتمة للفصل يمكن القول أن الجمعيّة قد بلغت بفضل التّكوين الثّقافي و الاستعداد المعرفي لعلمائها مصاف المنظّرين للثّقافة و روّادها ،و أنّ الجهود التي بذلوها و القواعد التي ساروا عليها غدت فيما بعد دروسا تُتّبع لمن يريد بناء عالمه الثّقافي على الأسس الصّحيحة و هو دليل على صلاحيّة أفكارها لكلّ زمان، فهي تتّفق من حيث الأفكار مع جمع من المنظّرين لعلّ في طليعتهم مالك بن نبي الذي يعدّ أحد أهم روّاد الثّقافة في الوطن العربي .

[1]المرجع السابق ،ص26.

الخاتمة

الخاتمة:

يعتبر الخطاب الثقافي من أهم الخطابات التي ألقت بضلالها على الساحة النقديّة ، التي كانت سببا مباشرا في نشر الوعي و الحس الوطني في الكثير من المجتمعات المغلوبة على أمرها،وهذا راجع للارتباط الوثيق بين الثقافة والمجتمع،إذ يعتبر هذا الأخير نسقا من العلاقات المتداخلة و المترابطة التي تحتاج إلى مؤسّس و موجّه لها و الذي تجده في الثقافة غالبا ،فهي روح الأمّة و عنوان هويّتها و عليه لا يمكن التطرّق إلى موضوع إصلاح منظومة المجتمع بمعزل عن الجانب الثقافي فيه.

و لقد أفضت الدّراسة إلى نتائج مفادها:

- أن جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لم يقتصر عملها على الجانب الدّيني الدّعوي فحسب بل تعدّاه إلى الجانب الثقافي الذي يُعتبر حجر الزاوية التي لا يمكن الاستغناء عنها في كل بناء،فمشكلة المجتمعات قديما و حديثا هي في جوهرها مشكلة ثقافيّة ،و الجمعيّة أدركت هذا تمام الإدراك فسعت إلى إصلاح المجتمع انطلاقا من الإصلاح الثقافي .

- عندما توصف الجمعية بكونها دينية فهذا لا يتعارض البتّة مع الوظيفة الاجتماعيّة الثقافيّة التي تضطلع بها ، فالقضيّة قضيّة مجمل و مفصّل ،فالإصلاح الاجتماعي يدخل في عموم الإصلاح الدّيني و الإسلام دين و اجتماع.

- تأسّست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كردّ فعل على الحملة الفرنسيّة التي استهدفت ضرب المجتمع الجزائري في هويّته من خلال السعي لجعل اللّغة الفرنسيّة لغة رسميّة أولى للجزائريين،و المسيحيّة الدّيانة الأولى ،بالإضافة إلى محاولة طمس التّاريخ من خلال الإصرار على جعل الجزائر فرنسيّة،و عليه فهي حملة ثقافيّة في طيّاتها ،ممّا جعل جمعيّة العلماء تظهر كنوع من المقاومة الثّقافيّة بالموازاة مع المقاومة العسكريّة و نتيجة حتميّة لهذا الصراع الثقافي.

- جمعيّة العلماء هي جمعيّة علم و أدب و ثقافة كان هدفها بعث الثقافة العربيّة الإسلاميّة الأمازيغيّة للمحافظة على الشخصيّة الوطنيّة للجزائريين من خلال تقليدهم بسلاح الثقافة والفكر، و بالتّالي تحرير الأبدان و الأوطان معا ،إذ لا معنى لتحرير بدن يملك عقلا عبدا.

-الثقافة ظاهرة إنسانيّة بامتياز ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع إلى حدّ لا يمكن لأحدهما أن يتأسّس بمعزل عن الآخر،فكل جماعة تحتاج إلى ثقافة تستمدّ منها عناصر وجودها وخصائصها باعتبارها أسلوب حياة بجميع مقوّماتها و تفاصيلها ،تتدخل في أدقّ تفاصيل الكائن البشري.

- الإصلاح هو العمل على تغيير الأوضاع الفاسدة في المجتمعات بكل الطرق المشروعة من خلال العودة إلى الأصول ،و أولى الأولويات في الإصلاح الاجتماعي هو بناء العالم الثقافي و الإصلاح ينطلق من قيم ثقافيّة تهدي مسيرته ،و هذا الذي عملت عليه الجمعيّة من خلال محاولة خلق ثقافة وطنيّة مشتركة ،و الإصلاح بمعناه الدّقيق هو إعادة الشيء إلى طبيعته على مقتضى نظامه الذي هو له من خلال تجريده ممّا لحق به من شوائب ألحقت به الضرر و هذا الذي سعت إليه الجمعيّة عندما ألحّت على العودة إلى اللّغة العربيّة و الدّين الإسلامي الصّافي من البدع و الخرافات التي زرعها فيه الاستعمار متعمّدا .

-ركّزت الجمعيّة على الحياة الفكريّة و الثقافيّة للجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي ،خاصّة بعد الفتح الإسلامي أين كانت الحياة الثقافيّة مزدهرة غاية الازدهار بالنظر إلى عدد المدارس و المساجد التي كانت عبارة عن مراكز تعليم ممّا جعل نسبة الأميّة في الجزائر معدومة بشهادة الرحّالة الألماني شيمبر الذي زار الجزائر عام 1931م،و هي منهجيّة مضادّة اتبعها العلماء للردّ على المزاعم الفرنسيّة التي قالت أنّه لا ماضي للجزائر مع الإسلام مركّزة في خطاباتها على العهد الرّوماني قبل الإسلام و الفرنسي بعده في نسق مضمر يرجون من ورائه طمس مرحلة هي الأهم في تاريخ الجزائر ،و هي المرحلة التي أبرزتها الجمعيّة من خلال التذكير بماضي الجزائريين و ثقافتهم العربية الإسلاميّة التي دخلوا فيها بعد الفتح طوعا لا كرها.

- إن التاريخ هو الذي يربط الأجيال بعضها ببعض و هو الذي يضمن استمرار الحياة الثقافيّة و هو ضمير الأمّة.

- يدخل الدين ضرورة ضمن المكوّنات الثقافيّة و يحتلّ مكانة محوريّة في النظام الثّقافي للنّفس البشريّة و هو من أكثر مكوّنات الثقافة تمظهرا في حياة الكائن الإنساني،و الوحدة المذهبيّة بين الشّعوب تلعب دورا غاية في الأهميّة في التّماسك الاجتماعي.

- من الميادين التي انطلقت منها الجمعيّة نحو الإصلاح جانب اللّغة باعتبارها حامل للثقافة و الحفاظ عليها حفظ للمجتمع و ضمان لاستمراريّته ،باعتبارها وعاء الجماعة من منظور أنثروبولوجي ، و هي ثقافة و شخصيّة ووجود .

- فرض اللّغة يتبعه بالضّرورة فرض الثّقافة و هذا الذي سعى لتحقيقه الاحتلال الفرنسي ليكون من نتاج ذلك الهيمنة الفكريّة على الأمّة الضّعيفة ، و هذا الذي جعل علماء الجمعيّة يركّزون كثيرا على اللّغة ، من خلال وصفها بأنّها دين و جنسيّة و قوميّة وثقافة ،تمثّل جزءا من وجودهم و ميزة من مميّزاتهم ،فلغة الأمّة ترجمان أفكارها و سجل مطامحها ممّا جعلها تحتل الصف الثاني بعد الدين في قاموس الجمعيّة.

- لقد ردّت جمعيّة العلماء على الحملة الصليبيّة للاحتلال الفرنسي من خلال محاربة البدع و الخرافات ،فالمقاومة الدّينيّة هي مقاومة ثقافيّة في الأساس.

- ركّزت الجمعيّة على جملة من الخطابات التي حاولت من خلالها أن تصل إلى أغوار الفكر الجزائري و هي خطابات يمكن وصفها بكونها خطابات نقديّة ثقافيّة و تتمثّل في:

خطاب الهويّة بما أنّها تمثّل مفهوما اجتماعيا نفسيا و تستند إلى مسلّمات ثقافيّة عامّة ، ما جعل الجمعيّة تسعى جاهدة إلى محاولة توحيد المقوّمات الشخصيّة للجزائريين من خلال رفع شعار الثالوث المقدّس الإسلام ديننا و العربيّة لغتنا و الجزائر وطننا ، بالإضافة إلى خطاب التراث و الحداثة ، و الهيمنة والقابلية للاستعمار،و اهتمامها بمظاهر ثقافيّة أخرى كالأدب.

-كرّست الجمعيّة مبدأ (ما كلّ جديد يؤخذ ولا كل قديم ينبذ)،فركّزت على ضرورة الأخذ بأسباب المدنيّة الحديثة و الحياة الرّاقيّة، إذ لا تعارض مع الانفتاح على ثقافة الآخر بما أن الحكمة ضالّة المسلم أينما وجدها فهو أولى بها ،لكن لا يجب أن يؤدّي ذلك إلى التقليد الأعمى الذي تذهب معه شخصيّته و هويّته و التجديد يجب أن لا يمسّ الأصول، و إنّ من أوكد الواجبات على الشعب الجزائري الاحتفاظ بما في الماضي من نفع و عدم الزّهد فيما في الحاضر من خير و مدنيّات.

- من مبادىء الجمعيّة الجمع بين الأصالة و المعاصرة في إطار الحضارة الإسلاميّة

- عارضت الجمعيّة خطاب الهيمنة الذي يؤدي إلى القابليّة للاستعمار ، كما لم تستثن الأدب من جملة خطاباتها الثقافيّة فهو حقل خصب يمكن أن يمرّروا عبره أنساقا مضمرة بغية التأثير في

الشعب الجزائري بوصفه وسيلة من وسائل التأثير المهمّة ، و مظهر من مظاهر الثقافة والتفكير، وهو واحد من أساليب المقاومة الثقافية بما أن الحياة الأدبيّة لا تنفك عن الحياة الثقافيّة لذا ترى أنّه يجب أن يبقى عربيّا في أصوله كما يجب أن يكون وجها آخر من أوجه الكفاح.

-اعتمدت التربيّة و التعليم كأصل لهذا المشروع فالإصلاح الحق يبدأ عادة من عالم الفكر و العقل ،لذا اتخذه العلماء كنقطة انطلاق نحو الهدف المنشود، فاتخذت المساجد كمراكز للإشعاع الثقافي و العلمي ، كما فتحت العشرات من المدارس ، و خلقت العديد من الصحف التي كان لها التأثير البالغ على الجزائريين .

- من الشروط الضروريّة للنهضة نجد الحريّة البدنية و الفكريّة و التثقيف، و الجماعة و العلم و الوحدة و الفكرة الدّينيّة و هي نقاط تتّفق فيها تماما مع المفكّر مالك بن نبي الذي يعتبر من أهمّ المؤصّلين لشروط النهضة ، ممّا يدل على الحس النقدي الثقافي الذي يميّز جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ،حتّى أنّها أسهمت بشكل كبير في تكوين العقل الجزائري الحديث بتعبير مالك بن نبي.

هذا ما انتهت إليه يداي ،ومهما يكن فإنّ هذه النتائج لا تُعتبر نهائيّة ثابتة فهي صادرة عن طالب هو بالكاد في مستهلّ الطريق،وحسبي أنّي حاولت و اجتهدت قدر المستطاع.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم
- صحيح البخاري

المصادر:

1-أحمد توفيق المدني،حياة كفاح،ج2،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د ط)، الجزائر،1988م.

2-أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،ط1 بيروت،1997.(5 مجلّدات)

3-عبد الحميد ابن باديس،مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير،دارالبعث،(د ط) الجزائر1982م.

4-عبد الرحمن شيبان حقائق وأباطيل،منشورات المجلس الإسلامي الأعلى،(د ط)الجزائر،2009م.

5-عبد الرحمن شيبان ،سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين،دار المعرفة،(د ط)الجزائر 2008م.

6-عبد الرحمن شيبان،مقدمة مجلة الشهاب،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،2000م.

7 -عمّار طالبي،آثار الشيخ عبد الحميد ابن باديس الجزء الأول،الشركة الجزائريّة لصاحبها الحاج عبد القادر، ط3، بوداود،الجزائر1997م.(أربعة مجلّدات)

8-الشيخ خير الدين،مذكرات الشيخ محمّد خير الدين،ج1،ط1مطبعة دحلب الجزائر1985م

المراجع:

9-أبو البقاء الكفوي،الكليات،طبعة مؤسّسة الرسالة،(د ط)،بيروت،1992م.

10-أبو القاسم سعد الله،الحركة الوطنيّة الجزائريّة،(1900،1930)،ج2،دار الغرب الإسلامي،ط4،الجزائر،1992م

11-أنور الجندي،اليقظة الإسلاميّة في مواجهة الإستعمار،منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالميّة الأولى ،دار الاعتصام،ط1،مصر،1978م

12-أنور الجندي ،معلمة الإسلام، المجلد1،دار الصحوة للنشر والتوزيع، (د ط)،القاهرة،1991م.

13-أنيسة بركات،محاضرات و دراسات تاريخيّة وأدبية حول الجزائر،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،(دط)الجزائر1995م.

14-ابن آجروم ،نظم الآجروميّة،دار الإمام مالك،ط1،2002م

15-ابن حزم الظاهري،الفصل في الملل و النّحل،(د ط)،ج2،مكتبة الخانجي، القاهرة

16-إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب،دار الثقافة،ط2،بيروت،1983م.

17-تركي رابح عمامرة ، التعليم القومي و الشخصيّة الجزائريّة(1931،1956)،دراسة تربويّة للشخصيّة الجزائريّة،الشركة الوطنيّة للنشر و التّوزيع،ط2،الجزائر،1981م.

18-ت س إليوت ملاحظات حول تعريف الثقافة،تر شكري محمّد عبّاد (د ط)،الهيئة المصريّة العامّة للكتاب،مصر،2001م.

19-جابر عصفور،المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،ط1،بيروت،1984م.

20-حسين بن أحمد بن حسين الزوزني،شرح المعلّقات السبع،دار إحياء التراث،ط1،2002م.

21- حميد عبد الرحيم السائح،أضواء حول الثقافة ، الدار المصريّة اللّبنانيّة للطباعة و النشر و التوزيع(د ط)مصر،1993م.

22-خالد عيقون،الذاكرة الحيّة و الذكريات الأليمة(1954م،1962م)،الجزائر،2013م.

23-خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسيّة في الجزائر،(1830،1871)،(د ط)،مطبعة دحلب ،الجزائر،1992م.

24- خليل نوري،الهويّة الإسلاميّة في زمن العولمة الثقافية،ط 1،مركز البحوث والدراسات الإسلامية،العراق،2009م

25- سعد فهمي،حركة عبد الحميد ابن باديس و دورها في يقظة الجزائر،دار الرحاب،ط1،بيروت1983م.
26-سعيد يقطين،تحليل الخطاب الروائي،المركز الثقافي العربي،ط3،الدار البيضاء،1997م.
27- سمدون حمّادي و آخرون ،اللّغة العربيّة و الوعي القومي،علاقة اللغة و الهويّة،مركز دراسات الوحدة العربيّة، (د ط)،1984م.
28-شكيب أرسلان،تاريخ غزوات العرب،المكتبة العصريّة،ط1،بيروت 2008م.
29-شرف القضاة و آخرون،محاضرات في الثقافة الإسلاميّة،في العلوم الاجتماعيّة ،الأكاديميّون للنشر و التّوزيع،ط3،عمان،2002م.
30-طه عبد الرحمن،اللسان و الميزان،طبعة المركز الثقافي العربيد (دط)،الدار البيضاء،1992م.
31-رجاء عبد،المصطلح في التراث النقدي منشأة التعارف(د ط)،الاسكندريّة،2000م.
32-عبد الحميد لطفي،الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة،دار المعارف،ط1، القاهرة،1978م.
33-عبد العزيز حمّودة ،المرايا المقعرّة نحو نظريّة نقديّة عربيّة،مطابع الوطن،(د ط) ،الكويت 2001م
34-عبد الكريم بو لصفصاف،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطوير الحركة الوطنيّة الجزائريّة(1931،1945م)،
35-عبد الله الغذامي،القبيلة و القبائليّة أو هويات ما بعد الحداثة،ط2،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب ،2009
36-عبد الملك بومنجل،النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،بيت الحكمة للنشر والتوزيع،ط1،الجزائر2009م.
37-عمر بن قينة،الخطاب القومي في الثقافة الجزائريّة منشورات إتحاد الكتاب العرب (د ط)،1996م.
38-عمر بن قينة المشكلات الثقافيّة في الجزائر، التفاعلات و النتائج،دار أسامة للنشر والتّوزيع،ط1،عمّان ،الأردن،2000م.

39-علي مراد الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة في الجزائر(1925،1940)،بحث في التاريخ الديني و الاجتماعي،تر محمّد يحياتن،دار الحكمة، الجزائر،2007م.
40-فرانز فانون ،العام الخامس للثورة الجزائريّة،تر:ذوقان قرطوط، دار الفرابي ،ط1 لبنان،2004م.

41-مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة،تأملات،دار الفكر ،ط1،دمشق،سوريا، 2002م.
42-مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى،دار الفكر،ط1،دمشق،2000م.
43-مالك بن نبي ،شروط النهضة،تر عبد الصبور شافيو عمر كامل مسقاوي،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع(د ط)،دمشق،سوريا،1986م.
44-مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،تقديم عمر مسقاوي،تر:بسام بركة و أحمد شعبو،دار ط1،الفكر،دمشق، 1988 م.
45-مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة،مشكلة الثقافة،دار الفكر،ط4،دمشق،سوريا،2000م.
46-مالك بن نبي،من أجل التغيير،تر بشار بركة،دار الفكر،ط1،دمشق 2005م.
47-مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع،دار الفكر،(د ط) ،دمشق،1985م.
48-مالك بن نبي ،مشكلات الحضارة ،في مهبّ المعركة،دار الفكر،ط3،دمشق سوريا، 2002م.
49- مكتب الدراسات،ديوان مجمد العيد آل خليفة، د ط،دار الهدى،عين ميلة الجزائر،2010م.

50-الموسوعة الفلسفية العربيّة،المجلّد1،دار الكتب العلميّة،(د ط)، بيروت،1995م.
51- محمّد البارودي،إنشائيّة الخطاب في الرواية العربيّة الحديثة ، منشورات إتحاد الكتّاب العرب،(د ط)،دمشق،2000م
52- محمّد العبد،النص و الخطاب و الاتصال،الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي،ط1،القاهرة،2005م.
53- محمّد الطيبي،العرب الأصول و الهويّة ،دار الغرب(د ط)،بيروت،2002م.
54- محمّد الماكري،الشكل و الخطاب،المركز الثقافي العربي،(د ط)،بيروت،1991م.

55- محمّد عمارة ،مخاطر العولمة،على الهويّة الثقافيّة ،نهضة مصر للطباعة و النشر(دط)،مصر،(دت).
56- محمّد زرمان،فلسفة التجديد الإسلامي،(أنموذج الشيخ البشير الإبراهيمي)،دار الصحوة،(دط)القاهرة،1992م.
57- مفدي زكريا،إلياذة الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب،(د ط)،الجزائر ،1987م.
58- ميجان الرويلي و سعد البازعي،دليل الناقد الأدبي،المركزالثقافي العربي،ط3،الدار البيضاء،المغرب،2002م
59- ميشال فوكو،جغرافيا المعرفة،تر سالم يغوت،المركز الثقافي العربي،ط2،الدار البيضاء،1987م.
60- ميشال فوكو ،نظام الخطاب،تر محمّد سبيلا،دار التنوير للطباعة و النشر،ط1،،لبنان،1984م.

المعاجم:

61- ابن فارس،مقاييس اللغة ،ج2،دار الفكر،(د ط)،1979م.
62-ابن منظور ،لسان العرب،دار صادر،ط2،بيروت،1982م
63-اسماعيل بن حمّاد الجوهر،الصحاح في اللّغة،تحقيق أحمد عبد النور عطار،ط4،دار العلم للملايين،1990م
64- سعد علوش،معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، الدار البيضاء(دط)،1985م.
65- طوني بينيت،لورينس غروسبيرغ،ميغان موريس،مفاتيح اصطلاحيّة جديدة،معجم مصطلحات الثّقافة و المجتمع،ترجمة،سعيد الغانمي،المنظمة العربيّة للترجمة،ط1،بيروت،2010م.
67- الفيروز أبادي،القاموس المحيط،تحقيق خليل شيحا،دار المعرفة للطباعة والنشر،(دط)،مصر،2005م
68- لويس معلوف ، المنجد في اللّغة و الأدب و العلوم، المطبعة الكاثوليكية،(دط)بيروت2010م.

الدوريات و المجلاّت و الجرائد:

69-أحمد أبو زيد،حضارة اللغة،مجلّة عالم الفكر،المجلد3،العدد1،القاهرة،1971م.

70-أحمد حماني،الصراع بين البدعة و السنّة،مجلّة الثقافة،العدد38،1977م.

71-أسعد السحمراني،الشباب في فكر الإمام محمّد البشير الإبراهيمي،جريدة البصائر،العدد234،6-13 جوان 2005.

72- جميل صليبا تعريب التعليم بين القائلين به و المعارضين له،مجلّة العربي ،العدد182،يناير،1974م.

73-جون بول سارترّ،نظام الاستعمار في الجزائر،تر:سهيل الإدريسي ،مجلّة آداب أجنبيّة،العدد4،بيروت،لبنان،1980م.

74-حمزة بوكوشة،القضاء الإسلامي بالجزائر،جريدة البصائر،العدد1،1947/7/25م.

75- خالد سليكي،التراث و الخطاب،مجلّة جذور، النادي الأدبي الثقافي في جدة،الرياض،ج8،مج4،مارس 2002م.

76-عبدالرحمن شيبان،الشيخ أبو يعلى الزواوي،إمام المصلحين(1866م،1952م)،جريدة البصائر، العدد250،25/جويلية-2005/8/1م

77-عبد الرزاق قسوم ،جمعية العلماء و المد الثقافي،جريدة البصائر،العدد706،26ماي-1جوان

78-عبد الكريم جمعاوي،(الخطاب الواصف،النقد والقراءة)،مجلّة علامات في النقد،النادي الأدبي الثقافي،جدّة،مجلّد14،جزء56،1426ه

79-فؤاد مليت،جريدة البصائر،مقام الإصلاح في فلسفة جمعية العلماء،عدد728،3-9نوفمبر 2014م.

80-مازن الواعر،الاتجاهات اللّسانيّة المعاصرة و دورها في الدراسات الإسلاميّة،مجلّة عالم الفكر،الكويت،العدد22،1974/4/3م

81-مجموعة من الكتاب،نظرية الثقافة، عالم المعرفة،يناير،1978م.

82- مرزوق العمري،الشيخ العربي التبسي و نشاطه الإصلاحي،جريدة البصائر،عدد 699،7-13 أفريل 2014.

83- محمّد درّاجي ، معالم منهج حضاري في تفسير القرآن عند مالك بن نبي،جريدة البصائر،ع24،6-11-2000

84-محمّد العربي ممروش،مالك بن نبي و الاتجاه الحضاري في الحركة الوطنيّة،في (1920،1938)،مجلّة الثقافة،عدد85م.

85- محمّد عمارة،الشيخ البشير الإبراهيمي،إمام في مدرسة الأئمّة،جريدة البصائر،عدد243،6613 جوان2005م

86-محمّد الهادي الحسني،الشيخ مبارك الميلي مصلح و رائد للمدرسة التاريخيّة الجزائريّة الحديثة،جريدة الشعب،بتاريخ 10فيفري1983.

87- نورمان فيركلو،الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعيّة،تر رشاد عبد القادر،مجلّة الكرمل،مؤسّسة الكرمل الثقافيّة،عدد64،فلسطين،2000م.

المواقع الإلكترونيّة و الرّسائل الجامعيّة:

-أحمد ناصر سنّة،مشاعل النور ،ملامح الفكر التجديدي عند البشير الإبراهيمي،موقع الشيخ عبد الحميد ابن باديس،2014/11/15م تاريخ الإنزال:2015/2/8م.

-جابر عصفور، الهويّة الثقافيّة،موقع الكتاب،13افريل 2009م،العدد 44688

- خالد أقيس ،آثار العربي التبسي،دراسة فنيّة، رسالة ماجيستير، 2014م.

- مسعود فلوسي،دور جمعة العلماء في مواجهة المشروع الاستعماري في الجزائر،موقع مركز الأصالة للدراسات،تاريخ الإنزال28ماي 2015م.

- محمّد صالح المجذوب،الدين و الهويّة الثقافيّة السودانيّة،موقع منبر الرأي،2013/11/2م.نورالدين سوكحال ،الشيخ بيوض إبراهيم و منهجه في الإصلاح،رسالة ماجيستير،جامعة الأمير عبد القادرللعلوم الإسلاميّة،معهد أصول الدّين ،قسم الدّعوة و الإعلام قسنطينة،الجزائر،ص191

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

العنوان الصفحة

المقدّمة:.....أ

التمهيد:جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين..... 6

1 النشأة و التّأسيس.....6

2-المبادىء و الأهداف.....12

الفصل الأوّل:الإصلاح الثقافي استراتيجيّة لبناء الحضارة و تحقيق النهضة.....19

1-مدلول الثّقافة:إشكاليّة المصطلح.....19

1-1:الثقافة في الدّراسات العربيّة.....19

1-2:الثقافة في الدّراسات الغربيّة.....24

1-3:بين الثقافة العربيّة و الثقافة الغربيّة..... 26

2:الخطاب النقدي الثقافي:..... 29

2-1:الخطاب.....30

مقوّمات الخطاب 32

2-2:الخطاب و المجتمع.....32

2-3:الخطاب و الثقافة..... 33

2- 4: النقد.....34

النقد و الثقافة..... 36

3:الثقافة و الإصلاح الاجتماعي:.....37

3-1:الإصلاح الثقافي.....38

3-2:جمعية العلماء و المقاومة الثقافيّة..... 41

الفصل الثاني:جمعية العلماء و الإصلاح الثقافي في الجزائر..... 50
1-الحياة الثقافيّة في الجزائر.....50
1-1 قبل ظهور الجمعيّة 50
1-2 - بعد ظهورها..... 53
2:مجالات الإصلاح..... 55
1-2 اللغة كحامل للثّقافة..... 57
1-1-2اللغة العربيّة بين الهامش و المركز 61
2-2الدّين كمكوّن أنثروبوجي.....63
3-2التاريخ و أثره في الحفاظ على الهويّة..... . 69
3الخطابات النقدية الثقافيّة..... 72
1-3:خطاب الهويّة..... 72
2-3:التراث و الحداثة..... 76
3-3:نقد خطاب الهيمنة و القابليّة للاستعمار..... 81
4-3الأدب كظاهرة ثقافيّة..... 84
الفصل الثالث:المنهج الإصلاحي الثّقافي للجمعيّة..... 89
1الوسائل و الأساليب..... 89
1-1التربيّة و التعليم..... 89
2-1المساجد و المدارس..... 93
3-1الصحافة..... 95
4-1التوعية المباشرة و الإرشاد..... 97
2:شروط النهضة بين الجمعية و مالك بن نبي..... 98

2-1:شروط النهضة عند الجمعيّة..... 98
2-1-1العلم و الأخلاق..... 100
2-1-2الشباب و دوره في النهضة..... 102
2-1-3المرأة و العلم..... 103
2-1-4الحريّة..... 106
2-1-5الجماعة..... 109
2-2شروط النهضة عند مالك بن نبي..... 112
2-2-1 توفر مكونات الحضارة..... 112
2-2-2الاستقلال الفكري و البعد عن التبعيّة..... 113
2-2-3الفكرة الدينيّة..... 114
3 الموازنة بين أفكار بن نبي و أفكار الجمعيّة..... 115
الخاتمة..... 122
قائمة المصادر و المراجع..... 127
فهرس المحتويات..... 135